مليك العالم

الشيخ عبد الواحد يحي

كتبه سنة 1927

Le Roi du Monde

RENE GUENON

ترجمه إلى العربية وعلّق عليه

عبد الباقي مفتاح

عالم الكتب الحديث

Modern Books' World

إربد- الأردن

2013

الكتاب

مليك العالم

تأليف

عبد الباقي مفتاح

الطبعة

الأولى، 2013

عدد الصفحات: 182

القياس: 17×24

الناشر

عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع

إربد- شارع الجامعة

تلفون: (27272272- 00962)

خلوي: 0785459343

فاكس: 27269909- 00962

صندوق البريد: (3469) الرمزي البريدي: (21110)

E-mail: almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com
www.almalkotob.com

الفرع الثاني

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع

الأردن- العبدلي- تلفون: 5264363/ 079

مكتب بيروت

روضة الغدير- بناية بزي- هاتف: 471357 1 00961

فاكس: 475905 1 00961

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

[الآية 27 من سورة الروم]

إماما العالمين هما وزيرا مليك العالم القطب المكين

[الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي، الفتوحات المكية، الباب 73]

الفهـــــرس

العلامة الصوفي الفرنسي الشيخ عبد الواحد يحيى ([illegible])

(نقل بتصرف قليل من مقال نشرفي الأنترنت باسم هيثم سليمان)

ولادته :

ولد كينو في بلدة (بلوا) بفرنسا في 15 نوفمبر 1886م من أسرة فرنسية كاثوليكية محافظة كانت تعيش في يُسر ورخاء، فقد كان والده مهندساً ذا شأن. وحياة جينو لا تتسم بحوادث معينة؛ فقد كان هادئاً وديعاً، وكانت تلوح عليه، مُنذ الطفولة مخايل الذكاء الحاد، وقد بدأ تعليمه في إقليمه الذي نشأ فيه، وكان دائماً متفوقاً على أقرانه، وانتهى به الأمر سنة 1904م إلى نيل شهادة البكالوريا بعد أنَّ نال جوائز عدة كانت تمنح للمتفوقين. وفي هذه السنة 1904م سار جينو إلى باريس لتحضير الليسانس، ومكث عامين في الدراسات الجامعية، ولكن باريس لم تدعه يستمر في دراسته المدرسية المحدودة فقد فتحت له أبوباً أخرى كلُّها لذة، وكلها نعيم؛ ولا نقصد لذة حسية، أو نعيماً مادياً؛ وإذا كانت باريس تمنح ذلك للماديين الحسيين فانها تمنح لذة روحية، ونعيماً وحدانياً لمن لم تغرهم الدينا وزينتها.

وقد كان كينو من هذا النمط الأخير، كان متطلعاً إلى المعرفة، المعرفة بمعناها الصوفي، كان يتطلع إلى السماء، يريد أن يخترق الحجب، وأن يكشف القناع، وأن يرفع المساتير، وأن يصل إلى الحقّ.

وقد كان مثله إذ ذاك مثل الإمام أبي حامد الغزالي بالضبط، ولو عبرنا عن حالة جينو لما وجدنا أبرع من حديث الغزالي عن نفسه إذ يقول: (ولم أزل في عنفوان شبابي – مُنذ راهقت البلوغ قبل سن العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين – أقتحم هذا البحر العميق (بحر المعرفة) وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذر، وأتوغل في كلّ مظلمة، وأتهجم على كلّ مشكلة، وأقتحم كلّ ورطة، وأتفحص عن عقيدة كلّ فرقة، واستكشف أسرار مذهب كلّ طائفة ؛ لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنياً إلاَّ وأحب ان أطلع على بطانته، ولا ظاهرياً إلاَّ وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفياً إلاَّ واقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلاَّ وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفياً إلاَّ وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلاَّ وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلاَّ وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته. وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري، وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي، حتّى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا).

كانت تلك بالضبط حالة كينو، وقد أخذت باريس تشير إليه بالابتعاد عن الرسميات والشكليات، وتقدم له الكثير من النواحي الثقافية الروحانية.

كانت باريس مفعمة بالمدارس مختلفة الألوان، كانت فيها الماسونية ، وكانت فيها المدارس التي تنتسب إلى الهند ، أو إلى التبت ، أو إلى الصين ، وكان فيها الروحانيون على اختلاف ألوانهم ومشاربهم ونزعاتهم، بل كان فيها الذين يعالجون السحر، والتنجيم، والتصرف في العناصر، واستحضارالأرواح في زعمهم.

وترك فتاناً التعليم الجامعي غيرآسف عليه ، واخذ ينهل من هذه المنابع المختلفة ، لقد انتسب إليها، واتصل بها عن قرب ليعلم كل ما لديها من داخلها ، فعرف ما تهدف إليه ، ومنحته هذه المدارس أسمى درجاتها.

ولقد كانت صلته الوثيقة بهذه المدارس السبب المباشر في انفصاله عنها، فقد أدرك الطيب منها والخبيث، وهدته بصيرته النقادة، وهداه رأيه القويم إلى أنّ الكثرة الكثيرة من هذه المدارس إنّما هي شكلية سطحية لا تصل بالإنسان حقيقة إلى معرفة ما وراء الطبيعة وخالقها أو إلى اختراق الحجب الساترة للحقائق الوجودية ، فأخذ في الانفصال عنها شيئاً فشيأ.

وما أنّ تخلص كينو من هذه النزعات حتّى أنشأ سنة 1909 م مجلة سماها (المعفرفة)، وهذه المجلة اتسمت بالطابع العرفاني الذي كانت عليه مجلة أخرى سبقتها كانت تسمى (الطريق).

كان يساهم في إصدار مجلة (الطريق)، ويشرف على منهجها عالم فرنسي اسمه (شمبرينو)، وقد اعتنق شمبرينو الإسلام، وتسمى باسم (عبد الحقّ)، واستمر يساهم في إصدار مجلة (الطريق) من سنة 1904 إلى سنة 1907، ثمّ لأسباب عدة، انتهى إصدار المجلة، وفي هذه الأثناء تعرف كينو بعبد الحقّ، وساعد عبد الحقّ كينو في تحرير مجلة ؛(المعرفة)، وكانت المجلة تنشر الأبحاث عن الإسلام، وعن الديانة الهندية، وعن الديانة البوذية، وكانت في الوقت نفسه تنتقد كلّ ما لا تراه مستقيماً في المدارس التي تنتسب إلى الروحانية، واستمرت هذه المجلة إلى سنة 1912 وفي هذه السنة اعتنق كينو الإسلام، وتسمى باسم (عبد الواحد يحيى).

كيف اعتنق كينو الإسلام ؟ ولم اعتنقه ؟ وعلى يد من أسلم ؟

هذه الأسئلة وضعها الغربيون، وأخذوا يفترضون مختلف الفروض للإجابة عنها، ولكن لم تخرج عن أن تكون مجرد فروض، ولقد قال كينو أنّه اتصل بممثلي الأديان الشرقية عن طريق مباشر، فكيف اتصل بهم ؟ وبمن اتصل، ثمّ إنّ كينو أهدى أحد كتبه إلى الشيخ (عبد الرحمن عليش) فمن هو هذا الشيخ عبد الرحمن عليش؟ وكيف عرفه كينو؟ وهل هو الذي هداه إلى الإسلام ؟ وكيف ؟ كلّ هذه الأسئلة كانت غامضة حتّى ألقى عليها الأستاذ (مصطفى فالسان) الذي اعتنق هو الآخر الإسلام، وأتقن لغة القرآن، شيئاً من الضوء في بحث مستفيض نشر في عدد يناير سنة 1953 من مجلة "دراسات في التراثيات الروحية"

(إتود ترادسيونال) الفرنسية، وهذا البحث نلخصه فيما يأتي ، وعنوانه : "من تاريخ الحركة الصوفية في مصر" :

[الشيخ عليش والشيخ عبد الواحد :

أسرة الشيخ عليش أسرة مغربية أشهر رجالها هو الشيخ محمد عليش الكبير(1218- 1299 هـ)، وقد درس الشيخ محمد عليش في الأزهر ثمّ جلس للتدريس به سنة 1245هـ، وكان يحضردروسه ما ينوف عن المئاتين من الطلبة، وقد تقلد مشيخة السادة المالكية والإفتاء بالديار المصرية سنة 1270، وتذكر الخطط التوفيقية أنّه كان في حال حياته مستغرقاً زمنه في التأليف والتدريس والعبادة، متجافياً عن الدنيا وأهلها، لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد ألف كتبا تدرس بالأزهر.

و في 1 يونيه سنة 1882م خطب الشيخ عليش ممتدحاً (الجيش الذي خلص البلاد من الوقوع في أيدي الكفار) وأثنى على رؤسائه ، ثمّ أفتى بمروق الخديوي توفيق من الدين كمروق السهم من الرمية لخيانته دينه ووطنه، وتلا الشيخ محمد عبده هذه الفتوى في الجمعية العمومية في 22 يوليه سنة 1882م، وكان الخديوي قد أصدر أمراً بعزل عرابي، وتداول الأعضاء فيما يجب عمله فاتفقت آراؤهم على عدم قبول عزل عرابي، وقررت الجمعية وقف أوامر الخديوي وعدم تنفيذها.

وفي هذه السنة، وبسبب تلك الفتوى زُج بالشيخين محمد وابنه عبد الرحمن في السجن، وحكم عليهما بالإعدام، وقد مات الأب في السجن، أمّا الشيخ عبد الرحمن فقد استبدل حكم الإعدام بالنفي. ولكن الابتلاء تابعه في منفاه، كانت شهرته وكان حسبه ونبله الذاتي، كان كلّ ذلك من عوامل الشك فيه، واتهم في حماقة، بأنّه يتطلع إلى إقامة الخلافة الإسلامية لحسابه أو لحساب سلطان مراكش، فوضع في السجن من جديد، ولكن وضعه في السجن هذه المرة كان بناء عن أمر أمير مسلم. ومكث عامين في زنزانة لا تطاق، حيث العفونة والروائح الكريهة، وغير ذلك ممّا تضيق به النفس، ولأجل بعث الرعب في نفسه كانوا يتعمدون أن يقتلوا أمامه بعض من حكم عليهم بالإعدام، ثمّ أخرج من السجن من جديد، ونفي إلى رودس.

ولقد أقام أيضاً في دمشق، حيث التقى بالمجاهد العتيد، الأمير عبد القادرالجزائري(1222 – 1300 هـ) ، فتألفت بينهما صداقة وطيدة ، كان من أسسها حبهما الكبير للشيخ الأكبر محمد محيي الدين ابن العربي (560 – 638 هـ) الذي كان الأمير يكرس وقته لتدريس كتبه ، وهوالذي حقق بواسطة عالمين من أصحابه كتاب "الفتوحات المكية" أي أشهر تآليف ابن العربي وأعظم موسوعة صوفية عرفانية إسلامية كيفا وكما. ولما مات الأمير كفنه الشيخ عبدالرحمن وصلى عليه ، ودفنه في الصالحية بجوار ضريح الشيخ الأكبرابن العربي. ثم أصدرت الملكة فيكتوريا العفو عن الشيخ ، فعاد إلى مصر ، وأخذ نوره يشع من القاهرة إلى جميع العالم الإسلامي.

ولقد اعتنق كينو الإسلام بواسطة هذا الشيخ ، أعني الشيخ عبد الرحمن عليش، وهو الشخص الذي أهدى إليه كينو أحد كتبه بهذه العبارة : (إلى الذكرى المقدسة، ذكرى الشيخ عبد الرحمن عليش الكبير، المالكي، المغربي، الذي أدين له بالفكرة الأولى لهذا الكتاب، مصر القاهرة 1329-1347هـ). ففضلاً عن الصفة الصوفية السامية لهذا الشيخ، كان له صفة أخرى، فلقد كتب كينو في أحد خطاباته يقول: (كان الشيخ عليش شيخ فرع من الطريقة الشاذلية، وكان في الوقت نفسه شيخ المذهب المالكي بالأزهر).

والشاذلية طريقة أسسها في القرن السابع الهجري الشيخ أبو الحسن الشاذلي، وهو صورة من أروع الصور الروحانية في الإسلام.

كان الشيخ الذي ينتسب إليه كينو، إذاً يجمع بين صفتين هما الحقيقة والشريعة، كان شيخ طريقة، وشيخ مذهب، وهذا له أهميته بالنسبة لتلميذه فيما يتعلق بتقديرنا لآرائه من الناحية الإسلامية. وهكذا كان هذا الشيخ يفتح السبل أمام كينو، ويهديه الطريق، ولذلك ينبغي أنّ نعرف القراء بالواسطة التي كانت بينه وبين كينو، والمعلومات التي سنتحدث عنها مصدرها مجلة عربية ايطالية كانت تصدر في القاهرة سنة 1907م تسمى (النادي).

كانت الروح التي تسود هذه المجلة هي روح الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، وكانت هذه المجلة تعتبر طليعة مجلات أخرى صدرت فيما بعد في فرنسا وساهم فيها كينو بحظ وافر، وكان من ألمع محرري مجلة النادي سواء في ذلك قسمها العربي أو قسمها الايطالي، الكاتب عبد الهادي. وعبد الهادي هذا من أصل لتواني فنلندي، ونشأ مسيحياً، وكان اسمه (إيفان جوستاف)، ثمّ اعتنق الإسلام لما تأثر بابن العربي ، وتعلم العربية، وأخذ يكتب في المجلة المقالات وينشر الرسائل الصوفية الإسلامية من مؤلفات الشيخ الأكبر، ويترجم بعض النصوص، وقد تحدثت هذه المجلة كثيراً عن الشيخ عبد الرحمن عليش.

وكان عبد الهادي على صلة شخصية بالشيخ عبد الرحمن عليش، وقد أعطانا عنه معلومات نفيسة ، إنّه يراه من أشهر رجال الإسلام ، ووالده من كبار رجال المذهب المالكي، أما هو نفسه فقد كان حكيماً عميق الحكمة، وكان محترماً من الجميع، سواء في ذلك الرجال العاديون أم الأمراء والسلاطين، وكان شيخاً لكثير من الجماعات الدينية المنتشرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي. كان زعيماً من زعماء الإسلام، سواء في ذلك ما اتصل بالجانب الصوفي، أو الجانب الفقهي، أو الجانب السياسي، ومع ذلك فقد ابتعد هو ووالده عن ألاعيب السياسة ومؤامراتها، وكانت صفاتهما الكريمة، وتقشفهما في الحياة، ومعرفتهما المستفيضة العميقة، وحسبهما العريق، كلّ ذلك سما بهما إلى مركز ممتاز في العالم الإسلامي، بيد أنّهما لم يعيرا ذلك التفاتاً و ما ابتغيا سوى مرضاة الله.

وقد نشرت مجلة النادي مقالة للشيخ عليش عن محيي الدين وقد اختتمها بشكره لعبد الهادي بسبب ما أداه للحضارة من خدمة جليلة في تعريف الناس بمحيي الدين، ثمّ ينتهي الشيخ بأن يحث عبد الهادي على أن يستمر في متابعة دراساته الصوفية غير معني بما يثيره حوله بعض من لم يفهموا الإسلام على حقيقته.

وما إن نشرت مقالة الشيخ في المجلة حتى أعلن في العدد التالي أنّه تألفت جمعية في ايطاليا وفي الشرق لدراسة ابن عربي وسميت (الأكبرية) ووضعت منهاجاً هو التالي:

1- دراسة ونشر تعاليم الشيخ محيي الدين سواء ما يتصل منها بالشريعة وما يتصل بالحقيقة، والعمل على طبع مؤلفاته ومؤلفات تلاميذه وشرحها وإلقاء محاضرات خاصة به، وبحوث تشرح آراءه.
2- جمع أكبر عدد ممكن من محبيّ الشيخ ابن العربي، وعقد صلة قوية بينهم تقوم على الأخوة، وتؤسس على الترابط الفكري بين النخبة المختارة من الشرقيين والغربيين.
3- تقديم المساعدة المادية والتشجيع الأدبي لمن هم في حاجة إلى ذلك ممَّن يتبعون الطريق الذي اختطه محيي الدين بن العربي، وعلى الخصوص هؤلاء الذين ينشرون دعوته بالقول أو بالعمل.
4- ولا يقتصر عمل الجمعية على ذلك؛ بل يتعداه أيضاً إلى دراسة مشايخ الصوفية الشرقيين، كجلال الدين الرومي مثلاً، بيد أنَّ مركز الدائرة يجب أنْ يستمرعند ابن العربي.
5- ولا صلة للجماعة قط بمسائل السياسة مهما كان مظهرها، إذ أنّها لا تخرج عن دائرة البحث في الدين والحكمة.

وبدأ عبد الهادي ينشر دراساته الصوفية، وقد ساعده الحظ فوجد حوالي عشرين رسالة لابن عربي مخطوطة، نادرة الوجود نفيسة ، فأخذ في تحليلها. ولكن المجلة للأسف لم تسلم من شر أعداء التصوف فقضي عليها. ورأى عبد الهادي، متابعاً لإشارة شيخه عليش أن يحاول إقامة صلة روحية بين الشرق والغرب، فسافر إلى فرنسا حيث التقى بكينو. وكان كينو إذ ذاك يصدر مجلة باسم (المعرفة)، فأخذ عبد الهادي في سنة 1910م يساهم فيها بجد ونشاط. لقد نشر فيها أبحاثاً، ولكنه نشر فيها على الخصوص ترجمة كثير من النصوص الصوفية إلى اللغة الفرنسية، وأثمرت مرافقته لكينو أن عقد بينه وبين الشيخ عليش صلة قوية متينة عن طريق تبادل الرسائل والآراء، كانت النتيجة أن اعتنق جينو الإسلام سنة 1912م بعد أن درسه دراسة عميقة مستفيضة. وقامت الحرب سنة 1914 فأوقفت كلّ نشاط يتصل بالدين والروح والفكر، وسافر عبد الهادي إلى اسبانيا، وهناك في بلدة برشلونة توفاه الله سنة 1917م.

وحمل كينو راية الدعوة فاستمر يبني على ما أسسته (الأكبرية)، تلك الجماعة التي تنتهج نهج الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، والواقع هو أنّ الذي وجه كينو هذه الوجهة هو الشيخ عليش، والشيخ عليش إنّما كان مرآة تعكس صورة الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، وهو أسمى مظهر للتصوف

الإسلامي والعقيدة الإسلامية، وإذا كان الشيخ عليش مالكياً محافظاً، فإن تصوفه يمثل ظاهرا وباطنا لباب التعاليم الإسلامية.
وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة له فإنه كذلك أيضاً بالنسبة لتلميذه كينو].

عودة إلى حياة جينو

وفي السنة التي اعتنق جينو فيها الإسلام وتسمى باسم عبد الواحد يحيى، أعني سنة 1912، تزوج من فتاة فرنسية من إقليمه. وفي هذه السنة نفسها توقفت مجلة المعرفة عن الصدور، فأخذ الشيخ عبد الواحد يكتب في مختلف المجلات، وأخذ يكتب عن انحراف الماسونية فأثار سخط الماسونيين، وأخذ يكتب عن انحراف البروتستانتية فآثار سخط البروتستانتيين، وانتقد الروحانية المزيفة أنى وجدت فغضب منه الذين ينتسبون إلى الروحانية الحديثة.

وفي سبتمبر سنة 1917م عُين الشيخ أستاذاً للفلسفة في الجزائر، فقضى فيها عاماً عاد بعده إلى فرنسا. وعُين في مدرسة بلدته، ولكنّه استقال بعد عام قضاه في التدريس ليتفرغ لأبحاثه، وكان من ثمرة هذا التفرغ أن نشر في سنة 1921 كتابين هما: (مدخل لدراسة العقائد الهندوسية) و (التيوزوفية تاريخ دين مزيف)، وتوالى نشر كتبه، وتوالت مقالاته ي مختلف الجرائد.

وفي سنة 1925م فتحت له مجلة (قناع ايزيس) صدرها فأخذ يكتب فيها، وانتهى به الأمر في سنة 1929 أن أصبح أهم محرر بها، ذلك أنّه رفض ما عرضته عليه المجلة من رئاسة التحرير.

ثمّ عرض بيت من بيوت النشر في باريس على الشيخ عبد الواحد أن يسافر إلى مصر ليتصل بالثقافة الصوفية فينقل نصوصاً منها، ويترجم بعضها فقبل العرض.

وفي 20 فبراير سنة 1930(وهي سنة وفاة الشيخ عليش) سافر إلى مصر لهذا الغرض، وكان من المفروض أن يقضي فيها بضعة أشهر فقط، ولكن هذا لعمل اقتضاه مدة طويلة، ثمّ عدل بيت النشر عن مشروعه، فاستمر الشيخ عبد الواحد يحيى في القاهرة يعيش في حي الأزهر، متواضعاً، مستخفياً لا يتصل بالأوروبيين، ولا ينغمس في الحياة العامة، وإنّما يشغل كلّ وقته بدراساته وتآليفه والإجابة عن الرسائل الكثيرة التي ترد عليه. وكانت له صلة عميقة متينة مع إمام الطريقة الحامدية الشاذلية الشيخ المربي العارف سلامة الراضي(1284 - 1357 هـ/ 1867 – 1939).

كانت والدته وزوجته ووالده قد توافهم الله قبل حضوره إلى القاهرة، فحضر إليها وحيداً، ووجد الكثير من المشاق في معيشته منفرداً، فتزوج سنة 1934م كريمة الشيخ الصوفي محمد إبراهيم، فمهدت له حياة من الطمأنينة والهدوء، وانتقل بها من حي الأزهر إلى حي الدقي، واستمر يرسل المقالات إلى فرنسا، وينشر الكتب مستريحاً إلى عطف زوجته ورعايتها.

ورزقه الله بفتاتين، سمى إحداهما خديجة، والأخرى ليلى، ورزقه بولد سماه أحمد، كـان لـه قـرة عين، وبعد وفاته في جانفي 1951 بنحو أربعة أشهر أتت زوجته بولد سمته باسم والده أي عبد الواحد.

ولقد حاول الشيخ عبد الواحد بمجرد وصوله إلى القاهرة أن ينشر فيها الثقافـة الـصوفية، فـساهم مالياً وأدبياً في إخراج مجلة (المعرفة)، وقد بدأت المجلة وعليها طابع التصوف، ولكنّها فيما يبدو لم تجد الإقبال المنتظر، فأخذت تتسم شيئاً فشيئاً بالطابع الأدبي، ثمّ توقفت عن الصدور بعد ثلاثة سنوات من حياتها.

ومكث الشيخ عبد الواحد في القاهرة يؤلف الكتب، ويكتب المقالات، ويرسل الخطابات إلى جميع أنحاء العالم، كان حركة دائمة، حركة فكرية وروحانية تشع أنوارها على كلّ من يطلب الهداية والرشاد.

وفاته:

واستمر هكذا إلى أن أتاه المصير المحتوم في 7 يناير سنة 1951م تحيط به أسـرته الكريمـة، وبجـواره السيدة (فلنتين دي سان بوان)، تلك السيدة العظيمة الـتي أقامـت في القـاهرة منـذ سـنة 1924 واسـتقبلت الشيخ عند حضوره، واستمرت صديقة له طيلة إقامته بالقاهرة، ثمّ ودعته الوداع الأخير.

كانت هذه السيدة أديبة مشهورة، وصحفية لامعة، ولا عجب في ذلك فقد كانت من أسرة الشاعر الفرنسي الشهير (لامارتين)، وقد اعتنقت الإسلام، وناضلت عنه جزاها الله خير الجزاء.

ولقد وصف الكاتب المشهور (اندريه روسو) - حيث كان في القاهرة إذ ذاك — جنازة الشيخ عبد الواحد فكتب في جريدة (الفيجارو) الفرنسية يقول: (شُيعت جنازته في اليوم التالي لوفاته، وسار في الجنازة زوجته وأطفاله الثلاث، واخترقت الجنازة البلدة إلى أنّ وصلت إلى مسجد سيدنا الحسين حيث صلي عليـه، ثمّ سارت الجنازة إلى مقبرة الدراسة، لقد كانت جنازة متواضعة مكونة من الأسرة، ومن بعـض الأصـدقاء، ولم يكن فيها أيّ شيخ من مشايخ الأزهر، ودفن الشيخ عبد الواحد في مقبرة أسـرة الـشيخ محمـد إبـراهيم، وكان آخر ما قال لزوجته : (كوني مطمئنة، سوف لا أتركك قط، حقيقة أنّك لا ترينني، ولكنني سأكون هنـا وسأراك)، ويضيف روسو: (والآن حينما لا يلتزم أحد أطفالها بالهدوء فأنها تقول له: كيف تجرؤ على ذلـك مع أنّ والدك ينظر إليك، فيلتزم الطفل السكون في حضرة والده اللامرئي).

وفي 9 يناير وصلت إلى باريس برقية تعلن (وفاة رينيه كينو الفيلسوف والمستشرق الفرنسي)، ومـا أنّ وصلت هذه البرقية حتّى أخذت الصحف والمجلات تنشر مختلف المقالات عن الشيخ تحت عناوين مختلفة منها (حكيم كان يعيش في ظلّ الأهرامات)، و(فيلسوف القاهرة)، (أكبر الروحـانيين ي العـصر الحـديث). ووصفوه (بالبوصلة المعصومة)، و(بالدرع الحصين)، ثمّ خصصت له مجلة (دراسات تراثيـة) عـدداً ضـخماً كتب فيه الكثيرون من كتاب فرنسا مقالات شتى.

وكذلك خصصت له مجلة (فرنسا – آسيا) عدداً ضخماً كتب فيه كذلك كثير من الكتاب الفرنسيين، ولكن كينو كان عالمياً، ولذلك أوسعت المجلتان صدرهما للكتاب الألمان والانجليز. ثم توالت كثيرجدا من ميئات البحوث والكتب والأطروحات الجامعية والملتقيات التي تناولت أثاره بالتحليل والتقدير. وكثير هم الذين أسلموا وانخرطوا في الطريق الصوفي بعد دراستهم لكتبه ، ولا تزال هذه الظاهرة قائمة إلى يومنا هذا.

ولكن ما كتب عنه لم يكن كلُّه من هذا النمط فلقد كان هناك أعداؤه، كان هناك الماسونيون المنحرفون، وكان هناك المسيحيون الحانقون، وكان هناك المشايعون للعلم المادي الحديث ولهذه الحضارة الغربية التي هاجمها جينو ولعنها في غير ما رأفة أو رحمة ولا أدنى تنازل لأي مظهر لها. وقد كتب هؤلاء كلَّهم ضد كينو، واحتد الخلاف بين أنصاره وأعدائه، وكانت النتيجة من ذلك كلُّه خيراً وبركة، فقد حث ذلك الكثيرين على قراءة كتب كينو، وفي قراءته الخير كلّ الخير. وكانت النتيجة المباشرة لذلك كله أن اضطربت وتهافتت حجج المعادين للإسلام، وأخذ الإسلام يغزو أوروبا في بعض أفراد من طبقاتها المثقفة، وتكونت الجمعيات في فرنسا وسويسرا تريد أن تنهج نهج الشيخ عبد الواحد وتسير على منواله الصوفي العرفاني.

روني كينو بقلم الإمام عبد الحليم محمود (شيخ الأزهر) :

في كتابه " المدرسة الشاذلية الحديثة " تكلم الشيخ عبدالحليم محمود عن أول لقاء جمعه بالشيخ عبدالواحد يحيى ، وترجم بعض مقالاته ، ومما ذكره عنه قوله :

[ولا يتأتى أن نترك المجال دون أن نذكر بعض ما سبق أن كتبناه عن الشيخ، لقد كتبنا عنه في الكتيب الذي نشرناه بعنوان (أوروبا والإسلام) ما يلي: (أمّا الذي كان إسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة، فاقتدوا به واعتنقوا الإسلام، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة، تعبد الله على يقين في معاقل الكاثوليكية في فرنسا، وفي سويسرا، فهو العالم الفيلسوف الحكيم الصوفي (رينيه جينو) الذي يدوي اسمه في أوروبا قاطبة، وفي أمريكا، والذي يعرفه كلّ هؤلاء الذين يتصلون اتصالاً وثيقا بالدراسات الفلسفية الدينية في أوروبا، أو في أمريكا.

وكان سبب إسلامه بسيطاً منطقياً في آن واحد، لقد أراد أنّ يعتصم بنص مقدس، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلم يجد – بعد دراسة عميقة – سوى القرآن، فهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف ولا التبديل لأنّ الله تكفل بحفظه، وحفظ بحقيقة (أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون). لم يجد سوى القرآن نصاً مقدساً صحيحاً، فاعتصم به، وسار تحت لوائه، فغمره الأمن النفساني في رحاب الفرقان. ومؤلفاته كثيرة مشهورة من بينها كتاب (أزمة العالم الحديث) بين فيه الانحراف الهائل الذي تسير فيه أوروبا

الآن، والضلال المبين الذي أعمى الغرب عن سواء السبيل. أمّا كتابه (الشرق والغرب) فهو من الكتب الخالدة التي تجعل كلّ شرقي يفخر بشرقيته ، وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره مبيناً أصالته في الحضارة، وسموه في التفكير، وإنسانيته التي لا تقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء، وعدوانه الذي لا يقف عند حدّ، وظلمه المؤسس على المادية والاستغلال، ومظهراً في كلّ صفحة من صفحاته نبل الشرقيين وعمقهم وفهمهم الأمور فهماً يتفق مع الفضيلة ومع أسمى المبادئ الإنسانية.

وقد كتبنا عنه تقريراً لإحدى جامعاتنا المصرية للتعريف به ننشره فيما يلي: (رينيه جينو: من الشخصيات التي أخذت مكانها في التاريخ، يضعه المسلم بجوار الإمام الغزالي وأمثاله، ويضعه غير المسلمون بجوار أفلوطين صاحب الأفلاطونية الحديثة وأمثاله، وإذا كان الشخص في بيئتنا الحالية لا يقدر التقدير الذي يستحقه إلاّ بعد وفاته، فقد كان حَسَنٌ حظ (رينيه جينو) أنّه قُدر أثناء حياته، وقُدر بعد وفاته. أمّا في أثناء حياته فكان أول تقدير له أن حرمت الكنيسة قراءة كتبه، والكنيسة لا تفعل هذا إلاّ مع كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم، وقد وضعته بذلك بجوار عباقرة الفكر الذين اتخذت تجاههم نفس المسلك، ولكنّها رأت في (رينيه جينو) خطراً يكبر كلّ خطر سابق، فحرمت حتّى الحديث عنه. وإذا كان هذا تقديراً سلبياً له قيمته، فهناك التقدير الإيجابي الذي لا يقل في أهميته عن التقدير السلبي، فهناك هؤلاء الذين استجابوا لدعوة (رينيه جينو) فألفوا جمعيات في جميع العواصم الكبرى في العالم، وعلى الخصوص في سويسرا وفي فرنسا؛ والمكونون لهذه الجمعيات احتذوا حذو (رينيه جينو) فاتخذوا الإسلام ديناً، والطهارة والإخلاص وطاعة الله شعاراً وديدناً، ويكونون وسط هذه المادية السابغة، وهذه الشهوات المتغلبة واحات جميلة، يلجأ إليها كلّ من أراد الطهر والطمأنينة. ومن التقدير الإيجابي أيضاً أنّ كتبه رغم تحريم الكنيسة لقراءتها قد انتشرت في جميع أرجاء العالم، وطبعت المرة بعد الأخرى، وترجم الكثير منها إلى جميع اللغات الحية الناهضة، ما عدا العربية للأسف الشديد. ومن الطريف أنّ بعض الكتب ترجم إلى لغة الهند الصينية، ووضعت كشرح للوصية الأخيرة من وصايا (الدالاي لاما). ولم يكن يوجد في الغرب شخص متخصص في تاريخ الأديان إلاّ وهو على علم بآراء (رينيه جينو). كلّ هذا التقدير في حياته ، أمّا بعد مماته فقد زاد هذا التقدير: لقد كتبت عنه جميع صحف العالم، ومنها بعض الصحف المصرية العربية، كالمصور مثلاً، الذي كتب عنه في استفاضة، والصحف الإفرنجية أيضاً، كمجلة (أيجييت نوفال) التي أخذت تكتب عنه عدة أسابيع، ثمّ أخذت تكتب عنه كلّ عام في ذكرى وفاته.

وقد خصصت له مجلة (فرنسا- آسيا) وهي مجلة محترمة، عدداً ضخماً كتب فيه كبار الكتاب الشرقيين والغربيين، وافتتحته بتقدير شاعر فرنسا الأكبر (اندريه جيد) لرينيه جينو وقوله في صراحة لا لبس فيها: (أنّ آراء رينيه جينو لا تنقض)، وخصصت مجلة (ايتود ترا ديسيونال) وهي المجلة التي تعتبر في الغرب كلّه لسان التصوف الصحيح، عدداً ضخماً من أعدادها كتب فيه أيضاً كبار الكتاب الشرقيين والغربيين.

نشأ (رينيه جينو) في فرنسا من أسرة كاثوليكية ثرية محافظة، نشأ مرهف الشعور، مرهف الوجدان، متجهاً بطبيعته إلى التفكير العميق والأبحاث الدقيقة، وهاله حينما نضج تفكيره ما عليه قومه من الضلال، فأخذ يبحث في جد عن الحقيقة، ولكن أين هي؟ أفي الشرق أم في الغرب؟وهل هي في السماء أم في الأرض؟

أين الحقيقة؟ سؤال وجهه (رينيه جينو) إلى نفسه، كما وجهه من قبل إلى نفسه، الإمام المحاسبي، والإمام الغزالي، والإمام محيي الدين ابن عربي، وكما وجهه قبلهم عشرات من المفكرين الذين أبوا أن يستسلموا للتقليد الأعمى. وتأتي فترة الشك والحيرة والألم المُمض، ثمّ يأتي عون الله، وكان عون الله بالنسبة لرينيه جينو أن بهرته أشعة الإسلام الخالدة، وغمره ضياؤه الباهر، فاعتنقه، وتسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى، وأصبح جندياً من جنوده يدافع عنه ويدعو إليه.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه في كتاب (رمزية الصليب) تفنيداً للفرية التي تقول: (أنَّ الإسلام انتشر بالسيف) ، ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه في العدد الخاص الذي أصدرته مجلة (كاييه دي سود) في عددها الخاص بالإسلام والغرب دفاعاً عن الروحانية الإسلامية. لقد أنكر الغربيون روحانية الإسلام، أو قللوا من شانها، وأشادوا بروحانية المسيحية وأكبروا من شأنها، ووضعوا التصوف المسيحي في أسمى مكانة، وقللوا من شأن التصوف الإسلامي. فكتب الشيخ عبد الواحد يحيي مبيناً سمو التصوف الإسلامي وروعته، وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحي أو (الميستيسيسم) ، وانتهى بأنَّ هذا الميستيسيسم لا يمكنه أن يبلغ ولا عن بعد ما بلغه التصوف الإسلامي من سمو، ومن جلال.

على أنَّ الشيخ عبد الواحد يحيى لم يشد بالإسلام فحسب، وإنَّما أشاد في جميع كتبه، وفي مواضيع لا يأتي عليها حصر بالشرق، ثمّ خصص كتاباً ضخماً بعنوان: (الشرق والغرب) تزيل قراءته من نفس كلّ شرقي مركب النقص الذي غرسه الاستعمار في نفوس الشرقيين في السنوات الأخيرة. لقد دأب الاستعمار على أن يغرس في نفوس الشرقيين أنّهم أقل حضارة، بل أقل إنسانية من الغربيين. وأتى الشيخ عبد الواحد فقلب الأوضاع رأساً على عقب، وبين للشرقيين قيمتهم، وأنّهم منبع النور والهداية، ومشرق الوحي والإلهام. إنَّ كلّ شرقي يخفر بشرقيته بمجرد قراءته لهذا لكتاب، وهو ليس كتاباً يشيد بالشرق على الأسلوب الصحفي، أو على الطريق الإنشائية، وإنَّما هو كتاب علمي بأدق المعاني لكلمة علم، وهذا وحده يكفي لأن يقيم الشرقيون مظاهر التكريم للشيخ عبد الواحد اعترافاً منهم بالجميل، والله الموفق].

تآليف الشيخ عبد الواحد يحيى

(مقال لمعرب الكتاب عبدالباقي مفتاح)

مكتوبات الشيخ عبد الواحد يحيى تتمثل في 27 كتاباً باللغة الفرنسية، وترجم أكثرها إلى العديد من اللغات، كما تشمل عددا هائلا من المقالات والتعليقات والرسائل، الكثير منها لا يزال مخطوطاً، وهي تعليقاته على كتب صدرت خلال حياته أو على مقالات وبحوث نشرت في المجلات. وقد جمع كثير منها في كتب نشرت بعد وفاته. وأمّا رسائله فقد كان يتحاور من خلالها مع المثقفين والباحثين في ميادين التراث الديني والعرفاني والمفاهيم الصوفية والتربية الروحية والاتجاهات الفكرية المعاصرة؛ وفي أغلبها أجوبة على تساؤلاتهم ، وتقويم لمعلوماتهم، وتصحيح لمفاهيمهم. ولم يكتب الشيخ عبد الواحد عن الإسلام والتصوف الإسلامي إلاّ بعض مقالات وعدة بحوث، مع كثير من الإشارات الهادفة والملاحظات والتنبيهات القصيرة الصائبة حول الدين الإسلامي وحقائقه الصوفية، بثها في ثنايا غالب مكتوباته. وقد ركز الشيخ جل جهوده حول توضيح الأسس الأصلية والمبادئ الكلية للحقائق الإلهية والمعارف الميتافيزيقية والمنهاج السليم للتربية الروحية التي توصل صاحبها إلى التحقق بالكمال. كما كرر في كل مباحثه أنّ لا نجاة للفرد ولا للمجتمعات إلاّ بالعودة إلى الدين الإلهي القيم الخالد، وأنّ الإنسان لا يتحقق بالمعرفة الصحيحة وولاية الرحمان الكاملة إلاّ بسلوك طريق التصوف النقي الأصيل.

وقد قام الشيخ في الكثير من مكتوباته بتشريح في منتهي الدقة، وانتقاد في غاية الصرامة لكلّ تيارات الحداثة المناقضة للدين الإلهي وللبابه المتمثل في العرفان الصوفي، كما هاجم بكل قوة، وبدون أدنى تنازل، كلّ المفاهيم الدجالية المضادة لتعاليم رسل الله تعالى، وأعلن حرباً على المدارس التي تروج للروحنة الزائفة وللروحنة الملفقة.

والقارئ الجاد الصادق لكتبه من المثقفين الغربيين، يجد نفسه منساقاً تلقائياً من أعماقه إلى التعرف على الإسلام واعتناقه ، اقتداء بالمؤلف الذي أسلم وعمره نحو 25 سنة، وهذا ما وقع بالفعل للكثير ممّن طالعوا تآليفه. ثمّ إنّ أصحابه وتلاميذهم، خصوصاً الشيخ الجليل العارف مصطفى فالسان (1974-1911) ونجله محمد فالسان وتلاميذه من أمثال عبد الله شود كيفيكز وداود كريل وعبد الرزاق جليس وعبدالله بونو وغيرهم، وجهوا تلك المبادئ التي دعا إليها ورسخها الشيخ عبد الواحد، توجيهاً إسلامياً أصيلاً في إطار التصوف الإسلامي النقي وعرفانه العميق السامي المستوعب لجميع حقائق الشرائع السابقة لاستمداده من كتاب الله القرآن العزيز الجامع المهيمن المحفوظ إلى يوم الدين. أمّا أهم محاور مواضيع كتب الشيخ عبد الواحد يحيى فهي ستة محاور تتوزع حولها مختلف كتبه التالية :

1- رمزية الصليب (1931) Le symbolisme de la croix

هذا الكتاب يتألف من مقدمة وثلاثين فصلاً في 225 صفحة، كتبه سنة 1931، وهي السنة التي استقر فيها الشيخ بالقاهرة حتّى آخر حياته سنة 1951، وذلك إثر وفاة شيخه عبد الرحمن عليش الذي كان أحد أئمة العلم في الأزهر وإمام الطريقة الشاذلية ومفتياً للمالكية في مصر؛ واليه أهدى الشيخ عبد الواحد كتابه هذا بهذه العبارة: (إلى الذكرى المقدسة، ذكرى الشيخ عبد الرحمن عليش الكبير، المالكي، المغربي، الذي أدين له بالفكرة الأولى لهذا الكتاب). ولعل هذه الفكرة تتمثل في المقولة التي ذكرها في ثنايا الكتاب، ومعناها أنّه إن كان للمسيحيين شكل الصليب فللمسلمين حقيقته التوحيدية. وبالفعل فهذا الكتاب، رغم ما قد يوحي به عنوانه، يتميز بطابع إسلامي واضح من حيث عمق المفاهيم المتعلقة بالتوحيد خصوصاً، وفيه يتّضح أنّ رمزية الصليب ليست من خصوصيات المسيحية، بل تتميز بوسع انتشارها حتى لا يكاد يخلو منها تراث عرفاني عبر العصور، إنها أساساً تدلّ على التحقق بمرتبة الإنسان الكامل، التي هي عبارة عن جمعية كلّ المستويات الأفقية الإمكانية المنفعلة مع كلّ المدارج العمودية الوجوبية الفاعلة عروجاً ورجوعاً في النقطة الأصلية لمركز التجلي الذاتي الأكمل؛ أي بعبارة أخرى التحقق الذاتي بالأسماء الحسنى بتجلياتها الفاعلة في مرايا حضرات العبودية المنفعلة. ثمّ يوضح الشيخ المعاني المرتبطة بهذا المفهوم، مع بسطه لرمزية الصليب المعكوف الذي يدلّ على فعل المبدأ المركزي في تدبيرالعالم وتحريكه ، ولرمزية الشجرة الوجودية الوسطى التي أصلها ثابت وفروعها في الأسماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها، وهي كلمة الله الطيبة، وهي إحدى رموز الإنسان الكامل، وفي مركزها حضرة الرضوان. ومن مميزات هذا الكتاب بيانه أنّ استنباط أسرار الوجود من رمزية الصليب تساعد على عرض أسس المعرفة الميتافيزيقية والسلوك الروحي بأسلوب قريب من المنطق الرياضي الهندسي.

وفي الفصل الرابع من هذا الكتاب يبيّن الشيخ أنّه يمكن اعتبار نقطة تقاطع خط الإسراء الأفقي وخط المعراج العمودي كمسقط لخط ثالث عمودي على سطح الصليب، وبذلك يصبح الصليب ذا ثلاثة أبعاد، مستوعباً للمكان بجهاته الستة، وللزمان بأيام الخلق الستة، وسابعها في نقطة الديمومة أو يوم الخلود، ؛ كما يمثل مركزه نقطة الاعتدال الثابتة في الآن الدائم، وهي التي تبرز منها تجليات الشؤون الإلهية في دوائر الأزمنة والأمكنة وفق كلّ بعد ومرتبة من أبعاد ومراتب الوجود. وخلال ذلك العرض ينبه الشيخ إلى دلالات أخرى للصليب، كازدواجية الجلال والجمال، والمطلق والمقيد، وكيف تتكامل المتقابلات المنبثقة من نقطة الالتقاء المركزية الذاتية الثابتة في نفسها المحركة لغيرها، ومن تلك المتقابلات : الفرع العمودي الصاعد

في معارج عليين حيث أغصان شجرة طوبى الجنانية المسقية بمياه التسنيم العلوية، وعكسه الفرع الهابط في دركات سجين حيث جذور شجرة الزقوم المسقية بمياه الحميم السفلية ؛ والخط الأفقي للصليب في هذه الرمزية يشير إلى البرزخ الفاصل بين عالم اليمين وبين عالم الشمال أيّ سور الأعراف حيث حوض مياه الحياة الذي تتحول فيه النشأة الجهنمية إلى نشاة جنانية.

ثمّ تطرق الشيخ إلى موضوع الحرب والسلام بالمفهوم الأوسع، أيّ الحرب التي تنشأ من تنازع المتقابلات المتعاكسة، والجهاد الضروري للرجوع من كثرة التشتيت والتفرقة إلى وحدة التكامل والانسجام، فالجهاد الأكبر لهوى النفس يثمر تحقيق سلام الطمأنينة والرضا.

ثمّ تطرق إلى تعدد الشؤون الإلهية في مختلف مستويات المرايا الخلقية عبر مراتب الوجود، وتعرض لرمزية النسيج مبيناً أنَّ الأعيان الممكنة تظهر بتقاطع الخيطين المتعامدين: خيط السدي الوجوبي العمودي مع خيط الطعمة الإمكاني الأفقي، وأنّ مصير كلّ فرد هو ما ينسجه بنفسه من نفسه كما تفرز العنكبوت بيتها من مادة نفسها.

ثمّ تعرض الشيخ إلى التحول الدائم المستمر في الصور، المعبر عنه بالخلق الجديد، وما يترتب عليه من استحالة إمكانية التناسخ في الوجود كما تتوهمه بعض النظريات والعقائد الباطلة.

وبعد ذلك وضح الفرق الأساسي بين مفهوم النقطة وبين امتدادها، فالنقطة بمنزلة مطلق الذات، وما يظهر عن النقطة من صور فضائية وأشكال مقيدة هو بمنزلة التعينات الإمكانية، وأتبع ذلك بذكر شجرة النور كرمز لتثنية النقطة الوجودية، أيّ لظهور صورتها في مرآة الوجود الإمكاني لإبراز جواهر الكنز المخفي فيها بظهور صور التقييد الإمكانية الحادثة المتجددة في كلّ آن رغم ثبوت أعيانها في حضرة القدم، حيث أنَّ الكمال يستلزم جمع كلّ الأضداد في النقطة الأصلية الجامعة للحدوث والقدم، أي للقيود والإطلاق والمستوعبة في وحدتها لكلّ لكثرة. وهذا الكتاب مدخل كتابه التالي الذي كتبه في نفس السنة.

2- مراتب الوجود (1931) Les états multiples de l'Etre

يتألف هذا الكتاب من مقدمة و18 فصلاً في 106 صفحة، وهو أعمق كتب الشيخ فيما يتعلق بالمعرفة الإلهية والوجودية، وفيه بيان دقيق للحقائق المتعلقة بوحدة الوجود، لا بمعناها الفلسفي الذي لا يميز بين الخالق والمخلوق، ولا بين الوجود الواحد والموجودات المتكاثرة، ولا بين الظاهر والمظاهر، ولا بضلالات الاتحاد والحلول، بل وحدة الوجود بمعناها الإسلامي الأصيل من توحيد الأفعال من حيث قوله تعالى: (والله خلقكم وما تعملون) وتوحيد الصفات من حيث: (هو الأول والآخر والظاهر والباطن)، وتوحيد الذات من حيث: (فأينما تولوا فثم وجه الله).

فمدار هذا الكتاب حول تجليات الوجود الذاتي الحقّ في الشؤون الإلهية ومظاهرها الكونية عبْر مراتب الوجود، خصوصاً المظهر الإنساني الجامع الكامل، علماً بأنّ تلك الشؤون والتجليات والمراتب متكافئة من حيث الجمع الذاتي، وتتفاوت درجاتها من حيث الفرق الأسمائي.

والفصول الثلاثة الأول من الكتاب تتناول مفاهيم الوجوب والإمكان، ثمّ التمييز بين الممكن القابل للظهور، والممكن الذي لا يقبل الظهور، ثمّ التمييز بين التعيين الذاتي الذي هو مبدأ كلّ تجلي، واللاتعين الذي لا يعني العدم، مثلما أنّ الصفر ضروري في الأعداد حتّى يتميز الموجب من السالب، فاللاتعين هو بمنزلة الصفر المتيافيزيقي. وفي الفصول الأخرى وضح الشيخ مسائل تجليات الوحدة الذاتية المطلقة في الكثرة الأسمائية ومظاهرها الخلقية المقيدة، وعلاقة ذلك بوعي الإنسان من حيث إنيته الفردية كقبس من العقل الكُلّي، وظهورها المتكثر في الملكات النفسية والعقلية في اليقظة والمنام ؛ ثمّ تعرض الشيخ إلى المضاهاة بين وحدة تلك الملكات في الإنية رغم تكاثر مظاهرها. وبعد ذلك بسط الكلام في مفهوم المعرفة وتدرجها إلى غاية كمال التحقق بالوحدة الذاتية.

3- الميتافيزيقا الشرقية (1939) La métaphysique orientale

هذا الكتاب هو رسالة موجزة (26 صفحة) ملخصة لمحاضرة ألقاها الشيخ المؤلف في جامعة السربون، وعرض فيها الشروط الضرورية لفهم مؤلفاته، حيث وضع الحدود المضبوطة لجملة من المصطلحات التي هي مفاتيح لفهم مكتوباته، ودعا إلى اكتساب الوسائل المفضية إلى التحقق بحقائق العلم المقدس بالتدرج عبر مختلف مراحله، مع تأكيده بنبذ كلّ الأخطاء والمغالطات الشائعة في الفكر الغربي الحديث، وحثّ الطالب المتطلع إلى المعرفة على أن يبحث عن الظروف الملائمة التي تساعده على السلوك وفق الدين القيم في وسط متشبع بالتراث الروحي الأصيل.

4- مبادئ حساب المقادير اللامتناهية في الصفر (1946)

Principes du calcul infinitésimal

يوضح الشيخ في هذا الكتاب الفوارق الأساسية التي تميز مفهوم اللامتناهي عن مفهوم اللامعين، وهو ما يجهله الكثير من علماء الرياضيات في هذا العصر، وكذلك أدعياء العلم المتيافيزيقي، حيث لا يتحرجون من اعتبار تعدد اللامتناهيات، وهو ما يتناقض مع إطلاق اللامحدود وكماله. ثمّ يوضح الشيخ الدلالات الأصلية لبعض المفاهيم الرياضية كعملية التكامل أو العبور إلى النهايات مبيناً ما يضاهيها في الميدان الميتافيزيقي، وهذا مثال يوحي بمدى البون الفاصل بين العلوم السطحية الظاهرية وبين حقائق العلم الرباني التراثي الأصيل، وأنّ هذا الأخير يمثل قاعدة انطلاق اكتساب المعارف الميتافيزيقية ولو على الصعيد

النظري، والجدير بالملاحظة أنَّ مطالع هذا الكتاب، حتّى وإنْ كان عديم المعرفة بالرياضيات، يمكن له أن يستفيد من الفصول الأولى، مع إمكانية عثوره في باقي الفصول على بعض التوضيحات الهامة الأخرى.

5- رموز العلم المقدس (1962) Les Symboles de la science Sacrée

هو مجموع 75 مقالة منتخبة كانت قد نشرت ما بين 1925 و 1950 في مجلتي (برقع إيزيس) و (دراسات تراثية). ويجد القارئ في كلّ مقالة بياناً لدلالات رمز معين تشترك فيه العديد من المجتمعات ذات التراث الإلهي، كرمز حرف (نون)، ورمز الكهف ورمز الجبل، غير ذلك من المفاهيم المتعلقة بالمركز أو بالبناء المقدس أو المنازل الفلكية أو الدلالات العرفانية الأعداد والحروف. وعلى العكس من الأطروحات المعاصرة، يبيّن الشيخ أنَّ الرموز ليست مجرد اصطلاحات وضعت لنخبة اجتماعية أو عرقية، وإنّما هي نماذج ومثل لحقائق تفتح آفاق الوعي على المراتب العلوية لأنّها بارزة من حضرة الغيب العلوي.

(ب)محور السلوك الروحي والتحقق العرفاني

6- نظرات في التربية الروحية (1946) Apercus sur l'initiation

هذا الكتاب يتألف من 48 مقالة كتبها الشيخ ثمّ أجرى عليها بعض التعديلات والتكميلات ورتبها لتكون متناسقة التسلسل. وفي مواضيعها توضيحات دقيقة عميقة لمختلف أوجه ما ينبغي للسالك في مدارج التربية الروحية أن يتحقق به ويستوعبه ، أو أن يلغيه ويتجنبه. وفي الفصل الأول من الكتاب توضيح للفوارق بين التصوف والرهبانية المسيحية ، وبين السلوك الروحي والزهد أو بين العارف والناسك، وكذلك معرفة الأخطار الموجودة في المنظمات المنتحلة لوظيفة التربية الروحية المزيفة في العالم الغربي. ثمّ فصل الشيخ المبادئ الأساسية التي ينبني عليها السلوك كضرورة الالتزام بالشريعة ، والولادة الثانية في عالم الملكوت، وعدم الالتفات إلى الخوارق والكرامات، والمؤهلات الصحيحة للقيام بوظيفة التربية الروحية.

7- السلوك والتحقق الروحاني (1952) Initiation et réalisation spirituelle

يشتمل هذا الكتاب على مقدمة و 33 فصلاً (275 صفحة) ، مواضيعها مكملة أو مفصلة لـمّا كتبه في الكتاب السابق (نظرات في التربية الروحية)، أيّ أنّها موضحة لأهم المفاهيم المتعلقة بالسلوك، ومن ذلك الشعائر التعبدية الصحيحة في مقابل الطقوس الزائفة، وفضح أدعياء المشيخة والدجالين بتحديد الدور المنوط بشيخ التربية الحقيقية وعلاماته، ومن ذلك بيان مدى الفرق بين مقامات أولياء الله العارفين أهل

الجمع والوجود والشهود المتحققين بلباب الحكمة الربانية وبين ما هم عليه أهل الرياضات النفسية من غير ولي لله تعالى مرشد. وفي هذا الكتاب وصفة حقيقية تمكن من رصد النماذج الدجالية للمتظاهرين بالتربية. ويختم الشيخ كتابه ببيان معنى التحقق الكامل والفتح الصحيح.

ولهذا الكتاب وللذي قبله عمق إسلامي واضح حيث أنّ جل مواضيعهما مماثلة لما هو مبسوط في كتب التصوف الإسلامي. وهذان الكتابان لا غنى عنهما لمن طلب السلوك السليم الأصيل في العالم الغربي.

(ج)   محور الدراسات الدينية والتراثية

8- مدخل عام إلى دراسة العقائد الهندوسية (1921)

Introduction Générale aux doctrines hindous

يتألف هذا الكتاب من مقدمة و 38 فصلاً (317 صفحة)، وهو يلخص النظريات العرفانية الأساسية التي فصلها الشيخ في مؤلفاته الأخرى، وكان في الأصل مشروع أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، فرفض لا لضعفه بل بالعكس لما كان يخشى أن يثير من ردود فعل في الأوساط الجامعية وغيرها، لأنّه يمثل ثورة فكرية قاصمة لأهم الاتجاهات الفكرية في دراسة الأديان كما كانت رائجة في الغرب في مطالع القرن العشرين. وفي هذا لكتاب بدأ الشيخ دعوته، التي كررها في كتبه اللاحقة، إلى ضرورة اقتراب الغرب من الحكمة الشرقية لتقويم الانحراف الروحي الفكري المهول الذي أفرزته الحضارة المادية ، ويهاجم الشيخ مسخ الحقائق الشائع في أطروحات المستشرقين مفسراً سوء فهمهم للمعارف التراثية الشرقية الأصيلة بعمى البصيرة وبالعجز الروحي الذي يعانونه بحيث يريدون حصر الحقائق الإلهية والغيبية في الأشكال التافهة لقواعدهم الفكرية الوضعية الضيقة النابعة من أهوائهم وعواطفهم، وذلك بعيد عن صدق الطلب اللازم لطالب سبيل الواحد الأحد. وفي هذا الكتاب تفصيل واضح لأهم أسس عقائد الملة الهندوسية الأصيلة، وهي مطابقة من حيث جوهرها لأسس الدين الإلهي الواحد الخالد، وإنْ اختلفت أشكال التعبير عن تلك الأسس باختلاف اللغات والشرائع، والركن الأول لجميعها هو: لا اله إلاّ الله الواحد الأحد ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير لا ربَّ سواه ولا معبود بحق إلاّ هو له الأسماء الحسنى ذو الجلال والإكرام.

9- الإنسان وصيرورته وفق تعاليم الفيدنتا (1925)

L'homme et son devenir selon le Védanta

يتألف هذا الكتاب من مقدمة و 24 باباً (206 صفحة)، وهو يتناول تكوين الإنسان الآدمي ومراحل أطواره ومصيره بعد الموت حسب تعاليم كتاب الفيدنتا الملخص للب التراث الهندوسي الأصيل، ومن ذلك ضرورة ربط الأحوال الواردة على الإنسان بالمبدأ العلوي الأصلي، فهي مظاهر متعددة لوحدته الثابتة. كذلك فإن الإنيات الفردية مظاهر للهوية الحقة والإنية المطلقة الأصلية التي لا وجود ولا قيام للإنيات الفردية إلاّ بها. وبالتأمل في المضاهاة بين العالمين الصغير والكبير أي الإنسان والكون، وبين ارتباط الألوهية بتجلياتها، يمكن توضيح منهجية السلوك العرفاني الذي يتمثل في عروج النفس بعد انعتاقها من سجن إنيتها الشخصية الضيقة إلى وسع المراتب الروحية العالية.

وقد ركز الشيخ خلال عرضه لتعاليم الفيدنتا على عدم انفصال الجانب الشرعي التطبيقي الظاهري عن الجانب النظري والوجداني الباطني، وأشار أيضاً إلى عدم كفاءة اللغات الغربية للتعبير الصحيح عن حقائق المعرفة السامية كما تعبر عنها اللغات المقدسة التي نزل بها الوحي الإلهي، ممَّا يستلزم استعمال الرموز لتقريب مفاهيم ما تعذر الإفصاح عنه بالمصطلحات المألوفة.

وينبه الشيخ إلى أنَّ الفلسفة الغربية لا تعرف من حقيقة الإنسان إلاَّ جانبه الأسفل في الوعي وفي الحس، وذلك لا يمثل إلاَّ نسبة ضئيلة دنيا من مجموع طاقاتها، ومظهر ضيق جداً من رحابة إمكانياتها. ثمّ إنّ مجموع كلّ تلك الطاقات والإمكانيات ما هي إلاَّ مظهر جزئي بسيط للإنية الحقية الذاتية الثابتة المطلقة للذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، إذ كلّ ما سواها لا يمكن أن يعتبر وجوداً حقيقياً. وفي هذا الكتاب بيان لمراكز الطاقة الروحانية في الإنسان ورقائقها التي تنتعش بذكر الله تعالى كالزرع المبارك الذي يخرج شطأه من بذرة أدنى من السمسمة إلى أن تمتد فروعها في السماء توتي أكلها العرفاني كلّ حين بإذن ربها ، عند تحقق صاحبها بمقامات السلوك المعراجي فناء وبقاء إلى أن يتمكن في الكمال، وتسفر شمسه فيه عن الإنسان الكامل الخليفة الجامع.

وهذا الكتاب يعتبر من أصعب كتب الشيخ لكثرة ما فيه من المصطلحات السنسكريتية – لغة الهندوس – ولطبيعة البحث المتعمق في ميدان ما وراء الطبيعة.

10- الثلاثية الكبرى (1946) La grande Triade

يحتوي هذا الكتاب على مقدمة و 26 فصلاً (212 صفحة)، وهو يتناول الرمز المثلثي ودلالاته العرفانية وفق تعاليم تراث الشرق الأقصى، وهو الرمز المؤلف من الثلاثية الأساسية : السماء والأرض والإنسان الذي هو العمد الواصل بينهما، أو الحقّ والخلق والواسطة، أوالإطلاق والتقييد والبرزخ الجامع

لهما، وفي هذا الكتاب توضيح لميزات كلّ من جانبي الملة الصينية الأصيلة : جانب السلوك الروحي والمعرفة الإلهية كما هي في مدارس علم الباطن المنبثقة من (الطاوية)، وجانب السلوك الظاهري والاجتماعي والمعرفة الشرعية كما هي في مدارس علم الظاهر المنبثقة من (الكنفوشية). وأوضح أنّ السلوك عبر مدارج العلم الباطن، وهو المخصوص بقلة من المصطفين الأخيار، يتمّ بعد نيل الفتح الصغير برجوع العبد إلى أصل فطرته الحقيقية، ثمّ العروج عبر مراتبها العلوية إلى أن يتمكن بحقيقة الكمال بعد نيله الفتح الكبيرعند (وأن إلى ربك المنتهى). هذا وفي كتابه (التصوف الإسلامي والطاوية) معلومات أخرى مكملة لهذا الكتاب.

11- نظرات على علم الباطن المسيحي (1954)

Apercus sur l'ésotérisme chrétien

يتألف هذا الكتاب من مقدمة و9 مقالات (126 صفحة) ، يجيب فيها الشيخ على بعض أسئلة القراء حول مسائل تتعلق بعلم الباطن المسيحي، كما يشمل تعقيبات الشيخ على الأخطاء الموجودة في بعض المؤلفات حول هذا الموضوع، وهو ثالث تأليف للشيخ عن المسيحية بعد كتابه حول القديس "برنارد" وكتابه "العلم الباطن لدانتي". وهذه المقالات تدرس تنظيمات كانت تحتضن في باطنها مناهج سلوكية صوفية وعرفانية خلال القرون الوسطى في أوروبا تحت غطاء المسيحية الرسمية الشائعة، كالتنظيم المسمى "بتنظيم الهيكل" و"تنظيم أوفياء المحبة" وتنظيم "فرسان الكأس المقدسة". وفي بداية الكتاب تكلم الشيخ حول موضوعين، يتعلق الأول بأهمية اللغة العبرية في الملة المسيحية، ويتعلق الثاني بتمحور المسيحية الأصيلة حول قطبين : القطب الشرعي الظاهري العام والقطب السلوكي الباطني الخاص.

12- دراسات حول الهندوسية (1968) Etudes sur l'hindouisme

يتألف هذا الكتاب من 11 مقالة وتعقيبات على بحوث صدر معظمها في مجلة "برقع إيزيس" ومجلة "دراسات تراثية". والمفاهيم التي تطرق إليها تتميز بعموم أبعادها، وحتى إنْ تعلقت بخصوص التراث الهندوسي في مجالات المعرفة والحقائق الغيبية فهي لا تتنافى مع إمكانية تطبيقها على أشكال أخرى من التراث المعرفي في الملل والأديان الأخرى ذات الأصل الإلهي.

ويصحح الشيخ في تلك المقالات العديد من الأخطاء وأنماطاً من سوء الفهم الشائعة عند الباحثين المعاصرين، ويميز سمو المشاهدة في مقام الإحسان والاجتباء الرباني عن أعمال المجاهدة في مقام الإيمان، كما يميز بين علوم المعرفة وأعمال المعاملة، ويوضح علاقات الهوية بالإنية، وينبه على مبررات وجود النظام الطبقي في المجتمعات التراثية كوضع يعكس ما عليه الاستعدادات والأمزجة الإنسانية من الاختلاف

والتفاضل، لا لاكتساب امتيازات مادية واجتماعية، بل لكسب مراتب روحية ومدارج عرفانية. وتعرض الشيخ أيضاً إلى مميزات بعض الاتجاهات في المذاهب الهندوسية مثل مذهب "التانتاريزم" وما يظهر عند بعض سالكيه من ظواهر خارقة للعوائد.

13- لمحات حول التصوف الإسلامي وعلم الباطن في الملة الصينية "الطاوية"

Esotérisme islamique et taoisme (1973)

القسم الأول من هذا الكتاب يتألف من مقالات حول مسائل في التصوف الإسلامي أولها: المبادئ العامة الأساسية للتصوف وأنّه ليس بدخيل على الإسلام كما يزعم الجاهلون بل منبعه الأصيل هو القرآن وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ثمّ تطرق في كلّ مقال إلى مسألة معينة من المسائل التالية : القشر واللب في الميدان العرفاني – حقيقة التوحيد- رمزية اليد – الفقر إلى الله تعالى – الروح – علم أسرار الحروف وأعدادها في اللغة العربية – التجلي والخلق – آثار الحضارة الإسلامية في الغرب.

أمّا القسم الثاني من الكتاب ففيه بحث طويل عميق واضح حول مميزات الملة الصينية الأصيلة بجانبيها : العام المتمثل في الشريعة والمؤطر في تعاليم كنفوشيوس ومدرسته، والخاص المتمثل في السلوك الروحي والتحقق العرفاني والمؤطر في مناهج الطاوية وتعاليم أقطابها مثل (لاوتسا) المعاصر لكنفوشيوس في القرن السادس قبل الميلاد. والقسم الأخير من الكتاب يشتمل على تعليقات للمؤلف على عدة تأليف فيها دراسات حول التصوف الإسلامي أو حول الملة الصينية.

(د) محور دراسات حول شخصيات ومذاهب ومفاهيم تراثية

14- باطنية دانتي (1925) l'Esotérisme de Dante

الأديب الشاعر دانتي(1265 – 1321 م) هو أحد مشاهير علماء الدين بايطاليا في القرن السابع الهجري ، ويكشف الشيخ عبد الواحد يحيى بأنّ هذا الحكيم كان متضلعاً في علوم الباطن حسب ما هو مستبطن في كتابه الشهير "الكوميديا الإلهية" وأيضاً في كتابه "الحياة الجديدة". ويؤكّد الشيخ أنّ دانتي كان أحد رؤساء تنظيم سري يدعى "العقد المقدس" مرتبط بتنظيم "الهيكل" الذي كان يمثل تحت غطاء الحروب الصليبية وحماية المسيحية في فلسطين والشام ، حلقة وصل بين دوائر الولاية في العالم الإسلامي وعالم الولاية الخفي في أوروبا خلال القرون الوسطى. وفي الكتاب مقارنة لـما فصله دانتي حول مراتب الوجود والنشأة الكونية وترتيبها من سجين بأسفل سافلين إلى جنات عدن في عليين مروراً بسورالأعراف، وبين رحلة الإسراء

والمعراج للنبي الخاتم سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – والمعارج الروحية للأولياء كما هي مفصلة في مكتوبات الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي الذي توفي سنة 638هـ أي 80 سنة قبل أن ينهي دانيته 'الكوميديا الإلهية'. وتعرض الشيخ في بحثه هذا إلى رمزية الأعداد والحروف في المعارف الصوفية ، وفي النهاية نبه إلى أنّ ظهور دانتيه بالكوميديا الإلهية في عصره مرتبط بدقة بالخصائص المميزة لكلّ مرحلة من مراحل الأدوار الزمنية التي تجتازها البشرية.

15- مليك العالم (1927) Le Roi du monde

هذا الكتاب أثار جدلاً كثيراً في الأوساط المهتمة بالتراث الروحي، وفيه يبيّن الشيخ وجود مملكة للولاية في عالم الإنسان، سلطانها هو قطب الزمان، وحكامها بمختلف طبقاتهم هم أولياء الرحمان، ونوابهم موزعون داخل كلّ الشعوب والأمم، وهي مملكة القلوب والأرواح حسب مقاماتها عند ربها وتحققها بالمعرفة الإلهية، وهي المركز الثابت الذي عليه مدار أطوار الحضارات الإنسانية من بدإ الخليقة إلى آخر الزمان. وإنْ كان أشخاص هذه المملكة يغلب عليهم الستر والخفاء فآثارهم في غاية الظهور والجلاء، ولبيان ذلك استعمل الشيخ مصطلحات وأسلوباً يتناسبان مع عقلية الغربيين، كما استشهد بمعطيات من مصادر متنوعة لملل وأديان مختلفة تشير إلى وجود مركز علوي دائم لديوان الصالحين من حيث: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون إنّ في هذا لبلاغاً لقوم عابدين وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين).

16- القديس برنارد (1929) Saint Bernard

يعتبر القديس برنارد (1090م-1153م) إماماً مرموقاً على صعيد الروحانية المسيحية في القرون الوسطى، وقد تولى رئاسة دير (كليرفو) بفرنسا في سن مبكرة، وإلى جانب هذا تميز بمهارته في الدبلوماسية السياسية بحيث تمكن من جبر التصدع الذي حصل آنذاك بين الكنيسة والقصر الملكي، كما قام بالعديد من المناظرات في مسائل العقيدة، وساهم في إنشاء وإرساء جماعة :"تنظيم الهيكل" الذي كان له دور أساسي في وصل الروحانية الغربية بالروحانية الإسلامية تحت غطاء الحروب الصليبية. ومن خلال المسار المتميز لحياة هذا القديس أراد الشيخ عبد الواحد يحيى أن يعطي نموذجاً حياً للروابط الوثيقة التي ينبغي أن تتحقق دائماً بين السلطة الروحية والحكم الزمني، أو التكامل بين رجال الدين ورجال الدولة ، أو بين عالمي التدبير الروحي والحكمة التفصيلية الكونية ، لأنّ ذلك ضروري لاستقرار وسلام كلّ أمة وازدهار كلّ ملل. وفي هذا السياق كتب الشيخ في نفس السنة التي ألف فيها هذا الكتاب تأليفاً آخر فصل فيه هذا الموضوع بعمق وعنوانه" السلطة الروحية والحكم الزمني".

17- دراسات حول الماسونية الحرة وتنظيم الرفقة (1964)

Etudes sur la franc – maconnerie et le compagnonnage

يشتمل هذا الكتاب على 23 مقالاً وعشرات من التعاليق على كتب ودراسات مجموعة في جزأين كبيرين (أزيد من 600 صفحة) ، وهي بحوث تتعلق بهذين التنظيمين المشهورين في الغرب. فهي موسوعة للمعلومات حول تاريخ الماسونية وتطورها ودلالات رموزها ، ويقرر الشيخ أنّ الماسونية الأصلية كانت منهاجاً للتربية الروحية، وأنّ لرموزها ومصطلحاتها دلالات عرفانية، وأنّ جانبها الأصيل ما زال يحمل إلى اليوم – بالنسبة للغرب – بذورا لتلك التربية والمعرفة رغم ضعف مستوى جل المنتسبين إليها، ورغم اقتصارها على الجانب النظري فقط بعد انقطاعها مُنذ زمن بعيد عن الجانب التطبيقي. وأعطى المؤلف أمثلة لإمكانية رجوع الماسونية لأصالتها الأولى، كما يظهر في مقاله حول "الكلمة المفقودة والألفاظ المستعارة".

18- أنماط تراثية وأدوار كونية (1970)

formes traditionnelles et cycles cosmiques

هذا الكتاب يجمع منتخبات نشرت بعد وفاة المؤلف، وقد سلط فيها الأضواء على بعض مراحل التاريخ الإنساني والأدوار الزمنية للحضارات وفق التعاليم الهندوسية، وهي تتفق في مجملها مع تعاليم الملل الأخرى. وأعطى الشيخ توضيحات عميقة وعجيبة، قد لا يقررها بعض علماء الآثار المعاصرين، حول التراث الحضاري للمنطقة القطبية الشمالية، وللقارة الأطلسية التي اندثرت بخسف طوفان عام، وحول الروحانية العبرية (القبالة)، وكذلك حول الحضارة المصرية والكلدانية ، وتراث العلوم الهرمسية ومدى انتشارها وامتدادها في الحضارات السابقة واللاحقة بما فيها الحضارة الإسلامية حيث استعمل بعض أئمة التصوف الإسلامي أحياناً لغة رموزها ومصطلحاتها. وجملة هذه البحوث تشكل لوحة مثيرة للجوانب المقدسة في التاريخ الإنساني، وإن كانت على النقيض من الفرضيات الشائعة عند الباحثين المحدثين.

19- مجموع منتخبات (1978) Melanges

يتألف من 19 مقالة تتناول مواضيع شتى ابتداء من مقالة "مبدع العالم" الصادرة سنة 1909 وفيها بحث حول مسألة أصل الشر، وانتهاء بمقالة صدرت عام 1951 حول العلم الظاهر بالنسبة للعلوم التراثية الأصيلة والتي تؤكد بصفة قطعية استحالة التوفيق بين البحث الفكري الظاهري السطحي الحديث، وبين المعارف التراثية اليقينية.

وينتظم هذا الكتاب في ثلاثة محاور: علم ما وراء الطبيعة والكونيات (7 مقالات)، العلوم والفنون التراثية (4 مقالات)، وأخيراً بحوث حول بعض الضلالات المعاصرة وانحرافات الحداثة (8

مقالات)، وفي هذه المحاور توجد مفاهيم عميقة للعلاقات بين العلوم والفنون وطبيعة كلّ منها، كما توجد معلومات غزيرة مفيدة حول نظرية الروح، وحول أصل الطائفة المسيحية الأمريكية التي تعرف بالمرمونية، وأيضاً حول مغالطات ومتاهات أدعياء الروحنة الحديثة.

(هـ) محور الدراسات الحضارية والنقد التشريحي للحضارة المعاصرة

هذا المحور يشتمل على أربعة كتب كان لها الأثر البارز البالغ في الفكر الغربي خلال القرن العشرين، وقد قلبت القناعات الفكرية والعقائدية للكثير من المطالعين لها فجعلتهم يعودون إلى الدين والشرائع الإلهية. وفي هذه الكتب تشريح في منتهى الدقة والعمق لأسس الحضارة الغربية المعاصرة وطابعها الدجالي الطاغوتي، ولمراحل تطورها السابقة واللاحقة، وفيها بيان لبطلان كل النظريات المناقضة للشرائع السماوية، وتحطيم بلا هوادة لجميع أوثان الحداثة.

20- الشرق والغرب (1924) Orient & Occident

هذا الكتاب الذي يقع في 230 صفحة يتألف من مقدمة وقسمين: القسم الأول في أربعة فصول تحت عنوان: الأوهام الغربية ، والثاني في أربعة فصول أيضاً تحت عنوان: إمكانية التقارب، وأخيراً خاتمة ملخصة. سعى الشيخ في ها الكتاب إلى إبادة أوثان الحضارة الغربية، وإلى الإشادة بأصالة وسمو الشرائع الإلهية والمبادئ العرفانية الشرقية. أوثان الحداثة تتمثل في اللهفة وراء التطور المادي المبتور عن كلّ ترق روحي، وفي تأليه الفكر المقطوع عن الوحي الرباني، وفي متاهات التكديس والتكاثر للتقنيات والعلوم المادية بدون اعتبار لأصولها العلوية، وفي أخلاقيات سطحية لعواطف رجراجة فقدت أصولها العرفانية، كلّ ذلك في إطار حضارة في منتهى الهشاشة، تحدق بها الأخطار التي تنشؤها بنفسها كلّما ازداد تطورها. ولا نجاة للغرب من دوامة الخواء الروحي الذي يهوي به إلاّ بالاقتراب من التعاليم الربانية التي لا تزال حية في الشرق. ويقرر الشيخ أنّ ذلك التقارب تعترضه عوائق صعبة، لكن لابدّ من تجاوزها إن أراد الغرب النجاة من مصير متعفن خطير والعودة إلى حضارة متوازنة. وفصّل الشيخ ما ينبغي تجنبه في مسار تلقيح وتلاقح الغرب مع الشرق حتّى تنشأ الظروف اللازمة لضمان الوفاق والانسجام والسلام، وهذا الكتاب ميسور القراءة، وهو مكمل للكتاب التالي "أزمة العالم الحديث".

21- أزمة العالم الحديث (1927) La Crise du monde moderne

ألف الشيخ هذا الكتاب عقب تأليفه 'الشرق والغرب' فهما متكاملان، وفيه يشرح الشيخ كيف أنّ الحضارة المعاصرة سجنت أهلها في المادية القاتلة والشخصانية الوهمية والفردية المغرورة، لأنّ أصولها بترت فانفصلت عن الحقيقة الثابتة المسقية بمياه التعاليم الربانية وشرائع دين الله تعالى. وقد قام بتحليل مميزات العصر الحديث تحليلاً يتميز بالدقة والتناسق والموضوعية الصارمة، ومن خلاله بين إلى أيّ مدى وصل انحراف هذه الحاضرة، وتعارضها مع جل الحضارات الأصيلة السابقة، حيث أنّها اهتمت أساساً باستغلال ما نبذته تلك الحضارات السابقة، ولذلك فرغم نجاح الحضارة المعاصرة نجاحاً مذهلاً في التقنيات المادية لا يصحّ أن نعت بالتفوق كما يزعمه بإصرار جمهور المفكرين الغربيين، لأنّها لم تزد غالبية الناس إلاّ شقاء باطنياً، ولم تزد المجتمعات إلاّ بؤساً سلوكياً بسبب ابتعادهم عن الحقّ الذي لا حياة حقيقية ولا سعادة دائمة إلاّ في حضرته واتباع شريعته. لكن الشيخ قرر مع هذا إمكانية تصحيح هذا الوضع المنذر بالخطر الداهم، وذلك بالعودة إلى منابع التراث الروحي الأصيل لتي لا تزال حية إلى اليوم. ويمكن بيسر قراءة هذا الكتاب وإن كان الاطلاع على كتابه(الشرق والغرب) ممّا يساعد على استيعاب كل جوانبه.

22- السلطة الروحية والحكم الزمني (1929)

utorité spirituelle et Pouvoir temporelA

يتألف هذا الكتاب من مقدمة و9 فصول (118 صفحة). بعدما ركز الشيخ على الميزة الأساسية للسلطة الروحية في علو مرتبتها، وضرورة احترام سلم القيم والتدرج في المراتب لدى كلّ مجتمع محافظ على الدين، عمد إلى عرض ما ينبغي أن تكون عليه العلاقات التي تضبط وظيفة علماء الدين بوظيفة رجال الحكم، إذ طبيعة هذه الارتباطات هي التي تميز موقع المجتمع من القداسة والثبات في الأصالة الحافظة لكلّ مجتمع من التفكك والتدهور. واستشهد الشيخ بأمثلة من التراث الهندوسي والغربي في القرون الوسطى، ويقرر أنّ اختلال الموازين في سلم القيم الدينية الاجتماعية يؤول إلى قلبها إذ لم يحصل التقويم السليم في الوقت المناسب. ومن هذا الانقلاب السالب تنشأ الفوضى في العقائد والمفاهيم والأفكار والسلوكيات، وتلك هي علامة الدخول في أحلك الحقب التي تشكل المرحلة الظلامية لتاريخ الإنسانية، وهي المرحلة التي دخلتها البشرية المنفصلة عن أصالتها الدينية منذ قرون وستستمر متفاقمة إلى ظهور العلامات الكبرى لآخر الزمان.

23- كتاب هيمنة الكم وعلامات آخر الزمن (1945)

Le Régne de la quantité et les signes des temps

يتألف هذا الكتاب من مقدمة و40 فصلاً (373 صفحة)، هذا الكتاب الجليل من أبرز مؤلفات الشيخ وأشدها إثارة، شرح فيه الأسس الخاطئة والاتجاهات الدجالية للحضارة الغربية المعاصرة ومراحل تطورها في الماضي وفي المستقبل إلى آخر الزمان، وبين بصرامة تناقضها مع المبادئ الإلهية ومعطيات المعرفة الميتافيزيقية اليقينية. والقسم الأول من الكتاب وضح فيه عدة مفاهيم أساسية في المعرفة كمعنى الكيف والكم، وحقيقية التجلي والظهور، والزمان والمكان والمادة ، ثمّ خصص فصوله الأخرى لتشخيص ظواهر التخريب الروحي والانحراف الفكري ومحاولة قلب الحقائق ومسخ القيم في المجتمعات المعاصرة، وهي الظواهر المميزة للمجتمع البشري في آخر الزمان كما هو مسجل في كلّ الكتب الإلهية، ويختم الكتاب بموضوع ظهور الدجال ومملكته الزائفة ، وأخيرا بيان لمعنى نهاية الدنيا وقيام الساعة.

(و) محور الردود على ضلالات ومتاهات الروحنة المزيفة

24- كتاب التيوصوفيزم قصة دين زائف (1921)

Le Théosophisme, Histoire d'une pseudo - religion

هذا الكتاب الواسع الكثيف يتألف من مقدمة و30فصلاً، كما يشتمل على عشرات التعليقات حول كتب ومقالات (472 صفحة)، وفيه دراسة دقيقة وافية لتاريخ نحلة "التيوصوفيزم" في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين، وفيه أيضاً تحليل لأحداث ولأشخاص كان لهم تأثير في التنظيمات السرية التي كانت تعج بها الأوساط الغربية في تلك الفترة ؛ ولا تزال امتدادات فروعها متغلغة إلى اليوم في المجتمعات الغربية. وهذا الكتاب يبرهن على أنّ التيوصوفيزم وأمثالها من النحل الباطلة والتنظيمات البدعية المضللة في الغرب، لا تعدو أن تكون صوراً مشوهة للمعرفة الدينية الإلهية المقدسة، وما هي إلا بؤر لروحنة مزيفة أو ملفقة يشرف على تسييرها دجاجلة من أولياء الشيطان يستغلون تطلعات أناس متبرمين من حياة مادية سطحية فيضيعون أعمارهم في متاهات مصيرها الإحباط.

25- زيغ نحلة استحضار الأرواح (1923) L'erreur Spirite

يتألف هذا الكتاب من مقدمة و 14 فصلاً (406 صفحة)، وهو يتميز بالوسع والدقة في تتبع نحلة "استحضار الأرواح" ودعاتها ونواديها وتطورها، وهي النحلة التي يزعم دعاتها إمكانية الاتصال بأرواح

الأموات في جلسات وفق طقوس خاصة، وكيف أنّ تلك الأرواح تملي عليهم جملة من الأخبار، فبين الشيخ أنّ هذا الزعم باطل تماماً ومستحيل رغم صحّة بعض الظواهر الغريبة التي تحدث في تلك الجلسات والتي يمكن تفسيرها وفق معطيات معروفة في التراث الديني والعرفاني الأصيل. ثمّ نبه الشيخ إلى الأباطيل التي تزخر فيها مكتوبات المنتمين لهذه النحلة والتي يزعمون أنّهم تلقوها من تلك الأرواح، ومن أخطرها الإيمان بعقيدة التناسخ ولأحوال الإنسان بعد الموت مسمًا يناقض نصوص الكتب الإلهية. وحذر الشيخ من الاختلالات العقلية والاضطرابات النفسية للكثير ممّن يمارسون طقوس هذه النحلة، وأنها وسط مكيف للولاية الشيطانية والنفوس الظلامية. وقد كتب الشيخ كتابه هذا سعياً منه للحد من انتشارها المتنامي في تلك الفترة، واستطاع بقوة أن يقيم الحجج على زيغ أتباعها.

26- كتاب تقارير (1973) Comptes Rendus

يشتمل على مجموعة من التقارير حول كتب قام الشيخ بتحليلها، وأكثرها يدخل في سياق العلوم الخفية وتيارات الروحنة التي تنامت في الغرب خلال القرن السابع وبدايات القرن العشرين، وللطعون التي وجهها الشيخ إلى المفاهيم الخاطئة والعقائد الزائغة في تلك النزعات التي تصد عن الدين الإلهي القويم، وهي طعون لم تفقد صلاحيتها إلى اليوم، ومن شأنها المساعدة على التقويم السديد للعديد من التيارات الفكرية والنحل الطائفية وبدعها الدجالية. ويوجد إلى جانب تلك الطعون مقالات الثناء على كتب الباحث في التراث الأصيل "أناندا كوما راسوامي"، خصوصاً بحوثه حول الفن المقدس، كما توجد في القسم الثاني من الكتاب تعقيبات مشحونة بالحيوية كتبها الشيخ حول مقالات الباحث "بول لوكور" في مجلة "أتلنتيس".

27- كتاب مقالات وتقارير (2002) Articles et comptes rendus

يشتمل هذا الكتاب على مقالات نشرها الشيخ في مجلة "برقع إزيس" ما بين سنتي 1925 و1935 وفي مجلة "دراسات تراثية" ما بين سنتي 1936 و 1950. وفي قسمه الأول توجد 12 مقالة في 95 صفحة فيها بحوثٍ حول تنظيمات ومذاهب تدعى توفير المعرفة والتربية الروحية لأتباعها، وأكثرها دعاوي وهمية، بل أحياناً تكون مصيدة يسقط فيه البلهاء في براثن الولاية الشيطانية. وفي هذا القسم أيضاً ردود صارمة قاسية على الفيلسوف الفرنسي المشهور "هنري برجسون" (1859 -- 1941) فيسخر الشيخ من دعوته لما سماه بـ "الدين الديناميكي" الذي ما هو إلاّ خليط سمج من الأفكار التافهة الخاطئة والدالة على قيمة هذه الفلسفة التي لا تفضي إلاّ إلى العدم. وفي هذا القسم أيضاً بيان لأخطاء ومتاهات ما يسمى بعلم النفس الحديث إذ أنّ الكثير من نظرياته ما هي إلاّ أوهام وأباطيل، خصوصاً أنّ أنصاره لا يعترفون بأسمى عنصر في الإنسان وهو الروح العلوي الإلهي. وفي نفس هذا القسم مقال حول مسائل تتعلق بالتصوف الإسلامي،

وفيه يعقب الشيخ على كتاب باللغة الانجليزية عنوانه (التصوف الإسلامي) لمؤلفه سيردار إقبال علي شاه، ومقال آخر حول رمزية النسيج، وبحوث أخرى حول السلوك الروحي العرفاني القويم وما يعاكسه من مسالك وخيمة. أمّا القسم الثاني من الكتاب الذي يقع في نحو 150 صفحة فيتألف من أزيد من سبعين تعليقاً على كتب وبحوث نشرت بين سنتي 1928 و 1950 وجل مواضيعها حول مسائل تتعلق بالميادين التراثية العرفانية والدينية والميتافيزيقية وما يتشعب منها من علوم وفنون.

الجمعة 25 ذو الحجة 1425

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

تنبيه

فضّلتُ ترجمة كلمة (Roi du monde) بكلمة (مليك العالم) بدلا من (ملك العالم) للأسباب التالية:

أولا: لأن من أهم الرموز الصوفية لحرف الياء دلالته على العبودية والخفاء والاستتار، كما يرمز أحيانا أخرى إلى مقام الرسالة البشرية، وهذه المعاني لها صلة وثيقة بمقام القطب الغوث سلطان العالم ورئيس مملكة الولاية، حسبما فصله الشيخ محي الدين في رسالته (منزل القطب والإمامين) وفي البابين 270 و 336 من الفتوحات.

ثانيا: استعمل الشيخ محي الدين لفظة (مليك) للدلالة على قطب الزمان عند ذكره له مع وزيريه الإمامين، وذلك في القصيدة التي افتتح بها الباب 73 من الفتوحات الذي فصّل فيه طبقات مملكة الولاية وأعداد أصحابها، فقال:

[إماما العالمين هما وزيرا مليك العالم القطب المكين]

ثالثا: عدد كلمة (مليك) بحساب الجمل هو 100 أي عدد الأسماء الحسنى مع الاسم الأعظم الذاتي الجامع؛ وهو أيضا عدد درجات الجنان، وعدد دركات النيران (ينظر هذا في كلام الشيخ محيي الدين حول حرف نون من رسالته حول الحروف: واو ميم نون)؛ والقطب الخليفة الجامع هو المتحقق بكمال تلك الأسماء الحسنى حسبما فصّله الشيخ محي الدين في أجوبته على أسئلة الحكيم الترمذي في الباب 73 من الفتوحات (الأجوبة عن الأسئلة: 4/ 41/ 42/ 44/ 45/ 46) وفي فصّ آدم من كتابه فصوص الحكم، ثم إن العدد 100 هو عدد حرف قاف الذي يرمز لمقام القطب، كما فصّله المؤلف الشيخ عبد الواحد يحي في الباب الخامس عشر من كتاب (رموز العلم المقدس) وهو بحث نشره في شهر مايو 1937 في مجلة (دراسات تراثية).

رابعا: وردت كلمة «مليك» في القرآن مرة واحدة في آخر آية من سورة القمر: «إنّ المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر» بينما تكرر اسم الله "ملك" و"مالك" سبع مرات.

ونبه على أنّ كلام المؤلف في هذا الكتاب، وفي غيره من تآليفه، حول العديد من أسماء أرباب الميثولوجيا عند مختلف الأمم (كالهندوس والسلت والإغريق والرومان والهنود الحمر والمصريين القدامى والكلدان)، واستشهاده بما هو مذكور حولها من قصص وملاحم رمزية، لا يعني بتاتا أنه يأخذ بالاعتبار العقائد الشركية والمفاهيم الزائغة المتعلقة بها عند الذين لا علم لهم بدلالات الرموز، بل هو من أبعد الناس عن ذلك كما وضحه في العديد من بحوثه. وإنما يأخذ بالاعتبار دلالاتها الميتافزيقية الأصلية ورمزيتها المتضمنة للحقائق الوجودية العميقة، في إطار التوحيد الخالص، حيث تظهر تلك الشخصيات الميثولوجية كرموز لمظاهر الأسماء الحسنى وأفعال الله تعالى الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أي أفعاله تعالى التي بها قيام الوجود، إذ هو وحده، عز وجل، الحي القيوم.

وكذلك استشهاده بنصوص من الكتب المقدسة السابقة، كالتوراة والإنجيل والفيدا الهندوسية والآفيستا الفارسية، مع العبارات والمصطلحات الخاصة بأتباعها، لا يعني به بتاتا قبوله للعقائد والبدع المنحرفة التي أحدثوها في دينهم، وإنما يقصد به أصلها الأول المؤسس على التوحيد الكامل الذي بينه رسلهم الأوائل، ووضّحه في أكمل مظهر الدين الإسلامي الخاتم الناسخ لما قبله من الشرائع، والذي هو دين الأنبياء والرسل جميعا من سيدنا آدم إلى سيدنا محمد الفاتح الخاتم ﷺ عليهم جميعا، لقول الحق تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].

وكذلك ذِكر المؤلف لطوائف كالإسماعيلية والدروز في العالم الإسلامي، وإشاراته العديدة لمصطلحات ورموز تنظيمات الماسونية في العالم الغربي بالخصوص، لا يعني أنه يعترف بشرعيتها شرعية تندرج في دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده، وختم به رسالاته، وإنما يذكرها من حيث احتفاظها ببعض الرموز العرفانية والمفاهيم السلوكية لا أكثر، رغم ابتعادها عن منابعها الأصلية وضرورة الالتزام التام لأحكام الشرعية. وقد صرّح بأوضح بيان في العديد من بحوثه وكتبه بلزوم التطبيق الكامل ظاهرا وباطنا بأحكام الشريعة الظاهرة والالتزام العملي بكل الشعائر الدينية، إذ هي التي تتجسد فيها حقيقة كل حقائق العرفان، وهي القاعدة التي لا محيد عنها لكل سلوك روحي صحيح.

وقد صرّح في هذا الكتاب (الباب العاشر) وغيره، بأنّ منذ قرون لم يبق في الغرب بجملته أي تنظيم روحي عرفاني قويم يمكن أن يفتح طريق معرفة الله تعالى والوصول إلى حضرة قربه عز وجلّ؛ ومن المعلوم أنّ المسيحية بمختلف مذاهبها واليهودية وتنظيمات الماسونية وغيرها من النحل المتفشية في الغرب هي المقصودة بهذا القول.

من ناحية أخرى، كل المسائل التي تكلم المؤلف عنها في هذا الكتاب، واكتفى بالنسبة للكثير منها بإشارات عابرة، قد فصلها في مقالات وبحوث له أخرى تفصيلا وافيا ببيان تام شاف، وهي بالخصوص:

- البحوث المجموعة في الكتاب الذي عنوانه "رموز العلم المقدس" (75 مقالة).
- البحوث المجموعة في الكتاب الذي عنوانه "أشكال تراثية ودورات كونية".
- كتاب "باطنية دانتيه".
- كتاب "الإنسان وصيرورته حسب الفيدنتا".
- كتاب "نظرات في التربية الروحية".
- كتاب "رمزية الصليب".
- كتاب "مدخل عام لدراسة المذاهب الهندوسية".

اصطلاح:

الجمل الواقعة في هذا الكتاب بين قوسين مزدوجين هكذا: ((......)) هي من كلام المعرّب، والجمل الواقعة بين قوسين بسيطين هكذا: (.....) هي من كلام المؤلف.

الباب الأول

أفكار في الغرب حول الـ «أقارتتها»
NOTIONS SUR « L'AGARTTHA» EN OCCIDENT

الكتاب الذي عنوانه "مهمّة الهند" المنشور سنة 1910 بعد وفاة مؤلفه (1) سانتإيف دالفايدر (1909-1842: Saint-Yves d'Alveydre)، يحتوي على وصف لمركز مساري ((للتربية الروحية العرفانية الباطنية)) تكتنفه الأسرار ويطلق عليه اسم "أقارتتها"؛ وكثير هم المطالعون لهذا الكتاب الذين ظنّوا بأن هذا الأمر لا يعدو أن يكون سردية خيالية خالصة، أي نوعا من القصص الخيالي الذي لا يعتمد على أيّ شيء واقعي. وبالفعل، فإننا إذا أردنا أن نأخذ حرفيا كل ما في الكتاب، فإنّ فيه، على أي حال بالنسبة للواقف مع الظواهر الخارجية، أمورا لا يمكن قبولها، ويمكن أن تبرر مثل هذا الرأي؛ ولا شك أن دوافع حقيقية جعلت مؤلفه سانتإيف يحجم عن إظهار كتابه هذا الذي ألفه منذ أمد بعيد ولم يتمّه بكيفية كاملة. ومن جانب آخر، إلى ذلك الحين في أوروبا، لم يقع ذكر للـ "أقارتتها" ولرئيسها الـ "براهما تما" (Brahmâtmâ) إلا من طرف كاتب، بعيد عن الجدية ولا يمكن الاستشهاد به، هو "لويس جاكوليو" (Louis Jacoliot) (2)؛ ومن جانبنا نعتقد أنّه قد سمع كلاما حول هذه الأمور خلال إقامته بالهند، ولكنّه كشأنه في المسائل الأخرى، رتّبها حسب هواه بكيفية مفضوحة. إلا أن في سنة 1924 وقع حادث جديد لم يكن في الحسبان: إنه كتاب "حيوانات وبشر وأرباب" الذي روى فيه كاتبه السيد "فرديناند أوسندوسكي" ((- 1945 1878: Ferdinand Ossendowski)) مغامرات سفره المتقلب داخل آسيا الوسطى بين سنتيْ 1920و 1921؛ ففي قسمه الثاني بالخصوص يحتوي على حكايات مطابقة تقريبا لما رواه سانت-إيف؛ والضجة التي حصلت حول هذا الكتاب، تتيح في ظنّنا، فرصة سانحة ليتمّ كسر الصمت حول مسألة "الأقارتتها" هذه.

وبطبيعة الحال، فإن بعض العقول الشكّاكة أو ذوات النيات السيئة ما فتئت تتهم السيد أوسندوسكي بالانتحال البسيط المفضوح من كتاب سانت-إيف، مستشهدين بكل الفقرات المتماثلة في الكتابين؛ وبالفعل يوجد من هذه الفقرات عدد معتبر، وحتى في

تفاصيلها يبرز تماثل يدعو إلى الاستغراب. وقبل ذلك، يوجد عند سانت-إيف نفسه ما هو أشدّ غرابة، ونعني به التأكيد على وجود عالم ديماسي تمتدّ فروعه في كل مكان، تحت القارات بل وحتى تحت المحيطات، وبواسطته تحصل اتصالات خفية بين جميع أنحاء الأرض؛ ومع هذا، فالسيد أوسندوسكي لا ينسب هذا النبأ لنفسه، بل يصرّح أنه لا يدري مدى صحته، لكنه يعزوه إلى شخصيات مختلفة لقيها خلال سفره (أ).

وفي نقاط أكثر خصوصية توجد أيضا فقرات أخرى متماثلة، كالفقرة التي يظهر فيها «مليك العالم» أمام ضريح سابقه، وفيها تطرق لمسألة أصل البوهيميين (ب) الذين سكنوا في "الأقارتنها" خلال عهد قديم (3)، كما سكنها آخرون غيرهم. وسانت – إيف يقول بأن خلال الاحتفال الديماسي بـ «الأسرار الكونية» ثمة أوقات، يتوقف خلالها جبرا المسافرون المتواجدون في الفيافي، بل حتى الحيوانات نفسها تلتزم الصمت (4) والسيد أوسندوسكي يؤكد بأنه شهد هو نفسه أحد هذه الأوقات التي يقع فيها خشوع عام (ج). وفي توافق غريب، توجد بالأخص قصة جزيرة مفقودة اليوم،كان يسكنها أناس وحيوانات عجيبة: وهنا يذكر سانت-إيف ملخص رحلة إيامبول (Iambule)كما رواها ديودور دي- سيسيل (Diodore de Sicile) (د)، بينما السيد أوسندوسكي يتكلم عن سفر قام به أحد قدامى البوذيين من النيبال، لكن رغم هذا الفارق، فالذي يصفانه لا يختلف إلا قليلا؛ فإذا كان حقا لهذه القصة روايتان واردتان من مصدرين بينهما مثل هذا التباعد، فقد يكون من المهم العثور عليهما ومقارنتهما بعناية.

لقد حرصنا على التنبيه على كل هذه المقاربات، لكننا كذلك حريصون على القول بأنها لا تقنعنا بتاتا بوجود انتحال ((أي من طرف أوسندوسكي))، ولا نرغب هنا بالدخول في نقاش لا يهمنا في صميمه إلا قليلا؛ وبصرف النظر عن الشواهد التي نبّه عليها السيد أوسندوسكي نفسه، فإننا نعلم من مصادر شتى بأن أمثال هذه القصص أمر شائع في منغوليا وفي كل أصقاع آسيا الوسطى؛ ونضيف للتو بأنه يوجد ما يماثلها تقريبا في تراثيات جميع الشعوب (ه). ومن جانب آخر إذا كان السيد أوسندوسكي قد انتحل جزئيا كتاب "مهمة الهند" فلا ندري لماذا أهمل بعض الفقرات المثيرة للدهشة، ولا ندري لماذا غيّر شكل بعض الكلمات ككتابته لفظة "أقارتي" (Agharti) بدلا من "أقارتنها"؛ وهذا بالعكس يفسره

بوضوح كونه أخذ معلوماته من مصدر مغولي، بينما أخذها سانت-إيف من مصدر هندوسي (لأننا على علم بأنه كان على صلة مع اثنين من الهندوس على الأقل) (5). وزيادة على هذا، فلا ندري لماذا استعمل لقب «مليك العالم»، الذي لا وجود له في أيّ نصّ من كلام سانت-إيف، لتعيين من هو على رأس المراتب الروحية العرفانية. وحتى إن لزم الاعتراف ببعض الاقتباسات، فلا أقل من أنه يذكر أحيانا أمورا لا مكافئ لها في كتاب "مهمة الهند" وهي يقينا من تلك التي لا يمكن له أن يختلقها، لا سيّما وأنّ شغله الأهمّ هو السياسة لا الأفكار والمذاهب، مع جهله بكل ماله صلة بعلم الباطن، ممّا جعله بوضوح عاجز عن إدراك مرماها الحقيقي. وكمثال على هذا، قصّة "حجر أسود" أرسله قديما «مليك العالم» إلى "الدلاي لاما" (Dalaï-lama) (و)، ثم نُقل إلى أورقا في منغوليا، وقد فقد حينذاك قبل حوالي مائة عام(6). والحال أن «الحجارة السوداء» في تراثيات شتىّ الشعوب تلعب دورا هاما، منذ تلك التي كانت رمزا لـ"سيبال" (Cybéle) (ز) إلى «الحجر الأسود» المكنون في الكعبة بمكة (7). ولدينا مثال آخر: "البوغدوخان" (Bogdo- Khan) أو «بوذا الحي» الساكن في أورقا، يحتفظ من بين الأشياء النفيسة الأخرى، بخاتم جنكيز خان (ح) المنقوش عليه شكل الصليب المعقوف "سواستيكا" (swastika) (ط)، وبصفيحة من النحاس تحمل خاتم «مليك العالم»؛ ويبدو أن السيد أوسندوسكي لم يستطع أن يرى إلا الأول من هذين الاثنين، لكن كان من الصعب عليه تصور وجود الثاني: أو لم يخطر بباله تلقائيا أن يتكلم هنا عن صحيفة من الذهب؟ هذه الملاحظات القليلة كافية للتمهيد لما سنعرضه، لأننا نريد البقاء بعيدين تماما عن كل جدال وعن أي مسألة تتعلق بالأشخاص؛ وما استشهادنا بأوسندوسكي، وحتى بسانت-إيف، إلا لأن كلامهما يمكن أن يتخذ نقطة انطلاق لاعتبارات لا علاقة لها بما يمكن أن يُظنّ بالواحد وبالآخر، خاصة وأن بُعدَهَا يتجاوز فرديتنا نحن، إذ لا اعتبار لها أكثر من غيرها في هذا الميدان. وفيما يخصّ كتابيهما، لا نقصد بتاتا الاشتغال بـ «نقد للنصوص» عدم جدواه يزيد أو ينقص، وإنما نبتغي الإتيان بتوضيحات، لم يذكرها أحد في أي مكان كان، حسب علمنا على أيّ حال، وبالإمكان أن تساعد بمقدار ما، على حلّ ما يسميه السيد أوسندوسكي بـ«سرّ الأسرار» (8).

تعقيبات المؤلف على الباب الأول

1 الطبعة الثانية 1949.

2 أبناء الرب، ص. 336، 363- 267، 272؛ مذهب الروحنة في العالم، ص 27-28.

3 في هذا الصدد ينبغي أن نقول بأنّ وجود شعوب «قُدّر عليها التنقل الدائم»، ومن أبرز أمثلتها البوهيميون، هو أمر تكتنفه الأسرار حقا ويستدعي فحصه بعناية.

4 الدكتور أرتور رغيني (Arturo Reghin) نبهنا إلى أن هذا يمكن أن يكون له نوع من العلاقة مع الخشية الإلهية (تيمور بنيكوس timor panicus) ند القدامى وهذه المقاربة تبدو هنا في غاية الاحتمال.

5 خصوم السيد أوسندوسكي أرادوا تفسير نفس الواقعة، زاعمين بأنه حصّل على ترجمة روسية لكتاب "مهمة الهند" ووجود هذه الترجمة غير ثابت أصلا، حيث إن ورثة سانت-إيف أنفسهم يجهلونها تماما. ووقع اللوم أيضا على السيد أوسندوسكي لكتابته (أم Om) بحرفين، بينما كتبها سانت-إيف (آوم Aum) بثلاثة حروف؛ والحال أنه إذا كانت (آوم) تمثل فعلا الكلمة المقدسة متحللة إلى العناصر المؤلفة لها، فإن (أمْ)، رغم هذا، هي الكتابة الصحيحة المناسبة للتلفظ الحقيقي كما هو موجود سواء في الهند أو في التبت ومنغوليا؛ وهذه المسألة الثانوية كافية للسماح بتقييم كفاءة بعض النقاد.

6 السيد أوسندوسكي الذي لا يعلم أنّ هذا الحجر نيزكي، اول تفسير بعض الظواهر، كظهور حروف على سطحه،مفترضا على أنه لوح أردواز.

7 قد توجد مقارنة لافتة للنظر يمكن إقامتها مع "لابسيت أكسيليس" (Lapsit exillis) (ي)، وهو حجر سقط من السماء، وتظهر عليه كذلك رقوم في بعض المناسبات، وهو في رواية ولفرام ديشينباخ (Wolfram d'Eschambach) يتطابق مع الكأس المقدسة (ڤرال Graal). والذي يجعل المسألة أكثر طرافة حسب هذه الرواية، أنه تمّ في النهاية نقل الكأس المقدسة إلى «مملكة الأسقف يحي» التي أراد البعض بالضبط أن

يطبقها على منغوليا، رغم أنّ أيّ تعيين لموضع جغرافي هنا لا يمكن قبوله بالمعنى الحرفي (ينظر كتاب المؤلف "باطنية دانتيه" L'ésotérisme de Dante، طبعة 1957، ص 35- 36، وينظر أيضا ما سيذكر لاحقا).

8 لقد تعجبنا كثيرا عندما علمنا أخيرا بأن البعض يزعم بأن هذا الكتاب يعتبر «شهادة» لصالح شخصية لم نكن ندري أصلا حتى بوجودها حينما كتبناه؛ ونعلن بكل صراحة تكذيبنا لكل زعم من هذا النوع من أي طرف كان، لأن المقصود عندنا يقتصر حصرا على عرض لمعطيات تندرج ضمن الرمزية التراثية الروحية العرفانية، ولا علاقة لها بتاتا مع أيّ شخص من «الشخصيات».

1- هذا العالم الديماسي ليس هو في الحقيقة عالما ماديا حسيّا، وإنما هو عالم روحاني؛ لكنه عند أهله مشهود وواقعي كالمحسوس عند أهل الحس، وله أحيانا مظاهر حسية لا يدركها إلا أهلها. ووجود هذا العالم الروحاني في التراث الإسلامي مذكور في العديد من نصوص التصوف، خصوصا النصوص التي تذكر بعض كرامات الأولياء وطيهم للمكان وللزمان. ولا يدرك ذلك العالم إلا بعض أهل الكشف وأهل التصريف الكوني ورجال الغيب. وقد ذكر الشيخ الأكبر محي الدين محمد بن العربي في أواخر الباب 366 من كتابه الفتوحات المكية واقعتين حصلتا له هو شخصيا حصل له فيهما اتصال سمعي وبصري مع أشخاص في أماكن من الأرض (تونس وخراسان) بعيدة جدا عن موقعه (إشبيلية بالأندلس).

2- البوهيميون: شعب من الرحل، ينسبون إلى منطقة بوهيم في القسم الغربي من تشيكوسلوفاكيا.

3- في التراث الإسلامي يوجد مثل هذا المعنى المتعلق بالأوقات التي لها قدسية متميزة، كليلة القدر، وليلة النصف من شعبان، وليلتي عيد الفطر وعيد الأضحى، وكيوم عرفة، ويوم عاشوراء، وساعة الإجابة من يوم الجمعة.

4- ديودور دي سيسيبل: مؤرخ يوناني عاش في القرن الأول قبل المسيح، له كتاب مشهور في التاريخ يبتدئ من العهود الأولى للبشرية وينتهي عند سنة 60 ق.م.

5- حول وجود مملكة باطنية روحية للولاية الرحمانية، وأعداد طبقاتها ورجالها ينظر الباب 73 من الفتوحات للشيخ محي الدين. وينظر باب (ديوان الصالحين) ن كتاب (الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ) لأحمد بن المبارك الفاسي. وقد وردت أحاديث نبوية شريفة في هذا الموضوع ذكرها جلال الدين عبد الرحمن السيوطي في رسالة (الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال) من كتابه (الحاوي للفتاوي)، ما ذكرها أحمد بن حجر الهيثمي المكي في (الفتاوي الحديثية). وفي نفس

هذا الموضوع ينظر للمؤلف الشيخ عبد الواحد يحي الباب 25 من كتابه (التربية والتحقق الروحي (Initiation et réalisation spirituelle) والباب 44 من كتابه (نظرات في التربية الروحية (Aperçus sur l'initiation).

6- دالاي لاماي: هو الرئيس الأعلى للديانة البوذية في التبت ومنغوليا.

7- سيبال: هي مظهر الربوبية المتوجه للإخصاب والإنجاب عند الإغريق والرومان خصوصا في القرن الثالث قبل الميلاد.

8- جنكيزخان: هو مؤسس الإمبراطورية المغولية الأولى (1160-1227 م.)، اعترف به سلطانا أعلى للمغول سنة 1206 م. واحتل شمال الصين سنة 1215م. ثم تغلغل في روسيا وأفغانستان.

9- حول الرمزية القطبية للصليب المعقوف ينظر للمؤلف كتابه (رمزية الصليب) والباب 17 من كتابه (رموز العلم المقدس) وهو بحث نشره في مجلة (دراسات تراثية) سنة 1950.

10- حول "لابسيت اكسيليس" ينظر في كتاب (رموز العلم المقدس) الباب 44 والباب 25. وحول الكأس المقدسة (قرال) ينظر في نفس الكتاب الباب الثالث والباب الرابع.

الباب الثاني

المَلكية والإمامة الروحية
ROYAUTÉ ET PONTIFICAT

إنّ لقب «مليك العالم» إذا أُخذ بمعناه الأعلى والأتم، وفي نفس الوقت بمعناه الأدق، ينطبق بالضبط على "مانو" (Manu بالسنسكريتية)، أي المشرع الأصلي القديم الكلي، وهو الذي يتكرر وجود اسمه، بأشكال مختلفة، عند عدد كبير من الشعوب القديمة؛ ونكتفي في هذا الصدد بذكر "مينا" (Mina) أو "ماناس" (Ménés) عند المصريين، و"مانيو" (Menw) عند السلتيين ((في أوربا الوسطى والغربية قبل العهد المسيحي وبعده))، و"مينوس" (Minos) عند الإغريق (1). وهذا الاسم لا يعني بتاتا شخصية تاريخية، أو أسطورية طابعها الأسطوري يزيد أو ينقص، وإنما يدلّ في الحقيقة على مبدأ، هو العقل الكلي الكوني العاكس للنور الروحي الصافي الخالص، وهو الذي يصوغ الشريعة الملائمة لأوضاع عالمنا أو لأوضاع دورتنا الوجودية، وهو في نفس الآن المَثل الأعلى للإنسان، خاصة من حيث اعتباره كائنا عاقلا ذا فكر ("مانافا" mânava بالسنسكرستية) (أ).

ومن جانب آخر، الذي ينبغي في الصميم التنبيه عليه هنا، هو أنّ هذا المبدأ يمكن أن يتجلى في مركز روحي مؤسس في العالم الأرضي من خلال تنظيم مكلف بالحفظ الكامل لأمانة التراث الروحي المقدس ذي الأصل «غير البشري» ((أي من الوحي الإلهي "أبوروشايا" apaurushêya))، والذي بواسطته يتواصل استمرار تلقي الحكمة الأصلية لمن هم أهل لوراثتها عبر العصور. ورئيس مثل هذا التنظيم بصفته ممثلا ل "مانو" نفسه، يمكن له شرعا أن يحمل لقبه ونعوته، بل بمقتضى درجة العرفان التي من المفروض أن يكون قد أدركها ليتمكن من القيام بوظيفته، هو يتطابق حقا مع المبدأ، فهو مظهره الإنساني المترجم عنه، وفرديته الشخصية غائبة أمام هذا المبدأ. وهذه هي بالفعل مكانة " الأقارتتها" إذا كان هذا المركز قد تلقى كما ذكره سانت – إيف، ميراث «السلالة الشمسية» العتيقة (سوريا – فانشا " Sûrya

vansha -) التي كانت تسكن قديما في آيوذيا" (Ayodhyâ) (2)، والتي كانت ترفع نسبها الأصلي إلى "فايفاسواتا" (Vaivaswata) أي "مانو" المشرع الفاتح للدورة الزمنية الراهنة.

وكما ذكرناه سابقا، فإنّ سانت-إيف رغم ذلك، لا يعتبر الرئيس الأعلى للأقارتها كـ«مليك للعالم»؛ وإنما يقدّمه كـ«حبر أعظم» ((أو الإمام الأكبر))، وزيادة على هذا، يجعله على رأس «كنيسة براهمانية»، وهي تسمية ناجمة عن تصور مفرط نوعا ما في سمته الغربية (3). وبغضّ النظر عن هذا التحفظ الأخير، فإنّ ما يقوله يتمم في هذا الصدد ما ذكره من جانبه السيد أوسندوسكي؛ ويبدو أنّ كليهما لم ير سوى المظهر الذي يستجيب بكيفية أكثر مباشرة لميوله وانشغالاته الغالبة عليه، لأن المقصود في الحقيقة هو سلطة مزدوجة، أي هي في نفس الوقت إمامة روحية وحكم ملكي. وطابع «الإمامة الروحية» بالمعنى الأصحّ لهذه الكلمة، يعود حقا، وبالكيفية المثلى، إلى رئيس دوائر مراتب الولاية الربانية ((أي قطب الزمان))، وهذا المعنى يستدعي شرحا، وهو أن كلمة "بونتيفاكس" (Pontifex أي الحبر الأعظم ((أو الإمام الأكبر)) تعني حرفيا "«بَناء الجسور»)) (لأن كلمة "بونت" Pont تعني جسر)، وهذا اللقب الروماني هو، إذا صحّ القول، من حيث أصله لقب «ماسوني» (الماسون هو البَناء)؛ بيد أنه، رمزيا، هو القائم بوظيفة الوساطة التي تصل هذا العالم بالعوالم العلوية (4) (ب). وبمقتضى هذه الصفة، فإنّ قوس قزح، أو «الجسر السماوي» يعتبر رمزا طبيعيا «للإمامة العظمى»؛ وجميع التراثيات تعطيه دلالات متناسقة غاية التناسق: فهو عند العبريين ضمان رعاية الرب لشعبه المتعاهد معه؛ وفي الصين هو رمز لاتحاد السماء والأرض؛ وفي اليونان، يمثل "إيريس" (Iris) أي «رسولة الملأ الأعلى» (ج)؛ وفي كل مكان تقريبا، سواء عند السكندينافيين أو عند الفرس والعرب، وفي إفريقيا الوسطى وحتى عند بعض شعوب أمريكا الشمالية، هو الجسر الذي يصل عالم الشهادة المحسوس بعالم الغيب فوق المحسوس.

من ناحية أخرى، كان يمثّل اتحاد السلطتين الروحية والملكية عند اللاتين، بأحد مظاهر رمزية "جانوس" (Janus) (د)، وهي رمزية في غاية التعقيد ولها دلالات متعددة؛ وفي نفس السياق تمثّل مفاتيح الذهب والفضة التربيتين الروحانيتين ((أو نوعي العرفان))

المناسبتين لكل منهما (5). وباستعمال الاصطلاح الهندوسي، المقصود هنا هو: طريق "البراهمان" ((Brâhmanes أي الطبقة الأولى العليا المخصوصة بالإمامة الروحية وما يتعلق بها)) وطريق "الكشاطرية" ((Kshatriyas أي الطبقة الثانية المخصوصة بشؤون الحكم والحرب وما يتعلق بهما))؛ لكن، في قمّة المراتب، يوجد المبدأ المشترك بينهما، ومنه يستمدان على التتالي صلاحيات وظائفهما المخصوصة بكل منهما، وبالتالي فإنّ هذا المبدأ هو من وراء ما يميز بينهما، حيث يوجد هنا منبع كل سلطة شرعية فاعلة في أيّ ميدان كان؛ وعرفاء "الأقارنتها" هم المسمون بـ"أتيفارنا" (Ativarna) أي أنّ مرتبتهم «من وراء الطبقات» ((أي خارجة عن كل المراتب المخصوصة بطوائف معينة)) (6).

وخلال العصر الوسيط كانت توجد عبارة تتضمن المظهرين المتكاملين للسلطة مجتمعين معاً،وذلك بكيفية جديرة بالانتباه: فكثيرا ما كان يحصل الكلام، في ذلك العهد، عن صقع تكتنفه الأسرار يسمّى بـ«مملكة الأسقف يحي» (7) (ه). لقد كان ذلك في الزمن الذي شكّل فيه النسطوريون (أو من اتفق بحق أو بغير حق على تسميتهم بهذا الاسم) والصابئة (8) ما يمكن نعته بـ «الغطاء الخارجي» لذلك المركز المذكور. وبالضبط، لقد كان الصابئة يعطون لأنفسهم اسم "منداياح دو يحي"، أي «مريدوا يحي» (أو أتباع يحي). وفي هذا الصدد، يمكن أن نبدي للتوّ ملاحظة أخرى: فمن اللافت للنظر على أيّ حال، أنّ كثيرا من الطوائف الشرقية ذات الطابع المغلق جدا، بدءا من الإسماعيلية أو أتباع «شيخ الجبل» وحتى دروز لبنان، اتخذت على السواء لقب «حراس الأرض المقدسة». وما سنذكره لاحقا سيساعد بلا شك على فهم أحسن لما تدل عليه هذه العبارة؛ ويبدو أنّ سانت-إيف قد وجد كلمة مناسبة جدا، بل ربّما هي في صوابها أكثر مما كان يظنه هو نفسه، وذلك عند كلامه على «فرسان رهبان الأقارنتها» ((حرفيا «هيكلوا الأقارنتها» أي فرسان الهيكل الذين قاموا بأدوار كبرى خلال الحروب الصليبية)). وحتى لا تُستغرب عبارة «غطاء خارجي» التي استعملناها هنا، نضيف بأنه ينبغي التنبّه إلى كون التربية الروحية الخاصّة بفتيان الفروسية هي في صميمها تربية مخصوصة "بالكشاطرية"؛ وهذا، من بين أسباب أخرى، مما يفسّر الدور المهيمن الذي تلعبه فيها رمزية الحب(9).

ومهما كان أمر هذه الاعتبارات الأخيرة، فإن فكـرة وجـود شخـصية لها في نفـس الوقت الإمامة الروحية والملك، ليست فكرة شائعة جدا في الغرب، رغم وجودهـا في أصـل المسيحية نفسه، متمثلة بكيفية بـارزة في «الملـوك الأحبـار» (و)؛ وحتـى في العـصر الوسـيط، كانت السلطة العليا (حسب المظاهر الخارجية على الأقل) مقسمة بين البابوية ((أي الـسلطة الروحية)) والإمبراطورية ((أي الحكـم الـزمني)) (10). ومثـل هـذا الفـصل يمكـن أن يعـدّ علامة على نظام غير مكتمل في أعلاه، إن أمكن مثل هذا التعبير، حيث لا نـرى فيـه ظهـور المبدأ المشترك الذي تنبثق منه السلطتان وتستند إليه شرعيا؛ ومن ثمَّ فالسلطة العليـا الحقيقيـة كانت حينذاك في جهة أخرى. وأما في الشرق، فإن الاحتفاظ بمثل هذا الفصل، كان بـالعكس أمرا نـادرا، ولا يـصادف إلا في بعـض التـنظيرات البوذيـة؛ ونريـد بهـذا أن نـشير إلى عـدم الانسجام المـصرّح بـه بـين وظيفـة "بـوذا" (Buddha) ووظيفـة "شـاكرافارتي" (Chakravartî) أو «السلطان الأعظم» (11)، وهذا عنـدما يقـال أنّ "شـاكيا-مـوني" (Shâkya-Muni) (ر) كـان عليه، في وقت ما، أن يختار واحدة من بين إحدى الوظيفتين. وتَحْـسُن هنـا إضـافة أنّ لفظـة "شاكرافارتي" التي ليست هي من خـصوصيات البوذيـة، تنطبـق تمامـا تَبعًـا لمعطيـات الـتراث الهندوسي، على وظيفة "مانو" أو وظيفة الممثلين له: إنه حرفيا «هـو الـذي يـدير العجلـة» أي، بتموقعه في مركز كل الأشياء، هو الذي يسيّر حركتها بدون أن يساهم بنفـسه في الحركـة، أو حسب عبارة أرسطو، هو «المحرك الثابت» (12) (ح).

وإننا ندعو بالخصوص إلى التنبّه إلى ما يلي: وهو أن المركز المقصود هنا هـو النقطـة التي تتفق كل التراثيات على تسميتها رمزيا ب «القطب»، إذ يـتمّ حولـه دوران العـالم الـذي يمثل عموما بالعجلة، سواء عند السلتيين أو الكلدانيين أو الهنـدوس(13). ونظيرهـا الدلالـة الحقيقية للصليب المعقوف ("سواستيكا" Swastika)، هـذا الرمـز الـذي نجـده منتـشرا في كـل مكان، من أقصى الشرق إلى أقصى الغـرب (14)، وهـو في صـميمه «علامـة القطـب»؛ ولا ريب أن بهذا المعنى ينكشف هنـا لأول مـرّة في أوروبـا الحديثـة التعريـف الحقيقـي لـه (أي للصليب المعقوف). وبالفعل فالعلماء المعاصرون قد حاولوا بدون جدوى البحث عن تفسير لهذا الرمز من خلال نظريات مغرقة بعيدا في الوهم؛ وأغلبهم بحكم تسلط نـوع مـن الفكـرة

الراسخة في عقولهم، أرادوا أن يروا هنا، كشأنهم في أيّ موضع آخر، رمزا «شمسيا» فقط (15)، بينما لم يصبح هو كذلك أحيانا إلا عَرَضًا وبكيفية غير مباشرة. وآخرون اقتربوا من الحقيقة أكثر عندما رأوا الصليب المعقوف رمزا للحركة؛ لكن هذا التأويل، دون أن يكون خاطئا، هو بعيد عن الكفاية، لأن المقصود ليس حركة ما، وإنما هي حركة دورانية تتم حول مركز أو محور ثابت؛ ونكرر مرة أخرى أن هنا توجد النقطة الثابتة التي هي العنصر الجوهري الذي يرجع إليه مباشرة الرمز المذكور (16). ومن خلال ما كنا بصدد ذكره، يمكن سبقا فهم أنّ «مليك العالم» ينبغي أن تكون له وظيفة هي في جوهرها منسّقة ومقوّمة ومنظّمة (ويلاحظ أنه ليس من المصادفة أنّ هذه الكلمة régulatrice الفرنسية لها نفس جذر rex أو regere أي ملك أو مدير) وهي وظيفة يمكن تلخيصها في مثل كلمة «توازن» أو «انسجام» وتعبر عن معناها بدقة الكلمة السنسكريتية "دهارما" (Dharma) (17): ونقصد بهذا انعكاس ثبوت المبدأ الأعلى في العالم الظاهر. ومن خلال نفس الاعتبارات، يمكن فهم لماذا كانت الأوصاف الأساسية لـ«مليك العالم» هي القيام بـ«العدل»و«السلام»، وما هي إلا الأشكال التي يكتسيها بالأخصّ ذلك التوازن، وذلك الانسجام في «عالم الإنسان» (مانافا- لوكا mânava-loka بالسنسكريتية) (18) وتكمن هنا بالضبط، مرة أخرى، نقطة ذات أهمية عظمى؛ وزيادة على بعدها العام، فإننا ننبّه عليها أولئك المنحرفين إلى نوع من المخاوف الوهمية التي لها صدى في السطور الأخيرة من كتاب السيد أوسندوسكي نفسه .

تعقيبات المؤلف على الباب الثاني

1- عند الإغريق، "مينوس" كان هو المشرّع للأحياء، وفي نفس الوقت قاضي الأموات؛ وفي الملة الهندوسية، تعود هاتان الوظيفتان على التتابع إلى "مانو" وإلى "ياما"، لكنهما يُمثّلان كشقيقين توأمين، وهذا يدل على أنّ المقصود بهما تثنية مبدأ واحد، معتبَرا في مظهرين مختلفين.

2- هذا المقر «للسلالة الشمسية»، إذا اعتبرناه رمزيا، يمكن مقاربته ب «الحصن الشمسي» كما هو في تنظيم وردة الصليب (ROSE - CROIX) وكذلك أيضا بلا شك ب«حاضرة الشمس» لكامبانيلا (Campanella).

3- في الواقع، لم تستعمل أبدا في الهند هذه التسمية «كنيسة براهمانية»، إلا عند الطائفة البدعية الحديثة جدا "براهماساماج"، التي نشأت في بداية القرن التاسع عشر بفعل مؤثرات أوروبية وبالأخصّ بروتستانتية، وسرعان ما انقسمت إلى العديد من الفروع المتنافسة، وقد انقرضت تماما تقريبا في أيامنا هذه؛ ومن اللافت للنظر ملاحظة أن أحد مؤسسي هذه النحلة كان جدّ الشاعر "رابيندراناث طاغور" (Rabindranath Tagore).

4- القديس "برنارد" (Saint Bernard) يقول إن «الحبر الأعظم، كما يدل عليه اشتقاق اسمه، هو كالجسر بين الرب والعبد»:

.(III,9،Tractatus de Moribus et Officio episcoporum)

- توجد في الهند لفظة خاصة بطائفة الجاينيين ((Jainas وهي طائفة لها ديانةهندوسية معروفة في الهند)) وهي تكافئ بالضبط اللفظة اللاتينية "بونتيفاكس": إنها كلمة "تيرثامكارا" (Tîrthamkara)، التي تعني حرفيا «واضع مرصد أو مسلك»؛ والمراد بالمسلك، طريق الانعتاق ("موكشا" Moksha). وعدد هؤلاء "التيرثامكارا" هو أربعة وعشرون، كعدد الشيوخ في رؤيا القديس يوحنا، الذين يشكلون هم أيضا مجمع الأحبار الأئمة.

5- ثمة وجهة نظر أخرى، وهي أنّ هذه المفاتيح هي على التوالي مفاتيح «الأسرار الكبرى» ومفاتيح «الأسرار الصغرى». وفي بعض الصور والرسوم الممثلة ل"جانوس"، يُرمز للسلطتين أيضا بمفتاح وبصولجان ملكي.

6- لنلاحظ في هذا الصدد بأنّ التنظيم الاجتماعي في العصر الوسيط الغربي، يبدو أنه كان مبدئيا مطابقا للتنظيم الطبقي: ففئة رجال الدين تتناسب مع طبقة "البراهمان" والنبلاء مع "الكشاطرية"، والشعب مع "الفايشيا"، والعبيد والخدم مع "الشودرا" (Shûdras).

7- حوالي عهد "سانت لويس" (Saint Louis)، كثر بالخصوص الحديث عن «الأسقف يحي» في أسفار "كاربان" (Carpins) و"روبروكيس" (Rubruquis). والذي يعقّد الأمور هو أنه حسب البعض، قد وجد أربعة أشخاص يحملون هذا اللقب، ومواقعهم: في التبت (أو فوق منطقة البامير الجبلية)، وفي منغوليا، وفي الهند، وفي أثيوبيا (ولهذه اللفظة الأخيرة معنى غير واضح تماما)؛ لكن من الراجح أن ليس المقصود هنا سوى ممثلين مختلفين لنفس السلطة. وقد قيل أيضا أن جنكيزخان أراد الهجوم على مملكة الأسقف يحي، غير أن هذا الأخير دفعه بتسليط الصاعقة ضد جيوشه. وأخيرًا، فمنذ عهد الفتوحات الإسلامية، انقطع ظهور الأسقف يحي، وأصبح مُمثلا ظاهريا في شخص "الدلاي لاما".

8- في آسيا الوسطى، خاصة في ناحية تركستان، عُثر على صلبان نسطورية أشكالها مماثلة بالضبط لصلبان تنظيم الفروسية، وزيادة على هذا، فإنّ بعضها يحمل في مركزه رسم الصليب المعقوف. من جانب آخر، ينبغي ملاحظة أنه كان للنسطوريين نشاط هام، لكنه غامض إلى حدٍّ ما، مع بدايات الإسلام، كما أن علاقتهم بالديانة اللاموية تبدو مؤكدة. وكان للصائبة، من جانبهم، تأثير كبير على العالم العربي في عهد خلفاء بغداد؛ ويُزعم أنّ آخر أتباع الأفلاطونية المحدثة لجأوا إليهم، بعد إقامة لهم في فارس.

9- كنا أشرنا إلى هذه الخصوصية في دراستنا حول "باطنية دانتيه".

10- في روما القديمة، بالعكس، كان الأمبراطور (Imperator) هو في نفس الوقت الحبر الأعظم" (Pontifex Maximus). والنظرية الإسلامية للخلافة، هي أيضا تجمع بين السلطتين، بمقدار معيّن على أي حال، وكذلك مفهوم "وانـغ" (Wang) في الشرق الأقصى ((أي في ملة الصين الأصلية)) (ينظر الباب السابع عشر من كتاب المؤلف الذي عنوانه: الثلاثية الكبرى).

11- في موضع آخر سجلنا التماثل الموجود بين مفهوم الـ"شاكرافارتي" وفكرة الأمبراطورية (أو السلطة الزمنية الحاكمة) عند "دانتيه"، ومن المناسب هنا الإحالة إلى تأليفه "دي مونارشيا" (De Monarchia).

12- في معنى مماثل تماما تستعمل الملة الصينية عبارة «الوسط الثابت». – وتبعا للرمزية الماسونية، تجدر ملاحظة أنّ رؤساء المعلمين يجتمعون في «غرفة الوسط».((وفي الآية143 من سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

13- لقد احتفظ بالرمز السلتي للعجلة في العهد الوسيط؛ ويمكن أن نجد له أمثلة عديدة في الكنائس الرومانية، والوردة الغوطية أو النجمية نفسها تبدو بالتأكيد أنها قد اشتقت منها، لوجود علاقة صريحة بين العجلة والأزهار الشعارية الرمزية، مثل الوردة في الغرب، وزهرة اللوتس في الشرق (النيلوفر الأبيض).

14- نفس هذا الرمز لم يكن غريبا على الهرمسية المسيحية: ولقد شهدنا في الدير القديم لطائفة "الكارمس" في "لودن" (Carmes de Loudun) رموزا عجيبة جدا، من الراجح أن تاريخها يعود إلى النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ويحتل فيها الصليب المعقوف مع هذا الرمز ⋈◇⋈ الذي سنتكلم عنه لاحقا، موقعا هاما. وبهذه المناسبة يُستحسن تسجيل أن طائفة الكارمس التي قدمت من الشرق، تربط تأسيس تنظيمها بإلياس (Elie) وفيثاغورس (Pythagore) (كما أن الماسونية، من جانبها، ترتبط في نفس الوقت بسليمان ((أي النبي ابن النبي داود عليهما السلام))، وبفيثاغورس نفسه، وهذا

يشكل تماثلا جديرا بالملاحظة؛ ومن ناحية أخرى، فإن البعض يزعم أنه كانت لهذه الطائفة في العصر الوسيط تربية مسارية قريبة جدا من التربية المسارية لفرسان الهيكل، ولطائفة "مرسي" (Mercy)؛ ومن المعلوم أن هذا التنظيم الأخير أعطى اسمه لإحدى درجات الماسونية الإيكوسية، التي تكلمنا عنها بإسهاب إلى حد ما في كتاب "باطنية دانتيه".

15- نفس الملاحظة تنطبق أيضا بالأخص على العجلة، التي كنا كذلك بصدد بيان دلالتها الحقيقية.

16- للتذكير فقط، نشير للرأي الأكثر إغراقا في الوهم، وهو الذي يجعل من الصليب المعقوف رسما تخطيطيا لأداة بدائية تستعمل لقدح النار؛ وإذا كان لهذا الرمز أحيانا بالفعل علاقة بالنار، من حيث إنها بالأخص شعار لـ "أنيي" (Agni)، فإنما ذلك لأسباب أخرى بعيدة كل البعد عن هذا الرأي.

17- الجذر "ذري" (dhri) يعبّر أساسيا عن فكرة الثبات؛ والصيغة "ذرو" (dhru)، التي لها نفس المعنى، هي جذر الكلمة "ذروفا" (Dhruva)، وهو اسم القطب بالسنسكريتية، والبعض يقاربه مع الاسم اليوناني "دروس" (Drus) أي شجرة البلوط؛ وفي اللاتينية، نفس كلمة "روبور" (Robur) تعني في نفس الوقت البلوط والقوة أو المتانة والحزم. وعند الدرويد (الذين ينبغي أن يقرأ اسمهم هكذا: درو- فيد Dru-vid أي الجمع بين القوة والحكمة) وكذلك في مدينة دودون، كانت شجرة البلوط تمثل "شجرة الكون"، أي رمز المحور الثابت الواصل بين القطبين.

18- ينبغي هنا التذكير بالنصوص التوراتية التي فيها العدل والسلام متقاربان جدا: « Pax osculatæ » (المزمور، 11،84) و«Pax opus jutitiæ»، الخ.

تعقيبات المعرب على الباب الثاني

1- العقل الكلي في العرفان الإسلامي هو رئيس الديوان الإلهي الأعلى ومظهر اسمه تعالى: العليم القدير. ومظهره في عالم الإنسان هو قطب الزمان رئيس ديوان الأولياء الصالحين، كما أنّ مظهره في الملائكة العرشية إسرافيل عليه السلام، وفي ملائكة سدرة المنتهى جبريل عليه السلام، الذي ينزل بالشرائع على الأنبياء والرسل. حول حقيقة العقل الكلي وخصائصه ينظر في الفتوحات المكية للشيخ ابن العربي: الفصل 11 من الباب 198، وفي الباب 73 جوابه على السؤال 39 من أسئلة الحكيم الترمذي: ما العقل الأكبر الذي قسمت العقول منه لجميع خلقه؟ كما تنظر حوله الأبواب: 6/ 7/ 11/ 22/ 49/ 58/ 60/ ..وقد خصص له أيضا رسالة: "الدرة البيضاء" و"باب العقل الأول أو القلم الأعلى" من كتابه: "عقلة المستوفز" و"باب خطبة العقاب المالك" من كتابه: "الاتحاد الكوني". كما ينظر حوله الفصل السادس من الموقف 248 من كتاب: المواقف للأمير عبد القادر الجزائري، وهو نفيس، والباب 47 من كتاب: الإنسان الكامل، للشيخ عبد الكريم الجيلي.

2- العقل الأول الكلي هو أحد المظاهر العليا للحقيقة المحمدية في العرفان الإسلامي. وفي النصوص الشرعية والصوفية ما لا يحصى من التعابير المبيّنة كونه ﷺ هو الواسطة العظمى والشفيع الأكبر، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]؛ وخليفته في كل زمان هو القطب.

يقول الشيخ ابن العربي في الباب 14 من الفتوحات: [...وأما القطب الواحد فهو روح محمد ﷺ، وهو المد لجميع الأنبياء إلى يوم القيامة... وكان اسمه مداوي الكلوم ((وهو رمز لاسم إدريس عليه السلام قطب الفلك الشمسي القلبي الأوسط وقطب مملكة الولاية الدائمة، حسبما ذكره الشيخ في بدايات الباب 73)).. ولهذا الروح المحمدي مظاهر في العالم، أكمل مظاهره في قطب الزمان، وفي الأفراد، وفي ختم الولاية المحمدي، وختم الولاية العامة الذي هو عيسى عليه السلام، وهو المعبر عنه بمسكنه] . وحول

خصوصياته ﷺ، تنظر في الفتوحات الأبواب: 6/ 12/ 14/ 337/ 338/ 360/ 371/ 379/ وفي أجوبته على أسئلة الحكيم الترمذي من الباب 73 وهي الأسئلة: 73/ 74/ 75/ 76/ 77/ 78/ 79/ 144/ 145/ 148/ 150/ 151/ 154/ 155/ وينظر أيضا الباب: 60 من كتاب: "الإنسان الكامل" للشيخ عبد الكريم الجيلي، وكتابه: "الكمالات الإلهية في الصفات المحمدية"، والفصول الأولى من الموقف 248 من كتاب: المواقف للأمير عبد القادر الجزائري، وكتاب الخصائص الكبرى: لجلال الدين السيوطي. – وفي تعليق المؤلف على الوساطة، أشار إلى الشيوخ الأئمة الأربعة والعشرين، وهم في عددهم مناسبون لمن سمّاهم الشيخ برجال الفتح في الباب: 73 من الفتوحات عند تفصيله لطبقات الأولياء من رجال الأنفاس، فقال عنهم: [هم أربعة وعشرون نفسا في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون، بهم يفتح الله على قلوب أهل الله ما يفتحه من المعارف والأسرار، وجعلهم الله على عدد الساعات، لكل ساعة رجل منهم، وهو متفرقون في الأرض، كل شخص ملازم مكانه لا يبرح أبدا، آيتهم من كتاب الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾].

3- في التراث الشعبي الإسلامي يُعطى لقوس قزح اسم رمزي وهو: «حزام لالة فاطمة الزهراء» أي حزام بنت النبي ﷺ، وفي هذا إشارة إلى كونها تمثل المظهر الإنساني للرّحم الوجودية أو للطبيعة الكلية، بل إلى عنصر الحقيقة المحمدية، فكان يقال لها عليها السلام: «أم أبيها»،كما يقال عن الفاتحة: «أم الكتاب». ومن ثمّ فحزامها القزحي الجامع لِطَيْف كل الألوان يرمز إلى جمعيتها لكل العوالم العلوية والسفلية، وإلى كونها أتم مظهر للرحمة الشاملة للعالمين.

4- في روما القديمة كان "جانوس" يمثل مظهر الربوبية القائم بالفتح والإغلاق، ويُرسم بوجهين ناظرين لاتجاهين متعاكسين، وفي إحدى يديه مفتاح وفي الأخرى صولجان، أو في الواحدة مفتاح ذهبي وفي الأخرى مفتاح فضي. وكلام المؤلف اللاحق في هذه

الفقرة عن العرفاء الخارجين عن جميع الطبقات يناسب في التصوف الإسلامي من يسمون برجال الأعراف الذين لا مقام لهم؛ لانعتاقهم من الانحصار في مقام معين، وقد تكلم الشيخ ابن العربي عنهم في أبواب من الفتوحات كالباب: 40 فقال عن منزلهم أنه منزل الكمال، هو من أجل المنازل، والنازل فيه أتمّ نازل، وكالباب: 420 وهو في معرفة منازلة التخلص من المقامات.

5- حول «مملكة الأسقف يحي» يوجد في التراث العرفاني والشعبي الإسلامي ما يماثلها. ينظر مثلا كلام الشيخ محي الدين في الباب الثامن من الفتوحات، وهو في معرفة أرض السمسمة، وهي أرض الحقيقة وما فيها من الغرائب، وكذلك كلام الشيخ عبد الكريم الجيلي حولها في الباب: 57 من كتابه: "الإنسان الكامل" وكلامه على رجال الغيب والسبع الأرضين في الباب: 62. وينظر أيضا كلام الشيخ عبد العزيز الدباغ الفاسي حول ديوان الصالحين في كتاب: "الإبريز" لتلميذه أحمد بن المبارك .

6- "الملوك الأحبار" (Les Rois - Mages) هم ثلاثة أشخاص من الشرق قدموا مهتدين بنجم، لمباركة المسيح عليه السلام عندما ولد في بيت لحم.

7- "شاكيا – موني" هو ابن رئيس قبيلة "شاكيا" وهو مؤسس الديانة البوذية في القرن الخامس قبل المسيح، وأطلق عليه اسم بوذا.

8- في الأبيات التي افتتح بها الشيخ ابن العربي الباب: 270 الذي خصصه للتعرف إلى القطب ووزيريه الإمامين، أشار إلى أن مقام القطب يتعالى عن عوارض الحركة والسكون، فقال:

منزلة القطب والإمامة	منزلة ما لها علامة
يملكها واحد تعالى	عن صفة السير والإقامة

9- كما أشار إلى قيامه بـ«السلام» الذي سيذكره المؤلف لاحقا بقوله في البيت الرابع: «أيّده الله بالسلامة»، وعبّر عن قيامه بـ«العدل الكوني» فقال عنه: [هو عبد الله، وهو

عبد الجامع، وهو مرآة الحق ومجلى النعوت المقدسة ومجلى المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت وعين الزمان وسرّ القدر، وله علم دهر الدهور، والغالب عليه الخفاء، لا تعتريه شبهة، يضع الموازين ويتصرّف على المقدار المعين، والوقت له ما هو للوقت، هو لله لا لغيره، حاله العبودية والافتقار، محبّ للنساء، يوفي الطبيعة حقها على الحد المشروع له، ويوفي الروحانية حقها على الحد الإلهي].

الـ"شاكيناه" ((السكينة))و"مِطَطْرون"
LA «SHEKINAH» ET «MÉTATRON»

بعض العقول الهلوعة، وبفهمها الذي يجد نفسه بشذوذ منحصرا في حدود أفكار مسبقة، فزعت من مجرد تسمية «مليك العالم»، وسرعان ما قاربوا بينها وبين التسمية الواردة في الإنجيل: "Princeps hujus mundi" ((أي ملك العالم الأرضي الظلماني)). ومن البديهي أنّ هذه المقاربة خطأ تماما وخالية من أيّ أساس؛ ولإزاحتها يمكن أن نقتصر على التنبيه ببساطة على أنّ لقب «مليك العالم» هذا سواء في العبرية أو في العربية، عادة ما يسمىً به الله – تعالى – ذاته (1). وحيث إن بالإمكان هنا وجود فرصة لبعض الملاحظات الهامة، فسننظر في هذه المناسبة إلى نظريات القبالة العبرية المتعلقة بـ«الوسائط السماوية»، إذ لها صلة مباشرة جدا بالموضوع الأساسي لبحثنا هذا.

و«الوسائط السماوية» المقصودة هي الـ"شاكناه" و"مططرون"؛ وبدءا، نقول إنّ الـ"شاكيناه" بالمعنى الأعم هو «الحضور الحقيقي» للألوهية (أو «تجلي حضرة الحق – تعالى –»)). وينبغي ملاحظة أنّ فقرات الكتاب المقدس التي ذكرتها هي التي بالأخص تتكلم على تأسيس مركز روحي مثل: مظلة اليهود ((حيث يوجد تابوت السكينة))، وتشييد هياكل النبي سليمان وزوروبابل (Zorobabel) (أ). فمثل هذا المركز، المؤسس وفق قواعد وضوابط شرعية معيّنة، ينبغي فعلا أن يصبح موقعا للتجلي الإلهي، وهو التجلي الذي يمثّل دوما كـ«نور»؛ ومن اللافت للنظر ملاحظة أنّ عبارة «الموقع المستنير جدا والنظامي المنسجم جدا» التي احتفظت بها الماسونية، تبدو بالتأكيد أنها أثر باق يذكر بالعلم الشرعي القديم الذي كان يحدّد ضوابط تشييد الهياكل، ولم يكن مع ذلك مخصوصا باليهود وحدهم؛ وسنعود إلى هذا لاحقا. وليس علينا أن نتوسّع هنا في نظرية «المؤثرات الروحية» (ونفضّل هذه العبارة على كلمة «بركات» عند ترجمة الكلمة العبرية «براكوث» "Berakoth" ولاسيّما أنها تتضمن المعنى التي احتفظت به في العربية بجلاء تام كلمة «بركة»)؛ لكن، بالاقتصار على رؤية الأمور من

هذه الوجهة في النظر، فإنه يمكن تفهّم كلمة "إلياس لفيتا" (Elias Levita) التي أوردها "فوليود" (Vulliaud) في كتابه حول "القبالة اليهودية"، وهي: «إن لأساتذة القبالة في هذا الموضوع أسرارا كبرى».

إنّ الـ"شاكيناه" تتجلى في مظاهر متعددة، ومن بينها مظهران رئيسيان، أحدهما باطني والآخر ظاهري؛ والحال، من جانب آخر، أنه يوجد في التراث المسيحي جملة دالة بأوضح ما يمكن على هذين المظهرين، وهي:

(hominibusbonæ volontatis. "Pax" in excelsis Deo، et in terra Gloria)

فكلمتا "قلوريا" (Gloria) أي المجد لله – تعالى –، و"باكس" (Pax) أي السلام، تعودان على التوالي إلى المظهر الداخلي بالنسبة للمبدأ، وإلى المظهر الخارجي بالنسبة للعالم الظاهر؛ وبهذا الاعتبار لهذه الكلمات، يمكن مباشرة فهم لماذا تنطق بها الملائكة ("ملاكيم Malakim" بالعبرية) للتبشير بولادة «الحضور الإلهي معنا» أو «فينا» (إمانويل" Emmanuel). وبالنسبة للمظهر الأول، يمكن التذكير بنظريات علماء اللاهوت حول «نور التمجيد» (أو نور التسبيح) الذي فيه وبواسطته يقع الكشف عن الحضرة الإلهية ((أو رؤية الحق تعالى بالبصيرة)) (in excelsis)؛ وأما المظهر الثاني، فمرة أخرى نجد هنا فيه «السلام» الذي أشرنا إليه آنفا، وهو الذي يشار إلى معناه الباطني في كل مكان كأحد النعوت الأساسية للمراكز الروحية المقامة في هذا العالم (in terra) (ب). والكلمة العربية "سكينة" المطابقة طبعا للكلمة العبرية "شاكيناه" تُتَرْجَمبـ«السلام الكبير» ومعناها مطابق بالضبط لكلمة "باكس بروفوندا" (Pax Profunda) عند أهل تنظيم وردة الصليب؛ ومن هنا، يمكن بلا ريب تفسير ما كان يقصده هؤلاء الأخيرون من كلمة «هيكل روح القدس»، كما يمكن أيضا بكيفية دقيقة شرح النصوص الإنجيلية العديدة التي تتضمن الكلام عن «السلام» (2)، ولا سيما أنّ «التراث المكتوم المتعلق بالـ"شاكيناه" قد يكون له نوع من الصلة مع نور المخلص (أو نور المسيح)». وعندما يعطي السيد "فوليود" هذه الإشارة الأخيرة (3)، فهل يقول– بدون قصد– إنّ المراد هو التراث «المخصوص قصرا على الذين يسلكون الطريق المفضي إلى "باردس" ((Pardes أو الفردوس))»، أي كما سنراه لاحقا، إلى المركز الروحي الأعلى؟

وهذا الذي ذكرناه يستدعي أيضا ملاحظة أخرى مرتبطة به، وهي أنّ السيد فوليود يتكلم بعد ذلك عن «السر المتعلق باليوبيل (Jubulé)» (4) ((اليوبايل في الديانة اليهودية هي سنة تخصص لله وللراحة كل خمسين سنة، وفي المسيحية هي غفران للخطايا يمنحه البابا في عدد من المناسبات، فيكون باعثا لإقامة الأعياد))، وهو مرتبط في أحد معانيه بمفهوم «السلام»، وفي هذا السياق، يستشهد بنصّ من كتاب "زوهار" (Zohar، III، 52 ب) وهو: «النهر الذي يخرج من عدن يحمل اسم "إيوبل" (Iobel)»،و يستشهد أيضا بنص من كتاب "إيرميا" (Jérémie) (XVII، 8): وهو: «أنه سيمدّ جذوره نحو النهر»، ومن هذا يستخلص أنّ «الفكرة المركزية لليوبيل هي إعادة كل الأشياء إلى وضعها الأصلي الأول. ومن الواضح أن المقصود هنا الإعادة إلى «الوضع القديم الأصلي» الذي تنصّ عليه كل الملل (ج) وهو الذي كانت لنا فرصة الإلحاح عليه نوعا ما في بحثنا حول "باطنية دانتيه" (L'ésotérisme de Dante)؛ وعندما نضيف بأنّ «عودة كل الأشياء إلى وضعها الأول سوف تطبع عهد الخلاص في النهاية»، فإن الذين طالعوا ذلك البحث يمكن أن يتذكروا ما قلناه حول العلاقات بين «الجنة الأرضية» و«أورشليم السماوية» (د). والقول الحق أن المقصود بكل هذا، خلال الأطوار المختلفة للظهور الدوري، هو دائما "الباردس" ((الفردوس))، أي مركز هذا العالم؛ ونظيره في الرمزية التراثية لجميع الشعوب هو القلب كمركز للكائن وكـ«مسكن إلهي» (براهما – بورا" Brahma-ura، في الملّة الهندوسية)، ومثله تابوت السكينة ((التي تظله المظلة المقدسة عند اليهود)) الذي هو صورة للقلب، ولهذا السبب يسمّى في العبرية بـ"ميشكان" (mishkan) أو «بيت الله» وهي كلمة لها نفس جذر كلمة "شاكيناه". (ه).

ومن وجهة نظر أخرى، فإنّ الـ"شاكيناه" هي خلاصة الـ"سفيروث" (Sephiroth) (أي أقسام التوراة)؛ والحال أنّ «العمود الأيمن» في الشجرة السفروتية يمثل جانب الرحمة ((وصفات الجمال))، و«العمود الأيسر» يمثل جانب القهر ((وصفات الجلال)) (5)؛ ومن ثمّ فلا بدّ أن نعثر على هذين المظهرين فيالـ"شاكيناه"؛ ولكي نربط هذا بما سبق باستطاعتنا فورا ملاحظة أنّ القهر، من حيث نسبة ما، على أيّ حال، يتطابق مع العدل كما تتطابق الرحمة مع السلام (6). «إذا أخطأ الإنسان وابتعد عن "الشاكناه"، فإنه يسقط تحت سلطان

القوى (ساريم Sârim بالعبرية) التابعة للقهر» (7)، وتسمّى الـشاكيناه حينئذ «يد القهـر»، وهذا المعنى يذكر مباشرة بالرمز المشهور لـ«يد العدالة»؛ لكن بالعكس، «إذا اقترب الإنسان من الـشاكناه فإنه يتحرّر» وتكون حينئذ الـشاكناه «اليد اليمنى» لله – تعالى –، أي أنّ يد «العدل» تصبح حينئذ «اليد المباركة» (8). وهنا تكمن أسرار «بيت العدالة» (بيت الدين Beith-Din بالعبرية)، وهي تسمية أخرى للمركز الروحي الأعلى (9). ولا حاجة إلى الإلحاح على التنبيه بأنّ الجانبين المذكورين هما اللذان يتوزع عليهما السعداء ((أو أهل اليمين الأبرار في لغة القرآن)) والأشقياء ((أو أهل الشمال الفجار)) وفق التصورات المسيحية لـ«يوم الدين» ((أي يوم الجزاء أو يوم القيامة)). ويمكن كذلك إقامة مقاربة مع الطريقين الذين يرمز إليهما الفيثاغوريون بالحرف Y، وتمثلهما في شكل ظاهري أسطورة "هركول" (Hercule) بين الفضيلة والرذيلة؛ كما يمكن إقامة نفس المقاربة مع البابين السماوي والجهنمي المرتبطين عند اللاتين برمزية "جانوس"؛ وكذلك مع الطورين المتناوبين دوريا الصاعد والهابط (10) المتعلقين أيضا عند الهندوس برمزية "كانيشا" (Ganêsha) (11) وأخيرا، فإن بهذا الذي ذكرناه، يتيسر فهم ما تعنيه حقا عبارات، كعبارة: «النية القويمة» (أو النية الصادقة) التي سنلتقي بها لاحقا، وكعبارة: «حسن النية» (أو العزيمة الصادقة) (وهي التي وردت في الجملة اللاتينية السابقة: «Pax hominibus boæ volontatis»، والذين لديهم بعض المعرفة للرموز التي كنا بصدد الإشارة إليها، سيرون بأنه ليس من الصادفة كون عيد "نويل" يتطابق مع فترة الانقلاب الشتوي) (و)، وهذا كله إذا اتفقنا على أن نزيح جانبا كل التأويلات الظاهرية السطحية، والفلسفية والأخلاقية، التي أثارتها تلك العبارات منذ الرّواقيين (ز) حتى وصلت إلى "كانت" (Kant).

«إن القبالة تعطي للـشاكيناه قرينا يحمل أسماء مطابقة لأسمائها، وهو، من ثمّ، يملك نفس خصائصها» (12)، وله طبعا مظاهر مختلفة على عدد مظاهر الـشاكيناه نفسها؛ واسم هذا القرين هو "مططرون"، وعدده ((بحساب الجمل المعروف في العبرية وفي العربية)) يساوي عدد اسم "شَدَّي" (Shaddaï) (13) ((أي «شديد القوى»)) (ح) (وهو الاسم الذي يقال عنه أنه أيضا اسم إله إبراهيم ﷺ) والأصل الذي اشتقت منه لفظة "مططرون" يبقى

غامضا؛ ومن أهم الافتراضات المختلفة المطروحة حوله الرأي الذي يجعلها مشتقة من الكلمة الكلدانية "ميطرا" (Mitra)، التي تعني «المطر» (أو الغيث)، وجذر هذه الكلمة له نوع من الصلة مع «النور». وإذا كان الأمر هكذا، فلا ينبغي الظن بأن التماثل مع "ميطرا" الهندوسي والزاردشتي يشكّل مبررا كافيا للإقرار هنا بوجود اقتباس للديانة اليهودية من ملل أخرى غريبة عنها، إذ ليس بهذه الكيفية السطحية يحسن النظر إلى العلاقات القائمة بين مختلف الملل والتراثيات؛ ونفس القول نكرّره في ما يخصّ الدور المنوط بالمطر في جميع التراثيات تقريبا، كرمز لنزول «المؤثرات الروحانية» من السماء إلى الأرض. وفي هذا الصدد، نشير إلى أن الملة العبرية تتكلم عن «طلّ من النور» ينبعث من «شجرة الحياة» وبواسطته تتم عملية بعث الأموات، كما تتكلم عن «فيض من الندى» (أو «دفق من الطل») يمثّل فعل التأثير السماوي الذي يسري منتشرا ليمتد إلى جميع العوالم، وهذا بالأخصّ يذكر بالرمزية الكيميائية القديمة وبرمزية تنظيم وردة الصليب (ط).

«إنّ لفظة "مططرون" تتضمن كل معاني كلمات: الحارس، والرب، والمرسل، والواسطة»؛ إنه «مصدر التجليات في عالم الشهادة» (14). إنه «ملك الوجه» (أو «ملك المواجهة») وهو أيضا: «أمير العالم» ("سارها – عولام" Sârha-ôlam بالعبرية)، وبهذه التسمية يتبين أننا لم نبتعد بتاتا عن موضوعنا. وحتى نستعمل الرمزية التراثية التي شرحناها سابقا، نقول يقينا: مثلما أنّ رئيس مراتب الولاية الربانية هو «القطب الأرضي» ((أي الغوث قطب الزمان في الاصطلاح الصوفي))، فإن "مططرون" كذلك هو «القطب السماوي»؛ ولهذا القطب انعكاسه في ذلك القطب الآخر، وهما متواصلان معا وفق «محور العالم». «إن اسمه ميكائيل، الإمام الأكبر (أو (خادم السر الأكبر) الذي هو أضحية وقربان أمام الله . وكل ما يفعله الإسرائيليون على الأرض يتم وفق النماذج التي تبرم في العالم السماوي. والحبر الأعظم هنا في الدنيا يرمز إلى ميكائيل، أمير الحلم والرأفة... وفي كل فقرات الكتاب المقدس التي تذكر ظهور ميكائيل، المقصود منها هو تجلي مجد "الشاكيناه"» (15). وما يقال هنا عن الإسرائيليين يمكن كذلك أن يقال عن كل الشعوب المالكة لتراث شرعي حقيقي ((أي نابع من وحي إلهي ثابت))؛ وهو يصحّ بكيفية أكمل وأجلى على ممثلي الملة الأصلية الأولى التي تفرعت منها

كل الملل الأخرى، فهي لها تابعة وإليها راجعة؛ وهذا المعنى له علاقة مع رمزية «الأرض المقدسة» التي هي صورة للعالم السماوي المشار إليه سابقا. ومن ناحية أخرى، تبعا لما ذكرناه آنفا، ليس ل"مططرون" مظهر يقتصر على الحلم والرأفة فقط، وإنما له أيضا مظهر العدل؛ فليس هو «الحبر الأكبر» ("كوهن– ها– ڤادول" Kohen ha-gadol) فحسب، وإنما هو أيضا «الأمير الأعظم» ("سارها– ڤودال) و«رئيس العساكر السماوية» (ي)، أي كما أنّ لديه مبدأ السلطة الملكية، فإن لديه كذلك السلطة الروحية أو الإمامة الدينية التي تناسبها بالتحديد وظيفة «الوساطة». وينبغي التنبه إلى أنّ لفظة " ملك " (أو مليك " Melek بالعبرية) ولفظة "ملاك" (Maleak) – من الملائكة – أو «رسول» ليستا هما في الحقيقة سوى شكلين لنفس الكلمة الواحدة؛ وفوق ذلك فكلمة "ملاكي" (Malaki) أي «رسولي» (أي: رسول الله، أو «الملاك المتجلي فيه الحق – تعالى –» "ملاك ها – الوهيم") تتشكل من نفس الحروف المشكلة لاسم "ميكائيل" (Mikaël) (16) (ك). ومن المناسب إضافة أنه إذا كان "ميكائيل" يتطابق مع "مططرون" كما كنا بصدد بيانه، فإنه رغم هذا لا يمثل سوى أحد مظاهره؛ فإلى جانب وجهه النوراني يوجد وجه ظلماني يمثله "سمائيل" (Samaël) الذي يسمى كذلك بـ"سارهاعولام"، وهنا نعود إلى نقطة انطلاق هذه الاعتبارات. وبالفعل فإن هذا المظهر الأخير، وهو وحده، الذي يسمّى بـ«عفريت هذا العالم الدنيوي» بمعناه السفلي، وهو الذي تكلم عنه الإنجيل بعبارة « Princeps hujus mundi»؛ وحيث إنه كالظل الظلماني السفلي لمططرون، فالعلاقات بينهما تبرّر استعمال نفس التسمية بمعنى مزدوج، وهكذا، في نفس الوقت، ينبغي فهم لماذا كان العدد المتعلق بنهاية العالم أي 666 الذي هو «عدد الدّابة» ((أو البهيمة المقترنة بالدجال في آخر الزمان)) هو أيضا عدد شمسي (17) (ل). وفضلا عن هذا، وتبعا للقديس "هيبوليت" (Hippolyte) (18) فإنّ «للمسيح وللدجال، للاثنين معا، نفس الشعار الذي هو الأسد» وهو أيضا رمز شمسي؛ ونفس الملاحظة يمكن أن تقال عن الحيّة (19) وعن رموز أخرى كثيرة. ومن وجهة نظر القبالة، المقصود هنا أيضا هما الوجهان المتعاكسان لمططرون. وليس علينا أن نتوسع في النظريات التي يمكن صياغتها، بصفة عامة، حول هذا المعنى المزدوج للرموز، ولكن نكتفي بقول إنّ الخلط بين المظهر النوراني والمظهر الظلماني يشكل بالتحديد

«الولاية الشيطانية» (Le satanisme)؛ وهذا الخلط بالتحديد هو الذي يقترفه، بلا شك، بدون وعي وبمحض الجهل (وهذا يُعتبَر عذرا لا تبريرا) أولئك الذين يظنـون العثـور علـى دلالـة جهنمية في تسمية «مليك العالم» (20).

تعقيبات المؤلف على الباب الثالث

1- ثمّة فرق كبير في المعنى بين «العالم» «Le monde» و«هذا العالم» (ce monde)، إلى حدّ أنه توجد في بعض اللغات كلمتان مختلفتان تماما للدلالة عليهما: فكلمة "mondele" تعني العالم في العربية، بينما "ce monde"، تعني الدنيا.

2- في الإنجيل نفسه، تفصيل في غاية الوضوح يصرح بأنّ المقصود بـ«السلام» هنا ليس هو بتاتا المعنى المفهوم في عالم العوام الظاهري السطحي (القديس يوحنا، XIV، 27)

3- القبالة اليهودية، ج. I، ص 503.

4- المرجع السابق، ج. I، 506 -507.

5- رمزية مماثلة تماما لهذه الأخيرة تعبّر عنها في العصر الوسيط هيئة «شجرة الأحياء والأموات»، التي لها صلة واضحة جدا مع فكرة «العقب (أو النسل) الروحي»؛ وينبغي ملاحظة أنّ الشجرة السفروتية تُعتبر هي أيضا كالمطابقةلـ«شجرة الحياة».

6- حسب التلمود، إنّ لله – تعالى – كرسيين، كرسي العدل، وكرسي الرحمة؛ وهما يناسبان في الملّة الإسلامية «العرش» و«الكرسي». ومما يستجيب أيضا لنفس النمط من التمييز، أنّ الملّة الإسلامية تقسّم، من جانب آخر، أسماء الله – تعالى – الصفاتية، أي التي تعبّرعن نعوت تختصّ به – تعالى – إلى أسماء جلالية وأسماء جمالية.

7- القبالة اليهودية، ج. I، ص.507.

8- حسب القديس أوغسطين والعديد من آباء الكنيسة، اليد اليمنى تمثل كذلك الرحمة والرأفة أو الكرم، بينما اليد اليسرى، لاسيما الإلهية، هي رمز العدل. و «يد العدالة» هي من النعوت الشائعة للملكية؛ و «اليد المباركة» هي علامة على السلطة الروحية، وقد أُخذت أحيانا كرمز للمسيح. – وهذه الصورة لل «يد المباركة» توجد في بعض النقود الغالية (gauloises)، وكذلك الصليب المعقوف، بفروع منحنية أحيانا.

9- هذا المركز، أو واحد ما من المراكز المشكّلة على صورته، يمكن أن يوصف رمزيا في نفس الوقت كهيكل للعبادة (يمثل المظهر الروحي المناسب للسلام) وكقصر أو محكمة (تمثل المظهر الملكي المناسب للعدالة).

10- المقصود هنا شطر دورة فلك البروج، الذي كثيرا ما نجده ممثلا على أبواب كنائس العصر الوسيط في وضعية تضفي عليه بجلاء نفس الدلالة.

11- كل الرموز التي نعددها هنا تتطلب شرحا مطولا؛ وربما سنقوم بذلك يوما ما في بحث آخر.

12- القبالة اليهودية، ج. I، ص. 497 – 498.

13- عدد كل من هذين الاسمين، الحاصل بجمع قيم الحروف العبرية المشكّلة لهما، هو: 314.

14- القبالة اليهودية، ج. I، ص. 492 و 499.

15- المرجع السابق، ج I، ص. 500، 501.

16- هذه الملاحظة الأخيرة تذكر طبعا بهذه الكلمات (اللاتينية): « Benedictus qui venit in nomine Domini»؛ وهي تتعلق بالمسيح، الذي يشبّهه القسّ "هرماس" بميكائيل تحديدا، وبكيفية يمكن أن تبدو غريبة، ولكن لا يستغربها الذين يفهمون العلاقة القائمة بين المسيح والـ"شاكيناه". فالمسيح يُدعى أيضا «أمير السلام» وهو في نفس الوقت «قاضي الأحياء والأموات».

17- هذا العدد يعطيه بالخصوص اسم "سورَت" (Sorath).، الذي هو اسم عفريت الشمس، المعاكس كما هو عليه للملاك ميكائيل؛ وسنرى له لاحقا دلالة أخرى. ((سورت = 60 + 6 + 200 + 400 = 666)).

18- ذكره السيد "فوليود"، القبالة اليهودية، ج. I، ص 373.

19- هذان المظهران المتعاكسان يُمثّلان خصوصا بحيتي صولجان هرمس؛ وفي التماثيل المسيحية، يجتمع المظهران في «القهيقران» أي الثعبان ذو الرأسين، أحدهما يمثل المسيح والآخر يمثل الشيطان.

20- نشير أيضا إلى أنّ «كرة الكون»، كرمز للحكم الملكي أو للملكية الكونية، توجد في كثير من الأحيان موضوعة في يد المسيح، وهذا يبيّن أنه شعار للسلطة الروحية كما هو كذلك أيضا للحكم الزمني.

تعقيبات المعرب على الباب الثالث

1- ورد ذكر السكينة في القرآن ست مرات، الأولى في الآية 248 من سورة البقرة تتعلق بتابوت بني إسرائيل وملكهم طالوت: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ والثانية في الآية 26 من سورة التوبة تتعلق بجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم للكفار: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكذلك في الآية 40 من سورة التوبة واقترنت بالجنود السماوية أي الملائكة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ والآيات الثلاث الباقيات من سورة الفتح تتعلق أيضا بالجهاد والمبايعة والقلوب كما في الآية 4: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.- وفي مسألة اقتران السكينة بتأسيس مركز روحي، ورد في الأخبار أنّ الله تعالى لمّا أمر إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة أنزل الله السكينة في هيئة سحابة، واستدلّ بظلها على معرفة حدود الكعبة.

2- واما "زوروبابل" فهو ملك سبط يهودا من بني إسرائيل، وهو الذي أعادهم إلى بلادهم بعد صدور الأمر من سيروس في القرن السادس قبل المسيح.

3- في القرآن الكريم قرن الله تعالى مكة والبيت الحرام بالأمن في عدّة آيات كما في الآية 126 من سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ وفي الآية 57 من سورة القصص: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وفي سورة قريش: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن

جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾. وحول ارتباط بيت المقدس وكل مركز روحي بالسلام والأمن، ينظر فص يونس الثامن عشر من كتاب: فصوص الحكم للشيخ ابن العربي.

4- كثيرة هي الآيات القرآنية التي تنصّ على إعادة الخلق إلى الوضع الأصلي في البدء، كما في الآية 29 من سورة الأعراف: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ والآية 104 من سورة الأنبياء: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا ﴾، والآية 11 من سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.- وكتاب "زوهار" المذكور هو من أهمّ المصادر الأساسية للعرفان في الملّة الإسرائيلية؛ أمّا "أرميا" (نحو 650 – 585 قبل الميلاد) فهو أحد كبار أنبياء بني إسرائيل الأربعة، وينسب إليه كتاب مراثي أرميا..والباحث بول فوليود (1875 - 1950) الذي تكرر اسمه في هذا الباب كان متخصصا في العرفان العبري، ومن أهمّ كتبه: "القبالة اليهودية تاريخ ومذهب" في جزأين، نشر بباريس سنة 1923. ولمزيد من التوسع في موضوع القبالة يرجع إلى ما كتبه المؤلف الشيخ عبد الواحد يحي في أربعة بحوث، توجد في مجموعة بحوثه التي عنوانها: "أشكال تراثية ودورات كونية".

5- حول هذا الموضوع ينظر للمؤلف الباب التاسع من كتابه: (رمزية الصليب) والباب العشرون من كتابه: (هيمنه الكم وعلامات آخر الزمان).

6- للصوفية المسلمين شروح كثيرة على الحديث القدسي: [لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن. وقد قرن الله السكينة بقلوب المومنين في الآية 4 من سورة الفتح المذكورة أعلاه. يقول الشيخ محمد الهبري (توفي سنة 1939) لتلاميذه في إحدى رسائله: [واجعلوا قلوبكم بيت الله، وأجسامكم مكة، وسركم حرمه، ولا تغفلوا عن الطواف بالبيت المعظم عند الله، والتعظيم لمكة الله، والسريان في حرم الله]. ويقول ابن عطاء الله في إحدى حكمه: [لماذا تقطع الفيافي والبحار لترى بيت ربك ولم تقطع هوى نفسك لترى ربك في بيتك] أي في قلبك.

7- يقع الانقلاب الشتوي عادة بين 21 و 22 ديسمبر، والموقع الفلكي للشمس عند هذا الانقلاب يكون عند طالع الجدي. ولهذا الموقع وزمانه أهمية عظمى عند جلّ الملل، ونظيرها في الملّة الإسلامية أهمية ليلة القدر في الليالي أو نهار عرفة في الأنهر. وقد تكلم المؤلف الشيخ عبد الواحد يحي عن هذا الموضوع في مجموعة مقالاته التي جمعت تحت عنوان: "رموز العلم المقدس"، الأبواب: 13/ 18/ 35/ 36/ 37/ 38.

8- الرواقيون نسبة إلى الرواق الذي كان يجتمع فيه أتباع زينون القيسيوني (توفي حوالي 264 ق.م)، وهو فيلسوف يوناني فينيقي الأصل، ولد في قبرص وأسس فلسفة الرواقية، التي تقول إن كل شيء في الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلي ويقبل مفاعيل القَدَر طوعا. وأما كانت إمانويل (1724 - 1804) فهو فيلسوف ألماني مثالي، له مؤلفات في نقد العقل النظري والعقل العملي والحكم العقلي، وذهب إلى القول بأنّ ماهية الأشياء لا تدرك، وإنما تعرف ظواهرها الحسية.

9- عدد الاسم "مططرون" = 40+9+9+200+6+50=314؛ وبالحساب المغربي العربي وكذلك بالحساب العبري: شدّي 300+4+10=314 وهذا العدد هو عدد اسم (محمّد) بتفصيل حروفه (ميم+حاء+ميم+ميم+دال=90+9+90+90+35=314) وهو عدد الرسل، كما هو عدد جنود طالوت، وهو أيضا عدد أهل بدر. ومن لطيف الاتفاق أنه أيضا عدد كلمة (البدريون = 1+30+2+4+200+10+10+6+50=313) مع قائدهم رسول الله ﷺ أي 313 + 1 =314. وهو عدد كلمة (الإنسن الكامل) بالحساب المشرقي العربي، وعدد كلمة (معراج)، إلى غير ذلك من دلالاته. هذا وقد جاء في القرآن الكريم اسم (شديد القوى) في الآية الخامسة من سورة النجم التي تتكلم عن معراج رسول الله ﷺ، وهي: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، والمقصود هو الله تعالى أو أمين الوحي جبريل عليه السلام الموصوف في الآية 20 من سورة التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾. وقد ورد اسم (شديد) على لسان لوط قريب إبراهيم وصاحبه عليهما

السلام في الآية 80 من سورة هود: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. وقد بيّن الشيخ ابن العربي في الباب 198 من الفتوحات أن الاسم الإلهي المتوجه على إيجاد الملآئكة هو: القوي.

10- في القرآن الكريم عشرات من الآيات التي تذكر ماء السماء النازل لإحياء الأرض ومن عليها، وتشبيه عملية البعث والنشور بآثاره؛ وأما علاقته بنور الطهارة وضَوْء الوضوء فمشهورة؛ وأما شجرة النور الإلهي المباركة ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، فلها الآية 35 من سورة النور.

11- ي) ينظر كلام الشيخ ابن العربي حول العساكر الإلهية، ومن حازها، وإلى أين منتهاهم، واسم (الملك) الحاكم عليهم في جوابه على السؤالين الثالث والرابع من أسئلة الحكيم الترمذي في الباب 73 من الفتوحات المكية. وفي العرفان الإسلامي الحضرة الجامعة لمبدأ السلطتين الروحية والملكية هي الخلافة المحمدية التي يقول الشيخ ابن العربي عن صاحبها ﷺ في صلاته عليه: [..أمين الله على خزائن الفواضل ومستودعها ومقسمها على حسب القوابل وموزّعها...واسطة التنزل من سماء الأزلية إلى أرض الأبدية...ورابطة تعلق الحدوث بالقدم..ومركز إحاطة الباطن والظاهر...وارْضَ عن خليفته في هذا الزمان، من جنس عالم الإنسان، حجة الله في القضية، محل نظر الله من خلقه،منفذ أحكامه بينهم بصدقه، الممد للعوالم بروحانيته، من خلقه الله على صورته، وخصصه في هذا الزمان ليكون للعالمين أمانا، فهو قطب دائرة الوجود، ومحل السمع والشهود، لأنه مظهر الحق ومعدن الصدق].

12- في اللغة العربية المألكة والألوكة هي الرسالة، ومعنى الملائكة الرسل. ولمعرفة النبوة الملكية والرسالة الملكية ينظر الباب 157 والباب 160 من الفتوحات لابن العربي. وقد ورد في القرآن ذكر ميكائيل مقترنا بجبريل وبالملائكة وبالرسل في الآية 98 من سورة البقرة.

13- في علم الجداول والأوفاق، يعطى للشمس الوفق السداسي، ومجموع أرقامه الستة والثلاثين هو 666، لكل عمود ولكل سطر ولكل من القطرين المجموع 111 الذي هو عدد كلمة (قطب) أو عدد كلمة (ميكايل) أو عدد كلمة (أعلى) أو عدد الاسم الإلهي (كافي). وهذا الفلك الشمسي القطبي القلبي الأوسط مناسب للسماء الرابعة الوسطى، قلب مراتب الوجود، كما فصّلها الشيخ ابن العربي في الباب 198 من الفتوحات، وفيها مقام (ميكائيل) والنبي إدريس الذي رفعه الله مكانا عليّا. وقد بيّن الشيخ ابن العربي في بدايات الباب 73 من الفتوحات أنّ أعلى دائرة في مراتب الولاية في كل زمان تتشكل من القطب ووزيريه الإمامين والوتد الرابع،وهم يستمدون من المركز الروحي العلي، الذي يتألف من القطب الدائم إدريس والإمامين عيسى وإلياس ورابعهم الخضر عليهم السلام. وهؤلاء يستمدون من قطب الأقطاب روح سيدنا محمد ﷺ. والملاحظ أنّ في أسماء ثلاثة منهم يوجد الحرفان (يس) اللذان هما فاتحة سورة (يس) قلب القرآن في موقعها الشمسي بتقدير العزيز العليم (رقم ترتيبها في السور هو 36) وعدد تفصيلها (ياسين) هو 131 الذي هو عدد اسمه تعالى (سلام) الذي هو فاتحة آيتها القلبية المشتملة على الاسم الأعظم: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. وباعتبار المدّ في ألف (ياسين) يصبح عددها 132 الذي هو عدد كلمة (قلب) أو كلمة (إسلام) أو كلمة (محمّد) باعتبار تضعيف الميم الثانية. وأمّا مسألة أنّ لكل مظهر نوراني علوي ظلا سفليا مقلوبا ظلمانيًّا، فإليها الإشارة في الآية 31 من سورة الفرقان: [وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين]. والأحاديث النبوية التي تتكلم على المسيح الدجال تظهره كالظل المقلوب تماما للمسيح عيسى عليه السلام. وقد ذكر الشيخ عبد الكريم الجيلي في الباب 62 من كتابه: "الإنسان الكامل" أنّ عرش إبليس الأكبر يقع في مركز الأرض الرابعة الوسطى، أي تماما في مقابلة مركز السماوات حيث المقام الإدريسي القطبي الأعلى. وذكر الشيخ الشعراني كذلك في الباب 71 من كتابه: "اليواقيت والجواهر" أنّ موقع إبليس في الآخرة في طبقتها الوسطى

الرابعة. وهنا يلاحظ مرّة أخرى الحرفان القلبيان في اسم (إبليس). وللتوسع فيما يتعلق بالولاية الشيطانية والدجال في آخر الزمان، تنظر الأبواب الأخيرة من كتاب المؤلف الشيخ عبد الواحد يحي الذي عنوانه: "هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان".

الباب الرابع

الوظائف الثلاث العليا

LES TROIS FONCTIONS SUPRÊMES

الرئيس الأعلى للـ"أقارتتها"، حسب سانت –إيف، يحمل لقب "براهاتما" (Brahâtmâ، والأصح كتابة "براهماتما": Brahmâtmâ) «إنه حامل النفوس في روح الله»، ووزيراه هما: الـ"ماهاتما" (Mahâtmâ) «ممثل النفس الكلية» والـ"ماهانقا (Mahânga) «رمز كل تنظيم مادي للكون» (1) (ا). وهذا هو التقسيم الترتيبي الذي تعرضه المذاهب الغربية في التشكيلة الثلاثية: «روح، نفس، جسم»، وهي هنا مطبقة وفق التماثل القائم بين تشكيلتي العالم الكبير ((أي الكون)) والعالم الصغير ((أي الإنسان)). وتجدر ملاحظة أنّ هذه الألفاظ بالسنسكريتة، تدل بالتحديد على مبادئ، ولا يمكن تطبيقها على البشر إلا بصفتهم ممثلين لنفس هذه المبادئ، بحيث، أنها حتى في هذه الحالة، تبقى هذه الألفاظ متعلقة أساسيا بوظائف لا بأفراد. وحسب أوسندوسكي فإنّ الـ"ماهاتما" «يعلم حوادث المستقبل» (ب)، والـ"ماهانقا" «يسيّر أسباب هذه الحوادث»؛ وأما الـ"براهاتما" فيمكنه أن «يتكلم مع الله –تعالى – مواجهة» (2)، ومن اليسير فهم ما يعنيه هذا النعت، إذا تذكرنا بأنه يحتل النقطة المركزية التي يتمّ فيها الاتصال المباشر للعالم الأرضي مع المراتب العليا، ومن خلالها مع المبدأ الأسمى(3)(ج).
هذا، وإنّ عبارة «مليك العالم» لو أردنا فهمها بالمعنى الضيق، والمقتصر على العالم الأرضي فقط، فإنها تمسي غير ملائمة تماما؛ وإنما الأصحّ من عدّة حيثيات، أن يطبّق على "براهاتما" عبارة «مولى (أو سيّد) العوالم الثلاثة»(4)، لأن في كل تدرّج حقيقي للمراتب، يكون المالك للدرجة العليا مالكا في نفس الوقت بحكم مكانته لجميع الدرجات التي دونه والتابعة له؛ وهذه «العوالم الثلاثة» (المشكّلة ل: "تريبهوفانا" Tribhuvana في الملة الهندوسية) هي، كما سنشرحه لاحقا، الميادين المناسبة على التتالي للوظائف التي عدّدناها قبل قليل (ج).

يقول السيد أوسندوسكي: «عندما يخرج مليك العالم من المعبد، فإنه يشع بالنور الإلهي»، والتوراة العبرية تقول بالضبط نفس الشيء عن موسى ﷺ عندما نزل من سيناء (5). وفي موضوع هذه المقاربة ينبغي ملاحظة أنّ الملّة الإسلامية تعتبر موسى «قطب» زمانه؛ أوَلَيس لهذا السبب تقول القبالة بأنّ الذي علمه هو "مططرون"؟ ومع هذا، فإنه ينبغي التمييز هنا بين المركز الروحي الرئيسي لعالمنا والمراكز الثانوية التابعة له، المقتصرة على تمثيله فقط بالنسبة لملل خاصة، والمكيّفة بالخصوص لشعوب معيّنة. وبدون أن نتوسّع في هذه النقطة، ننبّه على أنّ وظيفة «الرسول المشرّع»، كوظيفة موسى، تفترض بالضرورة تفويضا للسلطة المسمّاة باسم "مانو"؛ ومن جانب آخر، فإن أحد المعاني التي يتضمنها اسم "مانو" هذا يدلّ بالتحديد على انعكاس (أو تجلي) النور الإلهي (ه). يقول أحد أئمة الديانة اللامية البوذية ((ويدعى عندهم في التبت بلقب: لاما)) للسيد أوسندوسكي: «إنّ مليك العالم على صلة مع خواطر كل الذين يسيّرون مصير الإنسانية.. إنه يعلم نواياهم وأفكارهم. فإذا كانت مرضية عند الله فإن مليك العالم يؤيدها بمعونته الغيبية؛ وإن لم تكن عند الله مرضية فالمليك يحبطها (و). وهذا التصرف يُعطي إلى " أقـهارتي (Agharti) بمعرفة سرّ (الكلمة المقدسة) "أوم" (Om)، وهي التي نفتتح بها كل صلواتنا (و).» وفورا بعد هذه الجملة يواصل اللاما حديثه بكلام قد يذهل كل الذين ليس لهم عن دلالة تلك الكلمة ذات المقطع الواحد "أوم" إلا فكرة غامضة، فيقول: «"أوم" هي اسم قديس كان في القدم، وهو أوّل الأساتذة أئمة التربية الروحية العرفانية ("قورو" بالسنسكريتية، والسيد أوسندوسكي يكتبها "goro" بدلا من guru) وقد عاش منذ ثلاث مائة ألف سنة.» وفعلا فإنّ هذه الجملة تستعصي على الفهم تماما، إذا لم نتدبر المعنى التالي، وهو أنّ العهد المذكور الذي أشير إليه بكيفية تبدو مبهمة جدا، سبقت بمدّة سحيقة عصر "مانو" الراهن؛ ومن جانب آخر، فإنّ " الآدي – مانو" (Adi-Manu) أو "مانو" الأول لدورتنا الزمنية الكبرى "كالبا" (Kalpa) يسمّى: "سوايامبهوفا" (Swayambhuva) أي أنه منحدر من "سوايامبهو" (Swâyambhû) الذي يعني: «الباقي الدائم بذاته»، أو "اللوقوس" (Logos) أي الكلمة الإلهية الأزلية (م) (وأما "مانو" الخاص بالدورة الجزئية السابعة من الأربعة عشرة دورة المؤلفة للـ"كالبا"، وهي دورتنا الراهنة، فاسمه "فايفاسواتا"

Vaivaswata)؛والحال أنّ "اللوغوس" أو الممثل المباشر له، يمكن حقا أن ينعت كأنه أوّل الأساتذة أو «إمام شيوخ التربية»؛ وبالفعل فإن "أوم" هي في الحقيقة اسم "للوغوس" (6). ومن ناحية أخرى، فإن كلمة "أوم" تعطي مباشرة مفتاح توزيع ترتيب درجات الوظائف بين "براهاتما" ووزيريه، وفق ما ذكرناه آنفا. وبالفعل، فحسب التراث الهندوسي، العناصر الثلاثة المؤلفة لهذه الكلمة المقدسة ترمز على التتالي إلى «العوالم الثلاثة» المشار إليها سابقا، أي الأقسام الثلاثة المشكلة لـ"تريبهوفانا" (Tribhuvana)، وهي الأرض ("بهو" Bhû). والمحيط الهوائي ("بهوفاس" (Bhuvas) والسماء ("سوار" Swar)، أي بعبارة أخرى: عالم الظهور الجسماني ((أي عالم الشهادة والحس أو عالم الملك))، وعالم الظهور اللطيف أو العالم النفساني ((أي العالم الوسط البرزخي بين العالمين الأعلى الروحاني المجرد والأسفل الجسمي الكثيف، والبعض يسميه عالم الملكوت، وآخرون يسمونه عالم الجبروت))، والعالم المبدئي الغيبي ((أو الملكوت الأعلى، ويسميه آخرون بعالم الجبروت أو العالم الأصلي)) (7).

فصعودا من الأسفل إلى الأعلى توجد هنا الميادين الخاصة بالـ"ماهانقا"، وبالـ"ماهاتما" وبـ"براهاتما"، ويظهر هذا بسهولة بالرجوع إلى شرح دلالة ألقابهم المذكورة آنفا، وعلاقات التبعية ((أي استمداد كل درجة من مراتب الوجود من التي فوقها)) القائمة بين هذه الميادين هي التي تبرّر، بالنسبةللـ"براهاتما" تسميته بـ«سيد العوالم الثلاثة» التي استعملناها من قبل (8) (ط): «إنه المولى الراعي للأشياء كلها، إنه كلّي العلم (يرى مباشرة جميع المعلولات في عللها)، إنه المنسق الداخلي (المستقر في مركز العالم ويسيّره من باطنه، ويدبر حركته بدون أن يشارك فيها)، إنه المصدر لكل سلطة شرعية)، إنه الأصل والغاية ((أي الفاتح الخاتم)) لكل الكائنات (أي كائنات الظهور الدوري التي يمثل شرعتها)» (9) ولكي نستعمل أيضا رمزية أخرى، لا تقل دقة في صحتها، نقول بأنّ الـ"ماها نقا" يمثّل قاعدة مثلث العرفان الروحي الباطني، بينما "براهاتما" يمثل قمته؛ وبين الاثنين، الـ"ماهاتما" يجسّد على هذا النحو مبدأ وساطة (أو الحيوية الكونية، أي "أنيما موندي" Anima Mundi عند الهرمسيين) وفعله يسري في «المحيط البرزخي الأوسط»؛ وكل هذا يمثّل بجلاء تام بالحروف المناسبة للأبجدية المقدسة التي يسميها سانت-إيف "فاتّان" (vattan) ويسميها السيد أوسندوسكي "فاتانان" (vatannan) (ي)، أو بتعبير

مطابق يمثل بالأشكال الهندسية (خط و لولب ونقطة) التي ترجع أساسيا إلى العناصر الثلاثة المسمّاة "ماترا" (mâtrâs) والمؤلفة للكلمة أوم". ولمزيد من التوضيح نقول: ال "براهاتما" هو المالك للجمعية الكاملة للسلطتين الروحية والملكية ((أي له كمال الخلافة)) باعتبار عدم تميّزهما في وحدتهما المبدئية، إذا صحّ القول؛ ثم إن هاتين السلطتين تتميزان بعد ذلك ليبرز ظهورهما، فيمثل الـ"ماهاتما" بالأخص السلطة الروحية، بينما يمثل الـ"ماهانقا" السلطة الملكية. وهذا التمييز يتناسب مع التمييز الواقع بين طبقتي البراهمان والكشاطرية؛ لكن حيث إن الـ"ماهاتما" والـ"ماهانقا"، مثلهما مثل الـ"براهاتما"، «خارجان عن الترتيب الطبقي»، فإن لهما في ذاتهما صبغة روحية وملكية في نفس الوقت. وفي هذا الصدد، لنوضح بالتدقيق نقطة تبدو أنها لم تفسَّر أبدا في ما مضى بكيفية مرضية رغم أهميتها الكبرى، وهي أننا أشرنا في ما سبق إلى «الملوك الأحبار» الوارد ذكرهم في الإنجيل، بصفتهم جامعين للسلطتين معا؛ ونصرّح الآن بأن هؤلاء الأشخاص (الثلاثة) الذين يكتنفهم السر، لا يمثلون في الحقيقة سوى الرؤساء الثلاثة للـ"أقارتتها" (10) (ك). فالـ"ماهانقا" يُهدي إلى المسيح الذهب ويحيّيه بصفته «ملكا»، والـ"ماهانقا" يُهدي إليه البخور ويحيّيه بصفته «إماما روحيا»، وأخيرا الـ"براهاتما" يُهدي إليه صمغ المرّ المكاوي (le myrrhe، مرهم الخلود، ورمز الأمريتا "Amritâ") (11) ويحيّيه بصفته «نبيا» أو مربيا روحيا بالمعنى الأكمل. ولنلاحظ جيدا بأن التمجيد الذي خُصّ به المسيح هكذا فور ولادته، في العوالم الثلاثة التي هي ميادينهم على التتالي، من طرف الممثلين الحقيقيين للملّة الأصلية الأولى، هو في نفس الوقت، شهادة ضمان على الشرعية الكاملة للمسيحية إزاء هذه الملة ((أي الملة الأولى الأصلية المصانة المكنونة)).

وبطبيعة الحال، فإن السيد أوسندوسكي لم يكن باستطاعته أصلا أن يعتبر مفاهيم من هذا الطراز؛ ولكنه لو فهم بعض الأمور بكيفية أعمق مما فعل، لكان بإمكانه على الأقل أن يلاحظ التماثل الدقيق القائم بين الثلاثية العليا للـ"أقارتتها" وثلاثية اللاموية وفق ما أشار إليه بقوله: إن الـ"دلاي – لاما" (Dalai-Lama) أي الرئيس الأعلى للديانة اللاموية)) «يحقق قداسة بوذا» ((أي الولاية الربانية أو الروحانية الخالصة))، و"تاشي – لاما" (Tashi-Lama)

«يتحقق بعلمه» (وليس بعلمه «السحري» كما يظنه أوسندوسكي حسبما يبدو، بل بالأحرى علمه المتعلق بـ «التصرف الرباني في الأشياء»)، و"بوغدو-خان" (Bogdo-Khan) «يتحقق بقوة بوذا المادية والحربية»؛ وهذا هو بالضبط نفس التوزيع وفق «العوالم الثلاثة».بل كان بإمكانه أن يقوم بلا عناء بهذه الملاحظة لا سيما وقد نُبِّه على أنّ «عاصمة "أفهارتي" تذكر بالعاصمة "لهاسا" حيث يتموقع قصر" الدلاي - لاما"، المسمّى "بوتالا" (Potala)، في قمة جبل تغطيه المعابد وأديرة الرهبان». ومن الخطأ التعبير عن الأمور بهذه الكيفية لكونها تقلب النسب، لأن صورة الشيء في الحقيقة هي التي يمكن أن يقال عنها بأنها تذكر بنموذجها الأصلي وليس العكس؛ والحال أن مركز اللاموية لا يمكن أن يكون إلا صورة لـ«مركز العالم» الحقيقي؛ بيد أن كل المراكز من هذا الطراز، من حيث مواقع تأسيسها، تتميز ببعض السمات الطوبوغرافية المشتركة، لأن ميزاتها، بعيدة عن أن تكون غير مقصودة بالذات، لها قيمة رمزية لا ريب فيها، وفوق ذلك لا بدّ أن تكون لها علاقة مع القواعد التي من خلالها تكون «المؤثرات الروحية» فعّالة حقّا؛ وهذه مسألة تتعلق تحديدا بالعلم التراثي الذي يمكن أن يُعطىَ له اسم «الجغرافيا المقدسة».

وثمّة كذلك توافق آخر لا يقل إثارة للانتباه، وهو أنّ سانت-إيف؛ في وصفه لمختلف درجات أدوار مراتب العرفان الروحي ((أو مقامات الولاية في الاصطلاح الصوفي))، التي لها صلة مع بعض الأعداد الرمزية، معتمدا في ذلك بالأخصّ على التقاسيم الزمنية، ينهي عرضه بقوله: «إن أعلى دائرة وأقربها إلى المركز المصون المكنون تتألف من اثني عشر عضوا، يمثلون العرفان الأسمى، ويوجد تناسب بينهم وبين أمور شتّى من بينها فلك البروج». والحال أن هذه التشكيلة بالذات توجد في ما يسمىٌ بـ«المجلس الدائري» للدلاي - لاما، المؤلف من الكبراء الاثني عشر المعروفين باسم "نامشان" (Namshans) أو "نوماخان" (Nomekhans)؛ ونجدها كذلك حتى في بعض التراثيات الغربية لاسيما تلك التي تتعلق بتنظيم «فرسان المائدة المستديرة». ونضيف أيضا بأن الاثني عشر عضوا المؤلفين للدائرة الداخلية لل" أقارتتها" لا يمثلون من وجهة النظر الكونية البروج الاثني عشر فحسب، وإنما أيضا كذلك (بل ربما نميل إلى قول «بالأحرى» رغم أنّ المعنيَيْن لا يتنافيان) يمثلون الاثني عشر "أديتيا"

(Adityas) أي أشكال الشمس المرتبطة بنفس تلك البروج (12)؛ وبطبيعة الحال، حيث إن "مانو فايفاسواتا" يسمّى «ابن الشمس» فإن «مليك العالم» له من بين شعاراته شعار الشمس (13)(ل).

والخلاصة الأولى التي تبرز من كل هذا، هو أنه يوجد حقا روابط وثيقة بالتأكيد، بين الأوصاف التي ترجع في جميع البلدان إلى مراكز روحية خفاؤها يزيد أو ينقص، أو يصعب الوصول إليها على أيّ حال. والتفسير الوحيد المقبول الذي يمكن إعطاؤه إلى هذا التوافق، هو أنه إذا كانت تلك الأوصاف تعود إلى مراكز مختلفة كما يبدو واضحا في بعض الحالات، فما هي إذا صحّ التعبير إلا انبثاقات للمركز الفريد الأعلى، كما أن جميع الملل المتميزة الخاصة ما هي في الجملة إلا تكييفات للملة الأصلية الأولى العظمى.

تعقيبات المؤلف على الباب الرابع

1- السيد أوسندوسكي يكتب هذه الأسماء بالياء بعد الهاء بدلا من الألف، أي: Brahytma وMahytma و Mahynga.

2- رأينا سابقا أنّ "مططرون" هو «ملاك الوجه».

3- حسب ملّة الشرق الأقصى [أي الصين] «الموقع الأوسط الثابت» هو النقطة التي يتجلى فيها «فعل السماء».

4- الذين يندهشون من مثل هذه العبارة، يمكن أن نسألهم إن لم يفكروا أبدا في دلالة "التريرانيوم" (triregnum)، أي التاج المثلث للبابا، الذي هو، مع المفاتيح، أحد الشارات الأساسية للبابوية.

5- قيل عن موسى حينئذ أنه كان يستر وجهه ببرقع؛ ليتمكن من مكالمة شعبه الذي لم يكن قادرا على تحمل إشعاعه (سفر الخروج XXIV، 29 – 35)؛ وبالمعنى الرمزي، يدل هذا على ضرورة تكييف للحقيقة على المستوى الظاهري بالنسبة للعموم. وفي هذا الصدد نذكر بالدلالة المزدوجة للكلمة الفرنسية "révéler" التي يمكن أن تعني «إزاحة الحجاب»، لكنها قد تعني أيضا «إسدال الحجاب»؛ وكذلك الكلمة، فإنها تظهر، وفي نفس الوقت تحجب، الفكرة التي تعبِّر عنها (د).

6- بكيفية تثير الدهشة إلى حد ما، يوجد هذا الاسم حتى في الرمزية المسيحية القديمة، فمن بين العلامات التي كانت تستعمل لتمثيل المسيح، تصادف علامة اعتبرت في عهد لاحق كالاختزال لكلمة "آف ماريا" ((Ave Maria أي: تحية لمريم))، لكنها في البدء كانت متكافئة الدلالة مع جمع حرفي الطرفين الأول والأخير للأبجدية الإغريقية، أي "ألفا" (alpha) و "أوميڤا" (ômega) ليُعلم بأن الكلمة الإلهية هي المبدأ والمنتهى لجميع الأشياء؛ بل هي في الحقيقة أتمّ من ذلك؛ لأنها تعني المبتدأ والوسط والمنتهى. وهذه العلامة تتفكك بالفعل إلى الحروف AVM، أي الحروف اللاتينية الثلاثة، المناسبة بالضبط للعناصر الثلاثة المؤلفة للكلمة ذات المقطع الواحد "أوم" (الحرف

المصوّت: o، بالسنسكريتية يتألف من اتحاد الحرف: a مع الحرف:u). والمقاربة بين هذه العلامة "Aum" والصليب المعقوف (سواستيكا)، باعتبار كل منهما ذات دلالة بارزة في وجهة النظر التي نقف عندها. من جانب آخر، ينبغي كذلك ملاحظة أنّ شكل هذه العلامة يُظهِر مثلثين موضوعين على تعاكس، مما يجعل منه، باعتبار ما، مكافئا لـ«خاتم سليمان»: فباعتباره على الشكل التالي ✡ حيث الخط الأفقي الأوسط يوضح الدلالة العامة للرمز، بإبراز مستوى الانعكاس أو «سطح المياه»، نرى بأن للشكلين نفس عدد الخطوط، ولا يختلفان في الجملة إلا في وضعية اثنين منهما، فهي في إحداهما أفقية وفي الأخرى تصبح عمودية.

7- للتوسع أكثر في هذا المفهوم «للعوالم الثلاث» نحن مجبرون على الإحالة إلى كتبنا السابقة: "باطنية دانتيه" و"الإنسان وصيرورته حسب الفيدنتا". وفي الأول منهما، ألححنا بالخصوص على التناسب القائم بين هذه العوالم، التي هي بالتحديد مراتب للوجود ومدارج للتربية الروحانية العرفانية. وفي الثاني منهما، أعطينا بالأخصّ التفسير التام، من وجهة النظر الميتافيزيقية الخالصة، لـ"ماندوكيا أوبانيشاد" Mândûkya Upanishad ((أحد الكتب الهندوسية المقدسة))، الذي يتضمن عرضا شاملا للرمزية التي هي موضوعنا هنا؛ وما نحن بصدد النظر إليه الآن هو تطبيق خاص لها.

8- في مستوى المبادئ الكلية، وظيفة "براهاماتما" تعود إلى "إشوارا" (Ishwara)، ووظيفة الـ"ماهاتما" تعود إلى "هيارانياغاربها" (Hiranygarbha)، ووظيفة الـ"ماهانقا" تعود إلى "فيراج" (Virâj)؛ وصلاحيات وظيفة كل واحد منهم يمكن استنتاجها بسهولة من هذا التناسب.

9- "ماندوكيا أوبانيشاد" شروتي6.

10- سانت-إيف يقول فعلا بأنّ «الملوك الأحبار» الثلاثة قدموا من "الأقارتتها" لكن بدون أن يعطي أي توضيح في هذا الصدد. والأسماء المنسوبة إليهم عادة هي أسماء وهمية بلا ريب، ما عدا اسم "ملكي أور" (Melki-Or)، الذي يعني بالعبرية «ملك النور» ولهذا دلالة متميزة.

11- "الأمريتا" عند الهندوس، أو "الأمبروازي" عند الإغريق (وهما كلمتان متطابقتان من حيث اشتقاقهما)، أي شراب أو طعام الخلود، كان أيضا بالخصوص ممثلا بالـ"سوما" (Soma) الفيدية ((نسبة إلى الكتاب المقدس الفيد ا)) أو الـ"هاوما" (Haoma) المزدكية. والأشجار التي تفرز الأصماغ أو الراتنجات التي لا تفسد، تلعب دورا هاما في الرمزية؛ وقد اعتُبرت أحيانا كشعارات للمسيح.

12- يقال إن الاثني عشر أديتيا (الكلمة مشتقة من "أديتي" أي: «الذي لا ينقسم») كانوا في البداية سبعا قبل أن يصبحوا اثني عشر، وأنّ رئيسهم حينذاك كان "فارونا" (Veruna). والاثنا عشر "أديتيا" هم: "ذاتري" (Dhâtri)، ميترا (Mitra)، أريامان (Aryaman)، "رودرا" (Rudra)، "فارونا"، "سوريا" (Sûrya)، "بهاغا" (Bhaga)، "فيفاسوات" (Vivaswat)، "بوشان" (Pûshan)، "سافيتري" (Savitri)، تواشتري "(Twashtri)، فيشنو" (Vishnu). فهذه أسماء لتجليات جوهر واحد لا يتجزأ؛ ويقال كذلك إن هذه الشموس الاثنا عشر سوف تظهر معا في آن واحد في نهاية الدورة، مندرجة حينئذ في الوحدة الجوهرية الذاتية الأصلية الأولى لطبيعتهم المشتركة. وعند الإغريق، الأرباب العظام الاثنا عشر للأولمب هم كذلك على تناسب مع البروج الاثني عشر.

13- الرمز الذي نشير إليه هو بالضبط الرمز الذي تعزوه الشعيرة الكاثوليكية للمسيح عندما تنعته بـ"سول جوسيتيسيا" (Sol Justitiœ أي شمس العدل)؛ والكلمة الإلهية هي فعلا «الشمس الروحانية»، أي «مركز العالم» الحقيقي؛ وزيادة على هذا، فإنّ عبارة "سول جوستيسيا" هذه ترجع مباشرة إلى نعوت "ملكي - تصادق" (Melki-Tsedeq). وينبغي أيضا ملاحظة أنّ الأسد، وهو الحيوان الشمسي، كان في العهد القديم وفي العصر الوسيط، شعارا للعدالة وللقوة في نفس الوقت؛ وبرج الأسد، هو البيت المخصوص بالشمس في فلك البروج. – والشمس باثني عشر شعاعا يمكن اعتبارها كرمز للاثني عشر "أديتيا"؛ ومن وجهة نظر أخرى، فإذا كانت الشمس تمثل المسيح، فإن أشعتها الاثني عشرة تمثل الحواريين الاثني عشر المرسلين بالتبشير (كلمة "أبوستولوس apostolos، المشتقة منها كلمة "حواري" Apôtre، تعني «مرسل»، والأشعة هي كذلك

«مرسلة» من قِبَلِ الشمس). ويمكن أن نرى في عدد الاثني عشر حواري دلالة، من بين دلالات أخرى كثيرة، على التوافق الكامل بين المسيحية والملة الأصلية الأولى.

1- هذا التقسيم الثلاثي مماثل لما نجده في التصوف الإسلامي من تقسيم في أعلى درجات دوائر الولاية التي يسميها الشيخ ابن العربي في الباب 270 من الفتوحات بمنزل القطب والإمامين، كما خصّص لها رسالة بنفس هذا العنوان الذي يشير به إلى المعوذتين، أي الناس والفلق، لاشتمالهما على الأسماء الإلهية الممدة لأولئك الثلاثة أي: (عبد الله) للقطب و(عبد ربّه) و(عبد الملك) للإمامين وزيري القطب. والملاحظ أن مجموع أعداد هذه الأسماء الثلاثة (الله+ربّ+ملك=66+204+90=360) أي عدد درجات الدائرة الوجودية أو الفلكية الجامعة، وهو عدد آخر حرف في القرآن من سورة "الناس" أي (سين=300+10+50=360) بحساب الجمل المغربي، وقد سبق ذكر هذا الحرف عند الكلام على المقام الشمسي القطبي المخصوص بقلب القرآن أي سورة (يس)؛ كما أن عدد كلمة (ناس) هو 111 الذي هو عدد كلمة "قطب". وقد سبق ذكر طرف من كلام الشيخ ابن العربي عن القطب ونلخص هنا كلامه عن الإمامين:

[اعلم أنّ ممّن تحقق بهذا المنزل من الأنبياء أربعة محمد وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ومن الأولياء اثنان الحسن والحسين على جميعهم السلام، وإن كان لمن عداهم منه شرب معلوم على قدر مرتبته؛ وكان الحسن والحسين رضي الله عنهما أمكن الناس في هذا المقام من غيرهما ممّن اتصف به. وكان أبو بكر عبد الملك، وعمر عبد ربّه، رضي الله عنهما، في زمان رسول الله ﷺ إلى أن مات، فسمّي أبو بكر عبد الله، وسمّي عمر عبد الملك، وسمّي الإمام الذي ورث مقام عمر عبد ربّه، ولا يزال الأمر على ذلك إلى يوم القيامة. وأما عبد ربه فسورته الفلق ويدعى أحيانا بالبر الرحيم، له علم السماء وليس عنده من علم الأرض خبر، للملأ الأعلى به تعشق وليس عندهم سرّ إلا منه، يربي الأفراد ويغذيهم بالمعارف الإلهية ويقسمها على أهلها بميزان محقق، له الإلقاء بما يناسب العلو، يسبّح الليل والنهار لا يفتر، وله سرّ العبودية، وله سرّ

السيادة على الثقلين والحكم والتصرف فيهما بما تعطيه المصلحة لهم، عظيم الشفقة على الخلق والرحمة بهم والعفو عنهم، وبيده مصالح العالم، وله اطّلاع دائم على الجنان، له سلطان على الشياطين في طردهم عن أهل الخير والصلاح... وأما الإمام عبد الملك فحظه اللوح المحفوظ والقلم الأعلى، له الشدّة والقهر والتصرف بجميع الأسماء الإلهية التي تستدعي الكون، وله تصرّف بأسماء التنزيه بخلاف الإمام الذي تقدّم ذكره؛ ويُلجأ إليه في الشدائد فيفرجها الله على يده، وله الكرم والإنعام على الخلق من حيث لا يشعرون، وولاة أمور الخلق راجعون إلى هذا الإمام فيولي ويعزل، وله سلطان قوي على الأرواح النارية من الشياطين، وله في المحاربات والمكائد أمر عجيب،وقد تظهر صولته في عالم الكون بالسيف، وقد تظهر بالهمّة على حسب ما سبق له في الأزل، وعنه تظهر أسرار المعاملات على هذه الهياكل الترابية، وله في العدد أسرار إلهية لا يعرفها غيره، وله علم الصنعة المعشوقة وخواص الأحجار وأسماء الانفعالات، ويعبّر عن سرّ الرموزات وفك الطلسمات وأصول الأشياء الظاهرة والباطنة، وله سرّ الثبات وسرّ التمليك وسرّ السيادة وسرّ الصلاح وسرّ التغذية، وله تمد الحقيقة الإبراهيمية والميكائيلية والمحمدية والإسرافيلية والجبريلية والآدمية والرضوانية والمالكية، فإنّ مدار بقاء العالم على هذه الثمانية... وفي هذا المقام عاش الشيخ أبو مدين (توفي عام 589 هـ) ببجاية، إلى أن قرب موته بساعة أو ساعتين، خلعت عليه خلعة القطبانية ونزعت عنه خلعة هذه الإمامة وصار اسمه عبد الإله، وانتقلت خلعته إلى رجل من بغداد. وكان الشيخ أبو مدين قد تطاول له بها رجل من بلاد خراسان؛ مات الشيخ قطبا كبيرا، وكان له من القرآن سورة تبارك الذي بيده الملك].

2- هذا النعت يذكر بما قاله الشيخ ابن العربي في الباب 366 من الفتوحات عن أحد العلوم التسعة التي لا بدّ لوزراء الإمام المهدي الظاهر في آخر الزمان من القيام بها، فمن بينها: الوقوف على علم الغيب الذي يحتاج إليه في الكون في مدّته خاصّة. وفي الباب 287 قال عن الشيخ عبد القادر الجيلاني (توفي سنة 561 هـ) الذي كان قطب

زمانه: [حكى لنا عن جماعة عن شيخنا عبد القادر رحمه الله أنه قال: إنّ السّنة تأتيني إذا دخلت فتخبرني بما يكون فيها وما يحدث، وكذلك الشهر والجمعة واليوم؛ وكذلك كان الشيخ أبو يعزى أبو النور ببلاد المغرب، كان إذا دخل رمضان جاء يعلمه بما قبل فيه من العمل وممن قبل].

3- كلامه على مواجهة «مليك العالم» للحضرتين الإلهية والكونية مناسب لما ذكره الشيخ ابن العربي في بداية رسالته حول منزل القطب والإمامين، وخلاصته: [أن القطب وجه بلا قفا؛ وإمام اليسار ذو وجهين وجه مركب وهو ما يقابل به العالم، ووجه بسيط وهو ما يقابل به القطب؛ وجعل إمام اليمين ذا وجه واحد وقفا، ثم غيّبه عن الشعور بقفاه...القطب مركز الدائرة ومحيطها ومرآة الحق، عليه مدار العالم، له رقائق ممتدّة إلى جميع قلوب الخلائق، له حضرة الإيجاد الصرف فهو الخليفة، ومقامه تنفيذ الأمر وتصريف الحكم، لا يتقيّد بحالة تخصيص، فله الستر العام في الوجود، وبيده خزائن الجود، والحق له متجل على الدوام؛ وعندما يلي مرتبة القطبية يبايعه كل ما في الكون ما عدا الإنس والجان إلا القليل منهم. وقد صنفنا في كيفية انعقاد هذه البيعة كتابا كبيرا سميناه: "كتاب مبايعة القطب في حضرة القرب". والأقطاب متفاضلون في هذه المرتبة أي في المعارف، غير متفاضلين في نفس القطبية وتدبير الوجود؛ فأكملهم الوارث المحمدي، وكل من نزل عنه فعلى قدر من ورث، فمنهم عيسويون وموسويون وإبراهيميون ويوسفيون ونوحيون، والكل في مشكاة محمد عليه السلام الأمر الجامع للكل].

4- في الملة الإسلامية هذه العوالم الثلاثة تسمّى الملك والملكوت والجبروت؛ أو: عالم الأرواح، وعالم الأجسام، والعالم البرزخي الأوسط.

5- هذا الحال الموسوي، أي جعل برقع يستر أنوار الوجه، حاصل للعديد من الأولياء ورثة المقام الموسوي، ومنهم أبو يعزى أبو النور شيخ أبي مدين، وقصته معه في هذا الموضوع مشهورة، ذكرها الشيخ ابن العربي في الباب 438 من الفتوحات وقال عنه: [وكان شيخنا أبو يعزى بالمغرب موسوي الورث، فأعطاه الله هذه الكرامة، فكان ما

يرى أحد وجهه إلا عمي، فيمسح الرائي وجهه بثوب مما هو عليه فيرد الله عليه بصره]. ومنهم القطب الشهير دفين طنطا بمصر أحمد البدوي (توفي عام 657 هـ) الملقب بالملثم.

6- ولهذا يوصف الرسول بالنور، كما في الآية 15 من سورة المائدة: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾، وفي صلاته على النبي ﷺ يقول الشيخ أحمد التجاني (توفي سنة 1230 هـ): [اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية والياقوتة المتحققة الحائطة بمركز الفهوم والمعاني، ونور الأكوان المتكونة الآدمي صاحب الحق الرباني، البرق الأسطع بمزون الأرباح المالئة لكل متعرض من البحور والأواني، ونورك اللامع الذي ملأت به كونك الحائط بأمكنة المكان].

7- هذا الكلام قريب في معناه مما ذكره الشيخ ابن العربي في الباب 60 من الفتوحات خلال بيانه للعلاقة بين مملكة التصرف الباطني القائمة بالصالحين، ومملكة الحكم الظاهري، فيقول: [إن الله جعل بين المملكتين مناسبات ورقائق تمتدّ من ولاة الباطن إلى ولاة الظاهر بالعدل، مطهرة من الشوائب مقدّسة من العيوب فتقبل أرواح الولاة الأرضيين من الولاة السماويين بحسب استعداداتهم. فمن كان استعداده قويا حسنا قَبِلَ ذلك الأمر على صورته طاهرا مطهرا، فكان والي عدل وإمام فضل. ومن كان استعداده رديئا قَبِلَ ذلك الأمر الطاهر وردّه إلى شكله من الرداءة والقبح، فكان والي جور ونائب ظلم وبخل فلا يلومنّ إلا نفسه].

8- نظير هذا المعنى في العرفان الإسلامي هو أن بسملة فاتحة الكتاب أم القرآن العظيم هي التي تُفتتح بها العبادات وكل الأعمال، وهي للعارف بمثابة الأمر الإلهي: كُنْ، فيكون التصرف بها في أيّ أمر يراد بإذن الله تعالى.

9- في العرفان الإسلامي الاسم الأعظم الكامل من حيث دلالة الاسم على المسمى هو الإنسان الكامل مليك العالم، أو الروح المحمدي الفاتح الخاتم، وهو كلمة الله العليا، ولا تحصى صلوات العارفين على النبي ﷺ التي فيها بيان لهذه المعاني كقول الشيخ ابن

العربي: [اللهم أفض صلة صلواتك وسلامة تسليماتك على أوّل التعينات المفاضة من العماء الرباني، وآخر التنزلات المضافة إلى النوع الإنساني، كلمة الاسم الأعظم، وفاتحة الكنز المطلسم، القلم النوراني الجاري بمداد الحروف العاليات، والنَفَس الرحماني الساري بمواد الكلمات التامات، مطلع شمس الذات في سماء الأسماء والصفات، نقطة البسملة الجامعة لما يكون ولما كان، ونقطة الأمر الجوالة بدوائر الأكوان، جوهرة الحوادث الإمكانية التي لا تخلو عن الحركة والسكون، ومادة الكلمة الفهوانية الطالعة من كِنِّ كُن إلى شهادة فيكون]..– ومن لطيف الاتفاق أنّ عدد كلمة "أوم" بحساب الجمل هو 47 الذي هو عدد اسمه تعالى: "والي"؛ وباعتبار المدّ في الواو يكون العدد 53 الذي هو عدد الاسم: "أحمد"؛ والحروف الثلاثة لهذه الكلمة أولها الألف وآخرها الواو والميم، أي مفتاح وخاتمة الاسم الأعظم "الله الحي القيوم".

10- في صلاته السابقة يصف الشيخ محي الدين حضرته ﷺ بقوله: «محصي عوالم الحضرات الإلهية الخمس في وجوده، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين، وراحم سائلي استعداداتها بنَداه وجوده، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» ثم يصفه بما سيذكره المؤلف من كمال علمه وتصريفه بالتصريف الإلهي فيقول عنه: «فلا تتحرك ذرة في الكون إلا بعلمه ولا تسكن إلا بحكمه، لأنه مظهر الحق ومعدن الصدق».

11- لهذا التمثيل الهندسي نظيره في الرمزية الحرفية الصوفية حيث للوظائف الثلاث المذكورة حروف المدّ الثلاثة: فللقطب حرف الألف، وللوزير الروحاني العلويّ الواو، وللوزير الملكي الشهادي حرف الياء.

12- قد سبق في هذه التعقيبات ذكر ما قاله الشيخ ابن العربي في الباب 73 من الفتوحات حول المركز الأعلى الدائم لدوائر الولاية، وهي الدائرة القلبية الشمسية المستمدّة من الروح المحمدي الباقي والمرتكزة على الأنبياء الأحياء بأجسادهم وهم، القطب إدريس والإمامان إلياس وعيسى والوتد الخضر عليهم السلام؛ فيبدو من كلام المؤلف الشيخ عبد الواحد يحي، أنّ «الملوك الأحبار» الثلاثة الذين جاؤوا لمباركة الوليد عيسى عليه السلام

ليسوا سوى أولئك الثلاثة الآخرين، أي إدريس وإلياس والخضر، قدموا للاحتفال بركنهم الرابع المتمم لدائرتهم المركزية في عالم الظهور. والله أعلم.

13- عدد اثني عشر شخصا يظهر بالخصوص عند بداية تأسيس كل ملة: فأبناء النبي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام هم اثنا عشر على عدد الأسباط أبناء يعقوب عليهم السلام، وعلى عدد الحواريين. وكذلك هو عدد النقباء؛ أي أول من بايع النبي سيدنا محمد ﷺ من الأنصار، وهو العدد الأصلي لأبواب الحرم المكي حول الكعبة المشرفة، لكل جهة ثلاثة أبواب؛ والأئمة من آل البيت الأطهار المشهورون هم أيضا اثنا عشر عليهم السلام، وحضرتهم الأصلية الجامعة السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، ولهم علاقة أصيلة بالاثني عشر قطبا الذين عليهم مدار العالم بأسره، وقد فصّل الشيخ ابن العربي بعض خصائصهم في الباب 463 من الفتوحات، وبيّن أن لكل واحد منهم سورة قرآنية يستمدّ منها وبرجا يناسب مقامه؛ كما أن لأولئك الأئمة صلة وثيقة بالاثني عشر رجلا الذين أنشأهم الله تعالى من الصلاة الليلية لرسول الله ﷺ، وهم مفاتيح كنوز العرفان في الوجود، ومددهم من الأسماء الإلهية الاثني عشر التي عليها مدار فاتحة الكتاب حسبما فصّله الشيخ ابن العربي خلال إشاراته للآية 12 من سورة المائدة التي فيها ذكر الأسباط بني إسرائيل وقيامهم بالصلاة، وذلك في الباب 379 من الفتوحات. ولأولئك الأئمة صلة أيضا بالاثني عشر نبيا الوارد ذكرهم في الحديث النبوي بأنهم تمنوا أن يكونوا من أمته ﷺ، حسبما هو مذكور في جواب الشيخ ابن العربي عن السؤال 144 من أسئلة الحكيم الترمذي في الباب 73 من الفتوحات، وذكر فيه تناسبهم مع البروج؛ كما ذكر أيضا في هذا الباب أن في أعلى درجات دوائر الأولياء الثابت عددهم في كل زمان دائرة النقباء الاثني عشر، لكل واحد منهم برج يخصّه؛ وقد خصّص رسالة خاصة عنوانها: كتاب النقباء؛ وذكر كذلك أن في طبقات عالم الأنفاس، أي الأولياء الذين هم على قدم داود عليه السلام، طبقة تتألف من اثني عشر نَفَسا اسمهم البُدَلاء.

رمزية الـ"ڤرال" (الكأس المقدسة)
LE SYMBOLE DU GRAAL

لقد أشرنا منذ قليل إلى «فرسان الطاولة المستديرة»؛ وليس من الخروج عن سياق موضوعنا التنبيه هنا على ما يعنيه «البحث عن الكأس المقدسة» الذي هو وظيفتهم الأساسية حسبما ترويه السرديات ذات الأصل السلتي. وكذلك في جميع التراثيات، يشار إلى أمر أو شيء قد فُقد أو خُبِّئ، بدءا من عهد معيّن: إنه مثلا، الـ"سوما" (Soma) عند الهندوس، أو الـ"هاوما" (Haoma) عند الفرس، أي «شراب الخلود» الذي له بالتحديد علاقة مباشرة تماما مع الـ"ڤرال" حيث إنها حسبما قيل، هي الكأس المقدسة التي تحتوي على دم المسيح ((بالنسبة للمسيحيين، والحق ما قاله الله تعالى في القرآن الكريم في الآية 157 من سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾)) الذي هو أيضا كذلك «شراب الخلود». وفي تراثيات أخرى، تأخذ هذه الرمزية تعبيرا مختلفا: فالأمر المفقود عند اليهود هو النطق باسم الله الأعظم (1)؛ لكن الفكرة الأساسية تبقى دوما هي نفسها، وسنرى لاحقا دلالتها الصحيحة بالضبط.

وحسبما قيل فإن الكأس المقدسة، هي الكوب الذي استعمل خلال العَشاء السرّي ((أي العشاء الأخير الذي تناوله المسيح مع حوارييه قبل وفاته مرفوعا إلى ربه))؛ ثم بعد ذلك حفظ فيه يوسف الرامي (ا) الدم والماء المتدفقين من الجرح الذي أحدثه رمح القائد الروماني "لونجان" (Longin) (2) في جنب ((المشبّه)) بالمسيح. وحسب السردية، فإن هذا الكوب نقله يوسف الرامي نفسه مع ((صاحبه الحواري)) "نيقوديم" إلى بريطانيا العظمى(3)؛ وفي هذا الكلام ينبغي أن ترى دلالة على صلة قائمة بين التراث السلتي والمسيحية. والكوب بالفعل يلعب دورا بالغ الأهمية في أغلب التراثيات العتيقة، وكان الأمر بلا ريب على هذا

المنوال عند السّلت؛ والملاحظ أنه كثيرا ما يقرن الكوب بالرمح، بحيث يصبح الرمزان حينئذ، إذا صحّ القول، متكاملان مع بعضهما؛ لكن هذا يبعدنا عن موضوعنا(4).

والذي يبيّن ربّما بكيفية أوضح الدلالة الجوهرية للكأس المقدسة، هو ما يقال عن أصلها، وهو أن هذا الكوب نحتته الملائكة في زمردة سقطت من جبين إبليس عندما هوى ((أي لما لُعن وطُرد من حضرة القرب الإلهي عندما أبى السجود لآدم ﷺ)) (5). وهذه الزمردة تذكر بكيفية بارزة بـ"الأورنا" (L'urnâ) أي درّة الجبين، التي غالبا ما تحل في الرمزية الهندوسية (ومنها انتقلت إلى البوذية) محل العين الثالثة لـ"شيفا" (Shiva) (ب)، ممثّلة ما يمكن تسميته بـ«الشعور بالأزلية» (le sens de l'éternité) كما شرحناه في موقع آخر(6). وزيادة على هذا، يقال إنّ الكوب، أو الكأس المقدسّة، استُودعت بعد ذلك عند آدم ((ﷺ)) في الجنة الأرضية، لكنه بدوره فقدها لأنه لم يتمكن من أخذها معه عندما أخرج من الجنة؛ ودلالة هذا الكلام تصبح في غاية الجلاء عند اعتبار المعنى الذي كنا بصدد بيانه. وبالفعل، فالإنسان المبعد عن مركزه الأصلي يجد نفسه محصورا في الكرة الزمانية، ويمسي عاجزا عن الاتصال بالنقطة الفريدة التي تُشهد فيها الأشياء كلها في المظهر الأزلي. وبعبارة أخرى، إنّ التحقق بـ«الشعور بالأزلية» مرتبط بما تسميه جميع التراثيات، كما ذكرناه سابقا، بـ«الوضع الأصلي الفطري»؛ والعودة إلى هذه الفطرة الأصلية هي التي تشكل المرحلة الأولى للتربية الروحية الحقيقية (د)، لأنها الشرط الأول الذي يتوقف عليه الفوز الفعلي بالمقامات «فوق – البشرية» (7) ((أي المقامات العليا الخاصة بالواصلين من أهل السلوك دون غيرهم من عامة البشر)). فالجنة الأرضية تمثل «مركز العالم» تحديدا؛ وما سنذكره لاحقا حول المعنى الأصلي لكلمة "باراديس" ((Paradis القريبة من الكلمة العربية "فردوس")) يمكن أن يجعله مفهوما بكيفية أوضح.

ثم تتابع السردية روايتها في سياقها التالي الذي يمكن أن يبدو أكثر إلغازا، فتقول إن شيث ((ابن آدم ﷺ)) حظي بالدخول إلى الجنة الأرضية، وهكذا استطاع أن يسترجع الكأس العزيزة النفيسة؛ والحال أن اسم شيث يعبّر عن معاني التأسيس والثبات، ومن ثمّ فهو يدّل، من وجه ما، على بعث وإحياء الحالة الأصلية للفطرة الإنسانية التي قوّضها هبوط

الإنسان (8) (ه). ومن ثمّ ينبغي أن نفهم بأنّ شيث، والذين حازوا الكأس المقدسة من بعده، قد استطاعوا بذلك إقامة مركز روحي، المقصود منه أن يحلّ محلّ الجنّة المفقودة، فكان كالمثال لها (ز)؛ ولهذا فإنّ حيازة الكأس تمثل الحفظ الكامل للملة الأصلية في مثل هذا المركز الروحي. والسردية لم تذكر أين تمّ الاحتفاظ بالكأس، ولا من الذي حفظها منذ ذلك العهد إلى زمن المسيح ((عليه السلام))؛ لكن المصدر السلتي المعترف به للسردية يوحي على الأرجح أنه كان للدّرويد ((أي أئمة الدين في الشعوب السلتية التي كانت تسكن أوروبا خلال العهود القديمة)) مساهمة في ذلك، وينبغي أن يعدّوا من بين المحافظين الشرعيين على الملّة الأصلية الأولى.

وفقدان الكأس المقدسة، أو أحد الرموز المكافئة لها، هو في الجملة فقدان لتراث الملّة مع كل ما يتضمنه؛ والقول الحق إنّ التراث الروحي للملّة أمسى بالأحرى مستورا لا مفقودا، أو على أيّ حال لم يمسِ مفقودا إلا بالنسبة لبعض المراكز الثانوية، عندما تنقطع صلتها المباشرة مع المركز الأعلى (ح). وأما هذا الأخير، فإنه يصون أمانة الملّة الإلهية على الدوام، ولا يتأثر بالتحولات المستجدة في العالم الخارجي، ولهذا، فحسب العديد من آباء الكنيسة لا سيما القديس أوغسطين، لم يَطل الطوفان الجنة الأرضية التي هي «محل إقامة أخنوخ (Hénoch) وأرض القديسين (9)» (ط) وهي الأرض التي قمّتها «تلامس فلك القمر»، أي أنها تقع وراء ميدان الاستحالات (المطابق لـ«عالم ما تحت القمر» أي الأرض والعالم السفلي)، وفي نقطة الاتصال بين الأرض والسماوات(10). لكن مثلما أن الجنة الأرضية مستعصية على البلوغ إليها، فكذلك المركز الأعلى الذي هو في الصميم نفس هذه الجنة، يمكن خلال دورة زمنية معيّنة، أن لا يظهر خارجيا، وحينها يمكن القول بأنّ التراث الروحي للملة قد فُقد بالنسبة لمجموع البشرية، لأنه لم يبق مصانا إلا في بعض المراكز المغلقة بإحكام، وجمهور البشر أمسوا لا يساهمون فيه بكيفية واعية وفعالة، بعكس ما كان عليه الحال في الوضع الأصلي السوي (11)؛ وهذا هو بالتحديد وضع عهدنا الراهن (ي) الذي تعود بدايته إلى أبعد بكثير من ما هو في متناول التاريخ المألوف و«الظاهري» ((أي المألوف عند عامة المؤرخين)). إذن ففقدان التراث الروحي يمكن، حسب الحالات، أن يُفهم من

حيث هذا المعنى العام، أو أن يُعتبر كتعتيم يحصل للمركز الروحي الذي كان يُسَيِّر في خفاء يزيد أو ينقص مجاري مصائر شعب خاص أو حضارة معيّنة؛ ومن ثَمَّ فلا بدّ علينا، كلما واجهتنا رمزية تتعلق بهذا الشأن، أن نفحص إذا كان ينبغي تفسيرها في هذا المنحى أو ذلك الآخر.

وحسب ما كنا بصدد ذكره، فإن الكأس المقدسة تمثل في نفس الوقت أمرين متلازمين في رباط وثيق، وهو أنّ الحائز على «التراث الروحي للملّة الأصلية» حيازة كاملة، أي الواصل إلى درجة المعرفة الفعلية التي تستلزمها تلك الحيازة، هو بحكم مقامه هذا، قد تحقق بالرجوع إلى كمال «الوضع الفطري الأصلي الأول». فإلى هذين الأمرين، أي «الوضع الأصلي الأول» و«التراث الروحي للملّة الأولى» يعود المعنى المزدوج الملازم لكلمة «الكأس المقدسة» (ڤرال) نفسها؛ ذلك لأنه بمقتضى واحد من هذه المتشابهات اللفظية التي غالبا ما تلعب في الرمزية دورا لا يستهان به، ولها أسباب أعمق بكثير ممّا قد يُتخيل في أوّل وهلة، «الكأس المقدسة» هي في نفس الوقت كوب (ڤرازال" grasal) وكتاب (ڤرادال gradal أو ڤرادوال"gradual)؛ فهذا المظهر الأخير يدل بوضوح على تراث الملة، بينما المظهر الآخر يتعلق بالأخصّ مباشرة بالتحقق بحال ومقام الوضع الفطري الأصلي الأول نفسه(12).

وليس علينا أن ندخل هنا في التفاصيل الثانوية لسردية الكأس المقدسة، رغم أنّ لجميعها أيضا قيمة رمزية، ولا أن نتتبّع قصّة «فرسان الطاولة المستديرة» ومآثرهم؛ وإنّما نذكر فقط بأنّ «الطاولة المستديرة» التي صنعها الملك "أرتور" (13) وفق مخططات "مرلان" كانت معدّة لاستقبال الكأس المقدسة، غير أنّ أحد الفرسان تمكن من الاستحواذ عليها والإتيان بها من بريطانيا العظمى إلى الأرمونيك ((أي الشمال الغربي من فرنسا المسمّى اليوم ببريطانيا)).

وعلى الأرجح فإنّ هذه المائدة هي كذلك رمز قديم جدا، وهو أحد الرموز التي اقترنت دائما مع فكرة المراكز الروحية التي تصون وتحفظ التراث الروحي للملّة؛ والشكل الدائري للمائدة مرتبط بوضوح بدورة فلك البروج لوجود اثني عشر شخصا حولها (ن) (14)؛ وهذه خصوصية يتكرر وجودها عند تأسيس جميع المراكز المذكورة، كما قلناه سابقا.

وهناك أيضا رمز يرتبط بمظهر آخر لسردية الكأس المقدسة، وهو جدير باهتمام خاص: إنّه رمز "مونت سالفات" (Montsalvat)، أي حرفيا: «جبل الخلاص»، أو «جبل النجاة» أو «جبل السعادة الأبدية») أو القمّة الواقعة «على الضفاف النائية التي لا يقربها أيّ بشر» وتمثل كأنها قائمة في وسط البحر، في منطقة يتعذّر بلوغها، ومن ورائها تطلع الشمس. وهي في نفس الوقت «الجزيرة المقدّسة» و«الجبل القطبي»، وهما رمزان متكافئان سنعود إليهما لاحقا في هذا البحث؛ إنها «أرض الخلود» المتطابقة طبعا مع الجنّة الأرضية(15).

ولكي نرجع إلى الكأس المقدسة نفسها، من اليسير التنبّه إلى دلالتها الأولى التي هي في الصميم نفس الدلالة العامة للكوب المقدس أينما وجد في أيّ مكان، لا سيّما في الشرق، حيث يحتوي كوب القربان في الأصل، كما نبّهنا عليه آنفا، على "السوما" الفيدية، أو "الهاوما" المزدكية، أي «شراب الخلود» الذي يهب أو يسترجع «الشعور بالأزلية»، لمن يأخذونه بالمؤهلات اللازمة. وبدون الخروج عن موضوعنا، لا يمكننا التوسع أكثر حول رمزية الكوب وما يحتوي عليه، ولبسطها كما ينبغي، لا بدّ من تخصيص بحث مستقلّ لها؛ لكن الملاحظة التي كنا بصدد ذكرها ستقودنا إلى اعتبارات أخرى ذات أهمّية عظمى بالنسبة لما نقصد بيانه الآن (س).

تعقيبات المؤلف على الباب الخامس

1- نذكر أيضا في هذا الصدد بـ«الكلمة المفقودة» في الماسونية، وهي ترمز كذلك إلى أسرار التربية العرفانية الحقيقية؛ فال «بحث عن الكلمة المفقودة» ما هو إذن إلا شكل آخر للـ«بحث عن الكأس المقدسة». وهذا يبرز العلاقة التي نبّه عليها المؤرخ "هنري مارتن" (Henri Martin) بين «ماسنية الكأس المقدسة» والماسونية (ينظر كتاب "باطنية دانتيه"؛ طبعة 1957 ص 35- 36)؛ والشروح التي نطرحها هنا تمكن من فهم ما قلناه في هذا الصدد عن الارتباط الوثيق جدا بين الرمزية نفسها للكأس المقدسة و«المركز المشترك» بين جميع تنظيمات التربية العرفانية.

2- هذا الاسم "لونجان" قريب من اسم الرمح نفسه في الإغريقية أي "لوجكي" (Logké وينطق: "لونكي" Lonké)؛ واسم الرمح في اللاتينية: "لانسيا" (Lancea) له نفس الجذر.

3- هذان الشخصان ((يوسف الرامي ونيقوديم)) يمثلان هنا على التتالي السلطة الملكية والسلطة الروحية؛ ومثلهما "أرتور" (Arthur) و "مرلين" (Merlin) في تأسيس «المائدة المستديرة».

4- نقول فقط إن رمزية الرمح غالبا ما تكون في علاقة مع «محور العالم»؛ وفي هذا الصدد؛ يكون للدم الذي يقطر من الرمح نفس دلالة الطل المنبعث من «شجرة الحياة»؛ ومن المعلوم أن جميع التراثيات متفقة على التأكيد بأن المبدأ الحيوي مرتبط ارتباطا عميقا بالدم.

5- البعض يقول بأن الزمردة سقطت من تاج إبليس، لكن في هذا لبس ناجم من كون إبليس كان يُدعى، قبل سقوطه، بـ«مَلَك التّاج» (أي ملك "كاثار" Kether، و"كاثار" هو الأول من بين ال "سافيراه) أي بالعبرية "هاكاثرائيل"، وعدد هذا الاسم 666 (ج).

6- كتاب "الإنسان وصيرورته حسب الفيدنتا"، ص. 150.

7- حول هذا «الوضع الأصلي الفطري» أو «الوضع الجناني» ينظر "باطنية دانتيه" طبعة 1957، ص 46- 48 و 68 - 70؛ و"والإنسان وصيرورته حسب الفيدنتا" ص.182.

8- قيل إن شيث مكث أربعين سنة في الجنة الأرضية؛ والعدد 40 هذا له كذلك معنى «إعادة الوفاق» أو «الرجوع إلى المبدأ». والفترات المقدرة بهذا العدد تصادَف بكثرة في التراث اليهوديالمسيحي: نذكر بأيام الطوفان الأربعين، وبالأربعين سنة التي قضاها الإسرائيليون في التيه، وبالأربعين يوما التي مكثها موسى (عليه السلام) في جبل سيناء، وبالأربعين يوما التي صامها المسيح ((عليه السلام)) (وللصوم وللإمساك طبعا نفس الدلالة)؛ ولا شكّ أنه يمكن أيضا ذكر أربعينيات أخرى (و).

9- «وذهب أخنوخ بمعية الله، ولم يظهر بعد ذلك (في العالم المنظور أو الخارجي) لأن الله أخذه عنده» (سفر التكوين، v، 24). فيكون حينذاك قد انتقل إلى الجنة الأرضية؛ وهو ما يعتقده أيضا بعض علماء اللاهوت مثل "توستات" (Tostat) و"كاجتان" (Cajetan).- وحول «أرض القديسين» أو «أرض الأحياء»، ينظر ما سيقال لاحقا.

10- هذا موافق للرمزية التي استعملها "دانتيه"، حيث تتموقع الجنة الأرضية عنده في قمة جبل الأعراف، التي يتطابق مع ما يسمّى في جميع التراثيات بـ«الجبل القطبي» (ك).

11- الملّة الهندوسية تعلم أنه لم يكن في الأصل إلا طبقة واحدة من الناس، تسمّى "هامسا" (Hamsa)؛ وهذا يعني أن جميع الناس كانوا حينذاك حائزين تلقائيا بصفة عادية على الدرجة الروحية التي يطلق عليها هذا الاسم، والتي هي من وراء التمييز الواقع اليوم بين الطبقات الأربعة (ل).

12- في بعض روايات سردية الكأس المقدسة، يوجد المعنيان متحدان اتحادا وثيقا، لأن الكتاب يصبح عندئذ رقيما سطره المسيح أو أحد الملائكة على الكوب نفسه.- وقد توجد هنا مقاربات يمكن إقامتها بسهولة مع «كتاب الحياة» ومع بعض عناصر رمزية رؤيا القديس يوحنا المتعلقة بنهاية العالم (م).

13- اسم "أرتور" (Arthur) له معنى لافت جدّا للنظر، يرتبط بالرمزية «القطبية»، وربما سوف نشرحه في مناسبة أخرى.

14- عدد «فرسان المائدة المستديرة» يكون أحيانا خمسين (وقد كان هذا العدد عند العبريين، عدد "اليوبيل" ويتعلق أيضا ب «عهد روح القدس»)؛ لكن حتى في هذه الحالة، يبقى

دائما الدور الأهمّ مخصوص باثني عشر منهم. وفي هذا الصدد، نذكر كذلك بالأعيان ((أو أعضاء المجلس أو النظراء)) الاثني عشر عند الملك "شارلماني" (Charlemagne) في قصص سرديات أخرى من العصر الوسيط.

15- التماثل بين "مونتسالفات" وجبل "ميرو" (Mêru) نبّهنا عليه هندوسيون، وهو الذي أدىّ بنا إلى فحص دلالة السردية الغربية حول الكأس المقدّسة بكيفية أدّق.

((جبل "ميرو" عند الهندوس هو نظير جبل قاف في العرفان الإسلامي، ومن رموزه المحسوسة في الإطار الشرعي العام جبل عرفة حيث يتمّ الحج الأكبر)).

1- يوسف الرامي، من حواري المسيح عليه السلام، وهو الذي فصَل جثمان المصلوب المشبّه بالمسيح عن الصليب، وواراه في القبر بمساعدة الحواري الآخر: نيقوديم.

2- "شيفا" يعني المبدأ المحوِّل، وهو أحد المبادئ الثلاثة الكبرى في الهندوسية، والاثنان الآخران هما: "براهما" و"فيشنو". والعين الثالثة هي في المصطلح الإسلامي عين البصيرة أو عين القلب، ومحل نظرها الآن الدائم.

3- بحساب الجمل المغربي، يكتب هذا الاسم هكذا:
"هاكتريل" = 5+1+20+400+200+10+30=666.

4- هذه الفطرة الأصلية تقترن في الآية 30 من سورة الروم بالدّين القيّم، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. والرمز الشرعي للرجوع لهذه الفطرة يتمثّل خصوصا في الطواف خلال الحجّ حيث يرمز الحرم للحضرة الإلهية، كما ترمز الكعبة للقلب السليم، والحجر الأسود الذي نزل من الجنّة أشدّ بياضا من اللبن هو رمز تلك الفطرة الإنسانية الأولى الذي خاطبها ربّها في عالم الذرّ بما ذكره في الآية 172 من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ ... وكثير هم العارفون الذين قالوا: كأنّنا نسمع هذا الإشهاد الآن في آذاننا.

5- في كتابنا (المفاتيح الوجودية والقرآنية لفصوص الحكم لابن العربي) بيّنا خلال الكلام على فصّ شيث الثاني أنّ الاسم الإلهي الممدّ له هو (الباعث) وأنّ مرتبته الوجودية تناسب اللوح المحفوظ.

6- للعدد 40 مظاهر عديدة في التراث الإسلامي، لأنه يمثل تمام كلّ نشأة كما عبّر عنه الحديث الشريف المشهور في أطوار نموّ الجنين أربعين يوما بعد أربعين يوما إلى أن تنفخ فيه الروح في الشهر الشمسي الرابع؛ والأنبياء والرسل يُبعثون على رأس الأربعين سنة من أعمارهم. والعدد 40 هو عدد أيام تخمير طينة آدم عليه السلام، ومن هنا سنّ بعض الصوفية الخلوة الأربعينية التي تدوم أربعين يوما لقطع الحجب الأربعين تطبيقا للحديث الشريف: «من أخلص لله أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». ولهذه الحجب علاقة بمراتب الوجود الأربعين كما فصّلها الشيخ عبد الكريم الجيلي في كتابه "مراتب الوجود". والأربعين هي كذلك عدد السنين الفاصلة بين بناء الكعبة بمكة على يد إبراهيم عليه السلام وبناء المسجد الأقصى بالقدس، كما هو عدد السنين بين النفختين نفخة الفناء والدثور ونفخة البعث والنشور؛ وقيل أيضا أنّ يونس عليه السلام قضى أربعين يوما في بطن الحوت، وأنّ عيسى عليه السلام يمكث أربعين سنة في الأرض عند نزوله في آخر الزمان. ثم إنّ العدد 40 هو عدد حرف الميم حرف الجمعية والتّمام وهو الحرف الوحيد الذي يلتصق بالاسم الأعظم الجامع في الكلمة التي يفتتح بها كل دعاء أي (اللهم)، وهو الحرف الوحيد المكرر في اسم (محمّد) ﷺ. وتكرّرت كلمة (أربعين) في القرآن أربع مرّات؛ و 40 هو حاصل ضرب 4 في العشرة التي هي مجموع تفصيل الأربعة حيث أنّ: 1+2+3+4=10. والأربعة هي عدد حرف دال الفاتح لاسمه تعالى (دائم)؛ فهي عدد الدوام الدال على التأسيس الثابت والاستقرار الدائم الذي يتضمّنه اسم (شيث). وللعددين 4 و 10 دلالات كثيرة ليس هنا محل تفصيلها.

7- المراكز الروحية الممثلة حسّيا للجنّة ليست سوى مجالس الذكر وبيوت العبادة، وفي مقدّمتها المسجد الحرام بمكة، ومسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، ومسجد بيت المقدس، ثم المساجد الأخرى التي فيها نور الله تعالى كما في الآية 36 من سورة النور: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾. وقد وردت أحاديث كثيرة تقرنها

بالجنّة كقوله صلى الله عليه وسلّم في ما معناه: أنّ بين قبره ومنبره روضة من رياض الجنّة، وأنّ مجالس الذكر هي رياض الجنّة. وأما المراكز الروحية المعنوية فهي قلوب الصالحين.

8- حسب المؤلف الشيخ عبد الواحد يحي، قد وقع مثل هذا الانقطاع لمركز المسيحية عندما انقطعت صلة العالم المسيحي في أوروبا مع العالم الإسلامي، وذلك عندما تمّ القضاء على التنظيم الذي كان يجسّد باطنياً هذه الصلة، وهو تنظيم «فرسان الهيكل» الذي أسّس سنة 1119م (القرن الخامس الهجري) واستمرّ قويّا نحو قرنين إلى أن قضى عليه ملك فرنسا الطاغية "فيليب لابال" سنة 1314 بتواطؤ مع البابا كليمنت الخامس. لكن هذا التنظيم رغم اختفائه الظاهري استمرّ في أشكال أخرى مستورة أهمّها تنظيم «وردة الصليب» (روزكروا) الذي تواصل أثره الخفي إلى القرن السابع عشر ثم انطفأ تماما. وبانطفائه تمّ بكل عتوّ انطلاق القوى الدجّالية الشيطانية التي ابتدأ عملها التخريبي قبل ذلك بقرون، لاسيما إثر خروج المسلمين من الأندلس، فولدت الحضارة الغربية المادية الحديثة عبر مراحل ستنتهي بقيام الساعة، فصّلها الشيخ عبد الواحد في كتابه النفيس الذي عنوانه: (هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان).

9- أخنوخ هو إدريس عليه السلام الذي رفعه الله مكانا عليّا في فلك الشمس القلبي القطبي الرابع مركز مراتب الوجود، أي السماء الرابعة، وقد سبق القول في التعليقات إنّه هو قطب المركز العلوي للولاية الدائمة الذي يستمدّ مباشرة من الروح المحمّدي الجامع. وقد تكلّم الشيخ ابن العربي بتفصيل عجيب عن أرض الحقيقة أو أرض الصالحين أو أرض السمسمة في الباب الثامن من الفتوحات، كما أفصح عن بعض مظاهرها بأسلوب رمزي الشيخ عبد الكريم الجيلي في الباب 57 من كتابه "الإنسان الكامل" وعنوانه: الخيال وأنّه هيولي جميع العالم. ثمّ عاد للكلام حولها وحول أهلها من رجال الغيب خلال كلامه على الطبقة الأولى من الأرض في الباب 62 فقال ما خلاصته: [أمّا الطبقة الأولى من الأرض فأوّل ما خلقها الله تعالى كانت أشدّ بياضا من اللّبن وأطيب رائحة من المسك، فاغبرت لّما مشى آدم عليه السلام عليها بعد أن عصى الله تعالى...

وهذه الأرض بيضاء على ما خلقها الله تعالى عليه، هي مسكن رجال الغيب، وملكها الخضر عليه السلام، أهل هذه البلاد تكلمهم الملائكة، لم يبلغ إليها آدم ولا أحد ممن عصى الله تعالى، فهي باقية على أصل الفطرة، وهي قريبة من أرض بلغار، وبلغار بلدة في العجم لا تجب فيها صلاة العشاء في أيّام من السنة لأنّ شفق الفجر يطلع قبل غروب شفق المغرب فيها. ولاحاجة لتبيين عجائب الأرض لما قد نقلت الأخبار من عجائبها، وهي أشرف الأراضي وأرفعها قدرا عند الله تعالى، لأنّها محل النبيين والمرسلين والأولياء والصالحين، فلولا ما أخذ للناس من الغفلة عن معرفتها لكنت تراهم يتكلمون بالمغيبات ويتصرّفون في الأمور المعضلات، ويفعلون ما يشاءون بقدرة صانع البريات، فافهم جميع ما أشرنا إليه، واعرف ما دللناك عليه، ولا تقف مع الظاهر، فإنّ لكلّ ظاهر باطنا، ولكل حق حقيقة والسلام].وكلام الشيخ الجيلي حول علاقة آدم عليه السلام بهذه الأرض يكاد يكون مطابقا لكلام الشيخ عبد الواحد حول فقدان الإنسان لفطرته الأصلية، أي هبوط البشرية من الجنّة الأرضية بابتعادها عن الملّة الأولى الأصلية ومركزها الأعلى الدائم. كما أنّ إشارات الشيخ الجيلي لبلاد بلغار تتطابق مع ما ذكره الشيخ عبد الواحد في العديد من مقالاته عن الموقع الأصلي الأوّل للمركز الروحي الأوّل للإنسانية الرّاهنة، وهو القطب الشمالي.

10- مصداق هذا الكلام قول الله تعالى في الآية 116 من سورة الأنعام: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾.

11- في التراث الصوفي الإسلامي تقع الجنّة الأرضية أو أرض الصالحين فوق جبل الياقوت الأخضر الذي تلامس قمته السماء الأولى، وهو أحد مظاهر جبل قاف المحيط بالأرض.

12- إلى ذلك العهد الأوّل الفطري للإنسانية تشير الآية 213 من سورة البقرة ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

13- الكوب المقدّس هو في الحقيقة القلب السليم الذي لا وجود فيه للظلمة ولا للأغيار، وهو الذي يقول عنه الحديث القدسي: «لم تسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن» وهذا القلب هو الكتاب المقدّس الذي سطّر الحقّ فيه آياته وزيّنه برقوم تجلياته، قال تعالى في الآية 7 من سورة الحجرات: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

14- عند بداية تأسيس المسيحية طلب الحواريون الاثنا عشر من عيسى عليه السلام نزول مائدة عليهم من السّماء، فنزلت كما هو مذكور في سورة المائدة. وأمّا في الإسلام فقد ورد في الخبر النبوي ما معناه أنّ مائدة المسلمين هي القرآن الكريم؛ ودائرته تنتهي بحرف السين من سورة الناس الذي يوجد في قلب القرآن (يس)، وعدده يدلّ على كمال الدائرة حيث إنّ مجموع عدديه بالحسابين المشرقي والمغربي هو: 60+300= 360، كما أنّ تفصيله بالحساب المغربي (سين= 300+10+50=360)؛ ونظير البروج الاثني عشر في الدائرة القرآنية السور الاثنا عشر التي يستمدّ منها الأقطاب الاثنا عشر الذين يدور بهم فلك العالم، ولكل قطب برج، حسبما فصّله الشيخ محي الدين في الباب 463 من الفتوحات، وأسماء تلك السور هي: البقرة للقطب الذي على قدم أيوب- آل عمران للقطب الإلياسي- الأنعام للقطب الهودي- الكهف للقطب اللوطي وهو الذي يقتله الدجال ويدرك عيسى عند نزوله في آخر الزمان- وطه للقلب الصالحي وهو أشرف الأقطاب ونائب الحق تعالى – والواقعة للقطب السليماني وله تولّع بسورة المجادلة- وتبارك الذي بيده الملك للقطب الشعيبي- وإذا زلزلت للقطب الداودي- والكافرون للقطب العيسوي- وإذا جاء نصر الله للقطب الموسوي- والإخلاص للقطب الإبراهيمي وله مثل السليماني تولع بسورة المجادلة... هذا وربّما يكون لهؤلاء الأقطاب تناسب عميق مع أئمّة آل البيت الاثني عشر عليهم السلام.

15- في القرآن الكريم عدّة آيات تذكر الكأس أو العيون التي تتدفّق منها مشروبات الخلود في الجنّة الأبدية، ولكلّ مشروب أهل مخصوصون بين أبرار ومقرّبين ومتّقين وعباد

الله، والكأس الجنانية تكرّرت ستّ مرّات. فمن ذلك الآيتان 5-6 من سورة الإنسان: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾. وفي الآيات 18 إلى 28 من سورة المطفّفين يقترن الكتاب بالشراب: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، وفي الآية 18 من سورة الواقعة ذِكْر لكأس المقرّبين

السابقين: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾، وفي الآية 23 من سورة الطور: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، وفي الآية 34 من سورة النبأ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا ۝ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝ وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾. وخلال معراج النبي ﷺ عرضت عليه أربعة أقداح في كلّ منها شراب: ماء ولبن وعسل وخمر فاختار ﷺ اللبن الذي يرمز إلى العلم. والرمز المحسوس في الدنيا لشراب الخلود عند المسلمين يتمثل في ماء زمزم المتدفق من منابع تحت أرض الكعبة المشرفة. ومن أقوال الشيخ أبي الحسن الشاذلي (توفي سنة 656 هـ): [الشراب هو النور الساطع عن جمال المحبوب، والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب].

«ملكيتصادق» (أو «ملكيصادق»)
MELKI - TSEDEQ

في التراثيات الشرقية يقال أن الـ"سوما"، في عهد معين، أمست مجهولة، بحيث لـزم أن يحل محلها في شعائر القربان شراب آخر، لم يعد سوى تمثيلا للـ"سوما" الأولى الأصلية (1) (أ). وقد لعب الخمر دورا أساسيا في هذا التمثيل، وإليه يرجع عند الإغريق قسم كبير مـن قـصة "ديونيزوس" (Dionysos) (2) (ب). والحال، أن الخمر غالبا ما تعتبر ممثلـة للـتراث العرفـاني الحقيقي: وفي العبرية، كلمتا "إيياين" (iain) أي «خمر» و"صـود" أي «سـر»، كـل واحـدة منهمـا يمكن أن تحل محل الأخرى، بحيث أن لهما نفس القيمـة العدديـة (3). وعنـد الـصوفية ((أي المسلمين)) يرمز الخمر إلى المعرفة الباطنية، أي المشرب أو المنهاج العرفاني الخـاص بالـصفوة والذي لا يلائم عموم الناس، كما أنه لا يمكن للمسلم شرب الخمر بـلا عقـاب. ومـن ثـمَّ، فإن استعمال الخمر في إحدى الشعائر يضفي عليها طابعا عرفانيا باطنيا واضحا؛ ومثـل هـذا بالخصوص «القربان المقدس» الذي قدمه «ملكيصادق»(1)، وهنا بالـذات النقطـة الجوهريـة التي ينبغي علينا الآن الوقوف عندها.

وفعـلا، فـإن اسـم "ملكيـصادق" (Melchissédec)، أو علـى الأصـح "ملكيتـصادق" (Melki-Tsedeq)، ليس سوى اسم وظيفة «مليك العالم» عينه، كما هي معبّر عنهـا بـصراحة في التراث اليهودي المسيحي. لقد حصل لنا بعض التردد في الإفصاح عن هـذا المعنـى الـذي يتضمن تفسيرا لأحد الفقرات الأكثر إلغازا في التوراة العبرية، لكن، حالما عزمنا على معالجة مسألة «مليك العالم» هذه، لم تبق لنا حقا إمكانية السكوت عنه. ويمكن هنـا أن نـردّد الكـلام الذي قاله في هذا السياق القديس بولس (د): [إنّ لدينا، في هذا الموضوع، أمورا كثيرة يمكـن قولها، وأمورا يصعب شرحها، لأنكم صرتم ثقلاء الفهم](2).

وفي البداية ها هو النص نفسه للفقرة التوراتية الـتي نعنيهـا: «وأحـضر ملكيـصادق، ملك "سالم" (Salem)، الخبز والخمر؛ لقـد كـان حـبر الله العلـي الأعلـى ((أو خـادم سـر الله

الأعلى، أي الإمام الرباني الأكبر في الاصطلاح الإسلامي)). ولقد بارك "أبرام" ((Abram أي إبراهيم ﷺ)) (1) قائلا: بركات الله العلي الأعلى مالك السموات والأرض على "أبرام"؛ وتبارك الله العلي الأعلى الذي أخضع أعداءك بين يديك. وسلم له "أبرام" عُشر ((أو زكاة)) كل ما غنمه» (2) (ه). فـ"ملكيصادق" هو إذن في نفس الوقت ملك وحبر؛ واسمه يعني «ملك العدل»، وهو أيضا ملك "سالم" أي «ملك السلام»؛ فهنا مرة أخرى نجد قبل كل شيء «العدل» و«السلام» أي بالتحديد الصفتين الأساسيتين لـ«مليك العالم». والذي ينبغي ملاحظته هو أن كلمة "سالم"، بعكس الرأي السائد، لم يُقصد بها أبدا في الحقيقة مدينة معينة، لكن إذا أخذناها كاسم رمزي لمقر ملكيصادق، يمكن عندئذ اعتبارها كمكافئ لكلمة "أقارتتها" (و). وعلى أي حال، فإن من الخطأ أن يُنظر إليها كأنها الاسم الأصلي الأول لأورشليم، لأن اسم هذه الأخيرة كان "جيبوس"(Jébus)؛ بل بالعكس، إنما أعطي اسم "أورشليم" لهذه المدينة عندما أقام فيها العبريون مركزا روحيا، وذلك للدلالة على أنها أصبحت كالمثال المرئي لـ"سالم" الحقيقية؛ وتجدر ملاحظة أنّ الهيكل قد شيّده سليمان ((ﷺ))، واسمه ("شلوموه" Shlomoh)، وهو مشتق كذلك من "سالم" ويعني «مسالم» (أو «محب للسلم») (1)، وننظر الآن ما هي العبارات التي يشرح بها القديس بولس ما قيل عن ملكيصادق: «ملكيصادق هذا، ملك سالم، حبر الله العلي الأعلى، ذهب لاستقبال إبراهيم عندما رجع من هزيمة الملوك، فباركه وسلم له إبراهيم زكاة الغنيمة كلها؛ وبدءا، إنه حسب دلالة اسمه، ملك العدل، ثم ملك سالم، أي ملك السلام، إنه بلا والد ولا والدة، ولا نسب، ليس لحياته بداية ولا نهاية، وإنما هو هكذا شبيه بابن الرب؛ ملكيصادق هذا، هو الحبر أو الإمام الأكبر، الباقي على الدوام» (2) (ح).

والحال أن ملكيصادق يُقدّم وكأنه أعلى مقاما من إبراهيم، إذ هو الذي يباركه، و«لا ريب أن الأدنى هو الذي يبارَك من طرف الأعلى (3)»؛ ومن جانبه يعترف إبراهيم بهذه الرفعة إذ أنه يسلم له زكاة الغنيمة، وفي هذا علامة على تبعيته له وهنا تقع «تولية» (أو «تنصيب») حقيقية بالمعنى الإقطاعي لهذه الكلمة تقريبا، مع هذا الفارق وهو أنّ المقصود هنا هو «تولية روحية». ويمكن أن نضيف بأن هنا توجد نقطة وصل الملة العبرية بالملة الأصلية

الأولى الكبرى. و«المباركة» المذكورة هي بالتحديد تبليغ «فاعلية روحية» بحيث أصبح إبراهيم منذ ذلك الحين حاملا لها (ومساهما فيها)؛ ويمكن أن نلاحظ بأن الصيغة الموظفة تجعل إبراهيم في علاقة مباشرة مع «الله العلي الأعلى»، وهو الذي سيبتهل ويتضرع إليه إبراهيم بعد ذلك مشاهدا فيه "جيهوفاه" (1) (Jehovah). وإذا كان ملكيصادق هو هكذا أعلى رتبة من إبراهيم، فلأن «العلي الأعلى» (عِليون élion)، الذي هو الاسم المتجلي بربوبيته على ملكيصادق هو ذاته أعلى من «شديد القوى» الاسم المتجلي على إبراهيم، أو، بعبارة أخرى، الأول من هذين الاسمين يمثّل مظهرا إلهيا أعلى من الثاني. ومن جانب آخر، الأمر الذي هو في غاية الأهمية، ولم تقع الإشارة إليه سابقا أبدا، حسبما يبدو، هو أن اسم الـ"عليون"(Élion El) مكافىء لاسم "إيمانويل" (Emmanuel)، حيث إن لهما نفس القيمة العددية بالضبط (2)؛ وهذه العلاقة تجعل قصة ملكيصادق مرتبطة مباشرة بقصة «الملوك الأحبار» التي شرحنا دلالتها سابقا. وزيادة على هذا، يمكن أيضا النظر إلى ما يلي: وهو أنّ المجمع الروحي لملكيصادق هو مجمع الـ"عليون"، والمجمع الروحي المسيحي هو "إيمانويل"؛ ومن ثـمَّ إذا كان الـ"عليون" هو "إيمانويل"، فإن هذين المجمعين ليسا سوى نفس المجمع الواحد، ووظيفة المجمع المسيحي التي تشتمل أساسا على تقديم القربان المقدس من الخبزوالخمر، هي حقا «وفق المنهاج الشرعي لملكيصادق» (3).

والملة اليهودية المسيحية تميّز بين وظيفتي مجمعين، إحداها «على منهاج هارون» والأخرى «على منهاج ملكيصادق»؛ وهذه الأخيرة أعلى رتبة من سابقتها، مثلما أنّ ملكيصادق نفسه أعلى مقاما من إبراهيم الذي منه انحدر سبط لاوي (أي لاوي بن يعقوب الذي انحدر منه الكهنة اللاويون)، وبالتالي أسرة هارون (1). وهذه المفاضلة صرّح بها بوضوح القديس بولس الذي يقول: «الزكاة التي يتسلمها لاوي (من شعب إسرائيل)، قد دفعها من قبل إبراهيم، إذا صح التعبير» (2). وليس علينا أن نتوسع أكثر هنا حول ما يعنيه هذان المجمعان؛ لكن سنستشهد مرة أخرى بهذه الكلمة للقديس بولس: «الذين يتسلمون الزكاة هنا (في مجمع لاوي)، إنما هم رجال من البشر يترصّدهم الموت؛ لكن هناك، إنما هو بالتأكيد إنسان حي» (3). هذا «الإنسان الحي» الذي هو "ملكي-تصادق"، هو "مانو" ((المشرع

الأول)) الباقي فعلا «على الدوام» (بالعبرية "لا-عولام" Le - olem)، أي طيلة مدة دورته ("ما نفانتارا" Manvantara) أو دورة العالم الذي يشرف على تسييره بالخصوص. ولهذا فإنه «لا نسب له» لأن أصله «غير بشري» إذ هو نفسه النموذج الأعلى للإنسان؛ وهو بالتأكيد حقا «شبيه بابن الرب»، حيث إنه بمقتضى الشرع الذي يصيغه، هو بالنسبة لهذا العالم، التعبير والمثال ذاته للكلمة الإلهية (ط) (1).

وهناك، أيضا، ملاحظات أخرى ينبغي القيام بها، منها في البداية هذه التي تلي: في قصة «الملوك الأحبار» نرى ثلاثة أشخاص متميزين هم الرؤساء الثلاثة لهرم المراتب الروحية العرفانية؛ وفي قصة "ملكيتصادق" لا نرى منهم إلا واحدا، غير أنه بالإمكان أن يجمع في ذاته المظاهر المناسبة لنفس الوظائف الثلاثة. وعلى هذا المنوال قام البعض بالتمييز بينهم، أي كأنّ "أدونيتصادق" (Adoni - Tsedeq) أو «رب العدالة» يتثنى، إذا صح القول، إلى "كوهينتصادق" (Kohen - Tsedeq) أو «حبر العدالة» وإلى "ملكيتصادق"؛ وهذه المظاهر الثلاثة يمكن بالفعل اعتبارها كأنها راجعة على التتالي إلى وظائف "براهاتما" و"ماهاتما" و"ماهانقا" (2) وبهذا الاعتبار، فإن "ملكيتصادق" ليس هو بالتحديد سوى اسم المظهر الثالث، لكنه رغم ذلك يُتوسع في تطبيقه على مجموع الثلاثة؛ و إنما يُفضل استعماله على الاسمين الآخرين، لأن الوظيفة التي يعبّر عنها هي الأقرب للعالم الخارجي، ومن ثمّ فهي الأوضح في الظهور المباشر. ومع ذلك، يمكن ملاحظة أن عبارة «مليك العالم» ومثلها عبارة «ملك العدالة» لا تدل مباشرة إلا على السلطة الملكية؛ ومن ناحية أخرى، نجد أيضا في الهند تسمية "دهارماراجا" (Dharma-Raja) التي هي حرفيا المكافئ لتسمية "ملكي-تصادق" (1).

وإذا أخذنا الآن اسم "ملكيتصادق" بمعناه الأدق، فإن المميزات الخاصة بـ«ملك العدالة» هي الميزان والسيف (ي)؛ وهي كذلك مميزات "ميكائيل" باعتباره «ملك القضاء والحكم» (2). وهذان الشعاران يمثلان على التتالي، في الميدان الاجتماعي، الوظيفتين الإدارية والعسكرية الخاصتين بطبقة "الكشاطرية"، واللذين هما العنصران المشكلان للسلطة الملكية. وهما أيضا في الشكل الحرفي المرقوم (الشكل الهيروغليفي) الحرفان المؤلفان للجذر العبري و العربي "حق" (Haq)، الذي يعني في نفس الوقت «العدل» و«الحق» (3) واستعمل

عند شعوب قديمة شتى للدلالة على الملكية بالتحديد (1). فلفظة "حق" (Haq) تعني السلطة التي تبسط العدل، أي تشيع التوازن الذي يُرمز إليه بالميزان، بينما يُرمز إلى قوة السلطة نفسها بالسيف (2)، وهذا هو الطابع المميز للدور الأساسي المنوط بالسلطة الملكية؛ وهو كذلك من جانب آخر، القوة والحق في الميدان الروحي. وينبغي أن نضيف بأنه توجد صيغة مُلطفة لهذا الجذر "حق"، وهي تحصل بتبديل الحرف الدال على القوة المادية بالحرف الدال على القوة الروحية، أي الجذر "حك" الذي يدل بالتحديد على «الحكمة» (بالعبرية "حوكماه" Hokmah)، فهذا الجذر يلاءم بالخصوص السلطة الروحية، بينما الجذر الآخر يلاءم بالأخص السلطة الملكية. وهذا المعنى يؤكده مرة أخرى كون الصيغتين المذكورتين، توجدان بمعاني مماثلة، في الجذر "كان" (Kan) الذي يعني في لغات شتى: «سلطة» أو «قوة»، وكذلك أيضا: «معرفة» (3)؛ فهذا الجذر "كان" يدل بالأخص على السلطة الروحية أو المعنوية، المطابقة للحكمة (ومنه كلمة "كوهن" Kohen، أي «حبر» بالعبرية) (ك)، بينما الجذر "قان" يدل على السلطة المادية (ومنه مختلف الكلمات المعبرة عن مفهوم «الاستحواذ»، لاسيما اسم "قاين" Qain، أي "قابيل" (1). وهذه الجذور ومشتقاتها يمكن بلا ريب أن تستدعي كثيرا من الاعتبارات الأخرى؛ لكن لا بد أن نقتصر على ما له علاقة مباشرة أقرب إلى موضوع دراستنا الحاضرة.

ولإتمام ما سبق، نعود إلى ما تذكره القبالة العبرية حول الـ"شاكيناه" فهي تمثل في «العالم السفلي» بآخر الأسفار العشرة (Sephiroth)، الذي يدعي بـ"ملكوث" (Malkuth)، أي «الملك»، وهي تسمية جديرة بالملاحظة في وجهة النظر التي نقف عندها الآن؛ لكن الأجدر بالانتباه أيضا، هو أنّ من بين المترادفات التي تعطى أحيانا لـ"ملكوث" لفظة "تصادق" (Tsedeq)، أي «العادل» (2). وهذه المقاربة بينهما، أو بين الملكية ((أي التحكم في العالم)) والعدالة، موجودة بالتحديد في اسم "ملكيتصادق". والمقصود هنا هو العدالة الإحسانية الشاملة لكل شيء والمُوجدة للتوازن تحديدا، وهي التي يمثلها «عمود الوسط» في الشجرة السفروتية، وينبغي تمييزها عن العدالة المعاكسة للرحمة والتي تتطابق مع الجلال القهري الذي يمثله «عمود اليسار» لأنهما مظهران مختلفان (وفي العبرية توجد كلمتان للتعبير عنهما، الأولى هي "تصاداقاه" Tsedaqah، والثانية هي: "دين"). والأوّل من هذين المظهرين هو العدل بالمعنى الأدق

والأتم في نفس الوقت، مستلزما أساسيا مفهوم التوازن والانسجام، وهو مرتبط بـلا انفكـاك بالسلام (ل).

و"ملكوث" هو «الحوض الخازن الذي تجتمع فيه المياه المتدفقـة مـن النهـر الموجـود في العُلى، أي كل الفيوضات المنتـشرة منـه بغـزارة (بفـضل الفعاليـات الروحيـة) (1)». وهـذا «النهر الموجود في العلى» والمياه النازلة منه يذكر بكيفية تلفـت النظـر بالـدور المنـوط بـالنهر السماوي أي نهـر ال"قانجا" (Ganga) في الـتراث الهندوسـي (م). ويمكـن أيـضا ملاحظـة أن "شاكتي" (Shakti)، التي من جملة مظاهرها نهر "قـانجا"، لا تخلو من نـوع مـن التماثـل مـع ال "شاكيناه"، ولو بالاقتصار على الوظيفة المشتركة بينهما المتمثلة في «العنايـة الإلهيـة». والحـوض الخازن للمياه السماوية يتطابق طبعا مع المركز الروحي لعالمنا، ومنـه تنبعـث أنهـار "البـاردس" ((أي الأنهار الجنانية)) الأربعة متوجهة نحو الجهات الأصلية الأربعة (ن). وبالنسبة لليهـود، هذا المركز الروحي يتطابق مع ربوة صهيون التي يطلقون عليها تـسمية «قلـب العـالم» وهـي تسمية تشترك فيها جميع «الأراضي المقدسة»، فهي بالنسبة لهم تكافئ تقريبا جبـل "مـيرو" عنـد الهندوس، أو "الـبرج" عنـد الفـرس (1). «إن مـضلة تـابوت "جيهوفـاه" القـدوس، أي مـستقر الـ"شاكيناه"، هي قدس الأقداس، التي هي قلب الهيكل، الذي هو نفسه قلب أرض إسـرائيل، كما أن أرض إسرائيل هي مركز العالم (2).» بـل يمكـن الـذهاب بـالأمور إلى مـا هـو أبعـد فنقول: "لا يُقتصر على ما عُدّ هنا، بل باعتبار العَد في الاتجاه المعـاكس، وبعـد المـضلة داخـل الهيكل، وفوق تابوت العهد نفسه، يقع محـل تجلـي الـ"شـاكيناه" (بـين الـكـاروبيم" Kerubim الاثنين)، فكأنّ هذه المدارج في ترتيبها تمثل مقامات القرب المتتالية لل «قطب الروحاني».

وبنفس هذه الكيفية تماما، يعرض "دانتية أورشليم كـ«قطب روحاني» حـسبما بيّنـاه في مناسبة أخرى (3)؛ لكن ما أن نخرج من وجهة النظر الخاصـة باليهوديـة، فـإنّ هـذا كلـه يصبح بالأخص رمزيا، ولا يشكل عندئذ انحصارا في تمركز أو تموضع مُعيّن بـالمعنى الـدقيق لهذه الكلمة. فجميع المراكز الروحية الثانوية، المؤسَّسة بهـدف تكييـف الملـة الأصـلية الأولى على أوضاع معينة، هي كما أوضحناه سابقا، صور للمركز الأعلـى؛ وصـهيون يمكـن أن لا تكون في الحقيقة سوى واحد من هذه المراكز الثانوية، ولكنها رغـم هـذا تتطـابق رمزيـا مـع

المركز الأعلى بمقتضى هذا التماثل. وما ذكرناه و ما سنذكره لاحقا عن «الأرض المقدسة» التي ليست هي أرض إسرائيل فقط، سيمكن من فهم ذلك بلا عناء.

وفي هذا الصدد، توجد عبارة أخرى لافته جدا للنظر مرادفة لاسم «أرض مقدسة» وهي عبارة «أرض الأحياء»؛ وهي تدل بوضوح على «مقام الخلود»، بحيث تنطبق في معناها الدقيق الخاص، على الجنة الأرضية، أو على مكافئاتها الرمزية؛ لكن هذه التسمية قد نقلت أيضا إلى «الأرض المقدسة» الثانوية، لاسيما أرض إسرائيل.فقيل إنّ أرض الأحياء تشتمل على «سبعة أراضي»، والسيد "فوليود" يسجّل في هذا الموضوع أنّ «هذه الأرض هي كنعان حيث كانت توجد فيها سبعة شعوب» (1). ولا شك أن هذا صحيح بالمعنى الحرفي، لكن رمزيا، يمكن جدا أن تكون هذه الأراضي السبعة، المذكورة كذلك في التراث الاسلامي، متناسبة مع الـ"دويبا" (Dwipas) السبعة التي لها، حسب التراث الهندوسي، مركزا مشتركا هو جبل "ميرو" الذي سنعود إليه لاحقا. وكذلك عندما تمثل العوالم القديمة، أو المخلوقات التي سبقتنا، بـ«ملوك "أدوم" السبعة» (والعدد سبعة هنا له صلة بـ«الأيام» السبعة في سفر التكوين)، فهنا يوجد تشابه مع الدورات الزمنية السبعة، لكل دورة "مانو" يختص بها، منذ بداية الدورة الزمنية العظمى أي "كالبا"، إلى عهدنا الراهن (2).

تعقيبات المؤلف على الباب السادس

1- تبعا لملة الفرس، وُجد لِلـ"هاوما" نوعان: الأبيض الـذي لم يكـن بالإمكـان اجتنـاؤه إلا فوق «الجبل المقدس» المسمى عندهم بالبرج، والأصفر الذي حل محـل الأول، عنـدما غادر أسلاف الإيرانيين سكنهم الأصلي، لكنه هو أيضا فقد بعد ذلك. والمقصود هنـا هو المراحل المتتالية للتعتيم الروحي الذي يحصل تدريجيا عبر العصور المختلفة للدورة الإنسانية (ج).

2- "ديونيزوس" أو "باكوس" (Bacchus) له أسماء مختلفـة بعـدد مظـاهره المتعـدّدة، لكـل مظهر تسمية؛ وفي واحد على الأقل من مظاهره، التراث الإغريقـي يجعلـه قادمـا مـن الهند. والرواية التالية التي تجعله متولدا مـن فَخِـذ "زاس" (Zeus) تعتمـد علـى تـشابه لفظي هو من أغرب التشابهات، وهـو أن الكلمـة الإغريقيـة "ميروس" (mêros) أي فَخِذ، جُعلت بديلا عن اسم "ميرو" (Mêru) أي «الجبل القطبي» فهـو يكـاد أن يكـون مطابقا لها أصواتيا.

3- عدد كل من هاتين الكلمتين 70.

4- عادة ما يُنظر إلى قربان ملكيصادق كـ«صورة مسبقة» لـ«سـر القربـان المقـدس» عنـد المـسيحيين؛ ومجمـع الإمامـة الروحيـة المـسيحي يتطـابق مبـدئيا مـع المجمـع الروحـي للمكيصادق نفسه، تبعا لتطبيق هذه الكلمة الواردة في المزامير عن شأن المسيح:

<<Tu es sacerdos in æternum secundum ordinem Melchissedec>> Ps.,cx,4

5- الرسالة إلى العبريين، v، 11.

6- اسم "أبرام" لم يكن قد تحوّل بَعْدُ حينذاك إلى "أبراهام" (إبراهيم)؛ وفي نفس الوقت، اسـم زوجته "ساراي" (Sarai) تحول إلى "ساراه" (Sarah) (سـفر التكـوين، XVII)، بحيـث لا يتغير مجموع أعداد هذين الاسمين (ز).

7- سفر التكوين، XIV، 1920.

8- ينبغي أيضا ملاحظة أن نفس الجذر يوجد كذلك في نفس كلمتي "إسلام" و"مسلم"؛ ف «التسليم أو الخضوع للإرادة الإلهية» (الذي هو بالتحديد معنى كلمة "إسلام") هو الشرط اللازم «للسلام»؛ والمفهوم المعبّر عنه هنا يمكن مقاربته بمفهوم "دهارما" (Dharma) الهندوسي.

9- الرسالة إلى العبريين، VII، 1 ، 3.

10- المرجع السابق، VII، 7

11- سفر التكوين، XIV، 22.

12- عدد كل من هذين الاسمين هو 197.

13- هذا هو التبرير التام للتطابق المشار إليه آنفا؛ لكن تجدر ملاحظة أن المساهمة في التراث الروحي يمكن أن لا تكون دائما بكيفية واعية؛ بيد أنها في هذه الحالة، لا يقل حصولها في الواقع على أنها وسيلة لتبليغ «الفعاليات الروحية»، ولكنها لا تستلزم الترقي الفعلي إلى مرتبةٍ ما من سُلم المدارج العرفانية الروحية.

14- حسبما سبق، يمكن أيضا القول بأن هذه الأفضلية تناسب فضل العهد الجديد (أي المسيحية) على الشريعة القديمة (الرسالة إلى العبريين، VII، 22). وهناك ما يدعو إلى تفسير: لماذا وُلد المسيح من سبط يهوذا الملكي، وليس من سبط لاوي الكهنوتي (ينظر المرجع السابق، VII، 11-7)؛ لكن هذه الاعتبارات قد تجرنا بعيدا. وتنظيم قبائل الأسباط، المنحدرة من أبناء يعقوب الاثني عشر، يتعلق طبعا بالتأسيس الاثنى عشري للمراكز الروحية.

15- الرسالة إلى العبريين، VII، 9.

16- المرجع السابق، VII، 8.

17- في كتاب الغنوصيين السكندريين "بيستيس صوفيا" (Pistis Sophia) يوصف ملكيصادق بأنه «المتلقي الأعظم للنور الأزلي»؛ وهذا الوصف يليق أيضا بوظيفة "مانو"، الذي يتلقى بالفعل النور المعنوي، بواسطة شعاع فائض مباشرة من المبدأ، ليعكسه على العالم الذي هو ميدانه؛ ولهذا يقال عن "مانو" أنه «ابن الشمس».

18- توجد أيضا تراثيات أخرى حول "ملكي - تصادق"؛ وتبعا لإحداها فقد باركه وقدّسه الملاك ميكائيل في الجنة الأرضية وعمره 52 سنة. ومن جانب آخر، يلعب هذا العدد الرمزي دورا هاما في التراث الهندوسي، حيث يُعتبر العدد الجامع للمعاني التي يتضمنها الكتاب المقدس "الفيدا"؛ حتى إنه يقال بأن لهذه المعاني تناسبا مع كيفيات مختلفة بعدده للنطق بالكلمة المقدسة "أوم".

19- هذا الاسم، أو بالأحرى هذا اللقب "دهارماراجا"، مطبّق بالخصوص، في نص الـ"ماهابهاراتا" (Mahâbhârata)، على "يوذيشتهيرا" (Yudhishthira)؛ لكنه كان في البداية مطبقا على "ياما" (Yama)، أي «قاضي الأموات» الذي له علاقة وثيقة مع "مانو"، وقد نبهنا عليها سابقا.

20- في التصوير التمثيلي (الأيقنة) المسيحي، يُمثل الملاك ميكائيل بهذين الشعارين في تصورات «يوم القيامة».

21- مثل ذلك، عند المصريين القدامى، "ما" (Ma) أو "مآت" (Maat)، هي في نفس الوقت «العدل» و«الحق»؛ وترى مُمثلة في إحدى كفتي ميزان القضاء، بينما في الكفة الأخرى يوجد كوب، الدال هيروغليفيا على القلب.و في العبرية كلمة "حوق" (hoq) تعني «حكم القاضي»، أو «مرسوم الحاكم».

22- القيمة العددية لكلمة "حق" هي 108، وهو أحد الأعداد الدورية الأساسية. و في الهند السبحة التي تستعملها الطائفة المتسبة ل "شيفا" تتألف من 108 حبة؛ و الدلالة الأولى للسبحة ترمز إلى «سلسلة العوالم»، أي التسلسل العِلي للدورات أو لمراتب الوجود.

23- هذا المعنى يمكن تلخيصه في هذه الكلمة: «القوة في خدمة الحق»، لولا أن المحدثين لم يُفرطوا في ترديدها بأخذها من وجهة سطحية تماما.

24- ينظر "باطنية دانتيه"، طبعة 1957، ص.58.

25- كلمة "خان" (Khan)، وهي اللقب الذي تعطيه شعوب آسيا الوسطى للرؤساء، ربما ترتبط بنفس الجذر.

26- تصادق" هو أيضا اسم كوكب المشتري، الذي ملاكه يسمى "تصادقيال - ملاك" (Tsadqiel-Melek)؛ ولا حاجة إلى الإلحاح على تشابهه البديهي مع اسم "ملكي - تصادق" (الذي أضيف إليه فقط "إل"، أي الاسم الإلهي الذي تنتهي به كل أسماء الملائكة، فهو مشترك بينها جميعا). وفي الهند، نفس الكوكب يحمل اسم "بريهاسباتي" (Brihaspati) التي دلالتها على «الراحة» تعود بوضوح إلى مفهوم «السلام» ولاسيما أن هذا المعنى يعبّر، كما ذكرناه آنفا، على المظهر الخارجي للـ"شاكيناه" نفسها، أي المظهر الذي به تتواصل مع «العالم السفلي».

27- ب. فوليود، "القبالة اليهودية"، ج. I، ص.509.

28- جبل "غاريزيم" (Garizim) عند السامرائيين، هو الذي يلعب نفس الدور، وتطلق عليه نفس التسميات فهو «الجبل المبارك» و«الربوة الأزلية» و«قمة الميراث» و«بيت الله» ومظلة ملائكته، وهو مقر الـ"شاكيناه"، بل هو مطابق حتى مع «الجبل القديم» (Har Qadim) حيث كانت جنة عدن، ولم تطله مياه الطوفان.

29- ب. فوليود "القبالة اليهودية"، ج. I، ص.509.

30- "باطنية دانتيه"، طبعة 1957، ص.64.

31- "القبالة اليهودية" ج. II، ص.116.

32- دورة الـ"كالبا" الواحدة تشتمل على أربعة عشر "مانفانتارا"؛ و"مانو" الدورة الراهنة واسمه "فايفا سواتا" هو السابع في هذه الكالبا، واسم الـ"مانفانتارا" الراهنة هو "شري - شويتا - فاراها - كالبا" أو «عهد الدب الأبيض».

- ملاحظة أخرى تستوقف النظر وهي: أن اليهود يطلقون على روما اسم "إيدوم" (Edom)؛ علما بأنّ التراث يتكلم كذلك على ملوك روما السبعة، والثاني منهم اسمه "نوما" (Numa) و يُعتبر كمشرّع للمدينة، واسمه يحصل بالضبط من الإقلاب المقطعي لاسم "مانو"، ويمكن في نفس الوقت مقاربته مع الكلمة الإغريقية "نوموس" (Nomos) أي «الشرع». وبالتالي ثمة ما يدعو إلى التفكر في أنّ هؤلاء الملوك السبعة لروما، من وجهة نظر معينة، ليسوا سوى تمثيل خاص بالنسبة لحضارة معينة للمشرّعين "مانو"

السبعة، مثلما أن حكماء اليونان السبعة هم من ناحية أخرى، في أوضاع مماثلة، يمثلون الـ"ريشي" (Rishis) السبعة (عند الهندوس)، وهم الذين تتلخص فيهم حكمة الـدورة التي سبقت مباشرة دورتنا الراهنة.

33- عند السامرائيين، جبل "غاريزيم" (Garizim) هو الذي يلعب نفس الدور، وتطلق عليه نفس التسميات، فهو «الجبل المبارك»، و«الربوة الأزلية» و«قمة الميراث» و«بيت الله» ومضلة ملائكته، وهو مقر الـ"شاكيناه".

تعقيبات المعرب على الباب السادس

1- نظير هذا المعنى في الإسلام قول النبي ﷺ: [نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسوّدته خطايا بني آدم].
وفي هذا المعنى يقول ابن الفارض (توفي سنة 632 هـ) في خمريته المشهورة عن خمر المعرفة الأصلية القديمة:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة	سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرم
لها البدر كأس وهي شمس يديرها	هلال وكم يبدوا إذا مُزجت نجم
ولم يُبقِ منها الدهر غير حُشاشة	كأنّ خفاها في صدور النُّهى كَتم
ومن بين أحشاء الدّنان تصاعدت	ولم يبق منها في الحقيقة إلا اسم

2- "ديونيزوس" عند الإغريق هو مظهر الربوبية المتوجّه إلى الكرم والخمر، وهو المدخل إلى علوم الأسرار.

3- في التعقيبة (س) من الباب الخامس سبق ذكر المشارب الجنانية الخاصة بالأبرار الشاربين من رحيق مختوم ختامه مسك، وهو شراب ممزوج بما ينزل إلى كؤوسهم من شراب عيون عباد الله المقربين الصافي الصرف الأبيض كعين الكافور، وعين التسنيم، وعين السلسبيل المتفجرة بالزنجبيل؛ أي أنّ الشراب الأصلي الأصفى للمقربين في عين الذات، والشراب الممزوج لمن دونهم من الأبرار الذين يتناولونه في كؤوس الأسماء والصفات. يقول ابن الفارض في خمريته السابقة:

عليك بها صِرفا وإن شئت مزجها	فعدلك عن ظلْم الحبيب هو الظُلم

أي من ظلمك لنفسك عزوفك عن ريق الحبيب أي الشراب الذاتي الصرف.

4- القديس "بولس": اسمه الأوّل شاول. بعد اضطهاده للمسيحيين اهتدى في طريقه لدمشق نحو سنة 33 م، ثم اختلى في شمال جزيرة العرب مدّة 3 سنوات باشر بعدها تبشير الأمم الوثنية في مدن آسيا الصغرى واليونان، حتى أطلق عليه لقب «رسول الأمم»، وله 14 رسالة موجهة إلى الكنائس وإلى بعض تلاميذه. سُجن في القدس مرتين، وسيق إلى روما حيث قطع رأسه سنة 67 م.

5- مثل هذه المباركة نجدها في خطاب الملائكة لإبراهيم عندما جاءت تبشّره بأنّ زوجته ستحمل بإسحاق ومن ورائه يعقوب،: ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ الآيتان 72، 73 من سورة هود. وفي الآية 113 من سورة الصافات: ﴿وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ﴾.

6- لقيمة العددية لكلمة "سالم" بالحساب المشرقي هي: 131، وهي نفس قيمة فاتحة قلب القرآن (ياسين) بتفصيل حرفي (يس)، كما أنها هي نفس قيمة فاتحة آيتها القطبية المشتملة على الاسم الأعظم أي "سلام" من آيتها 58: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾. وبإضافة الواحد الدال على جمعية كل الدرجات تكون القيمة 132 الذي هو عدد اسم (محمّد)، باعتبار تضعيف الميم الثانية، وهو كذلك عدد كلمة (قلب) أو كلمة (إسلام). كما أنه بإضافة الواحد الجامع للعدد 52 الذي سيذكره المؤلف لاحقا يصبح الحاصل 53 الذي هو عدد الاسم (أحمد)؛ وكذلك بإضافته للعدد 108 الذي سيرد لاحقا أيضا يكون الحاصل 109 الذي يرمز بأرقامه الثلاثة إلى جميع الأعداد لدلالته على أطرافها أي الواحد والتسعة والصفر؛ ثم إنّ مجموع كل الأعداد من واحد إلى 109 يعطي المجموع الكامل 5995 الذي هو مجموع أعداد الحروف العربية الثمانية والعشرين، ومجموع أرقامه الأربعة هو بالضبط 28. كما أن كلمة (العدد)

عددها 109؛ وهو عدد الاسم (الحكيم). والعدد 28 هو أيضا عـدد المنـازل الفلكيـة وعدد مراتب الوجود حسبما فصّلها الشيخ ابن العربي في الباب 198 من الفتوحات.

7- هذا الحساب باعتبار حروف اللفظ العبري هو كالتالي:

ابـرام + سـراي = 244 + 271 = 515 / - ابـراهم + سـراه = 249 + 266 = 515.

والعدد 515 هو عدد اسم (ادريس) بالحساب المغربي، وإدريس هـو قطـب مركـز الولاية الأعلى الدائم كما سبق ذكره.

هذه الأوصاف تناسب تماما أوصاف الروح المحمدي الفاتح الخاتم الممدّ لجميع الأنبياء والمرسلين والأقطاب، و ملكيصادق هو مظهر خلافته، وهو الذي قال عنه الحق تعالى في الآية 81 من سورة الزخرف مخاطبا له ﷺ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾، كما أخبر تعالى عنه أنّه أوّل المسلمين، ففي الآية 14 من سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ وفي الآية 163 من نفس السورة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾وصرّح ﷺ أولويته في عالم الأرواح فقال: «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين» فجميع الأنبياء والأقطاب خلفاؤه ولهذا أخذ الله العهد عليهم جميعا بنصرته والإيمان به غيبا، قال تعالى في الآية 81 من سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾وتأكيدا لهذا قال ﷺ: [لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعني] وقال: [أنا سيّد ولد آدم ولا فخر] وقال عن مقامه يوم القيامة: [إن لي في ذلك اليوم مقاما محمودا يحتاج الخلق فيه

إليّ حتى إبراهيم خليل الرحمن]. ووصفُ ملكيصادق في النصّ بأنّه الإمام الأكبر الباقي على الدّوام مناسب للاسم الذي سمّى به الشيخ ابن العربي في الباب 14 من الفتوحات سيدنا محمد ﷺ حيث أشار إليه باسم (الباقي) كما أشار إلى أسماء بقية الأنبياء المذكورين في القرآن، وهم خمسة وعشرون، بأسماء لها علاقة بقطبيتهم كأولياء أنبياء، فأشار إلى آدم باسم (المفرّق) وإلى إدريس ب (مداوي الكلوم) وإلى إلياس ب (المرتفع) وإلى إبراهيم ب (الشفاء) وإلى عيسى ب (عنصر الحياة) إلى آخرهم عليهم الصلاة والسلام.

8- الكلمة الإلهية في أكمل مجاليها تتمثل في القرآن العظيم الجامع لكل ما تضمنته الكتب الإلهية السابقة، ومظهره الأكمل هو المتخلّق به على الكمال الإنسان الكامل سيدنا محمد ﷺ.

9- الشعار المزدوج (أي السيف والميزان) هو في التراث الإسلامي شعار كل خليفة عادل، وإليهما الإشارة في الآية 25 من سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾. وقد فصّل الشيخ في البابين 366 و 463 من الفتوحات ما يتميّز به الخليفة الأعظم الإمام المهدي الظاهر في آخر الزمان، فبيّن أنّ من أبرز مميّزاته سيف قوة الحق وميزان العدل، فهو مظهر الحق ومعدن الصدق، سورته قلب القرآن يس، وهو على قدم نوح عليه السلام والملاحظ أن عدد كلمة (حق) تساوي عدد كلمة (ميزان) أي 108.

10- أعظم قدرة إلهية هي التي تخرج الأشياء من العدم إلى الوجود بقوله لها: (كن) فتكون. قال تعالى في الآية 47 من سورة آل عمران: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾؛ وفي الحديث القدسي: «عبدي أطعني أجعلك ربّانيا تقول للشيء كن فيكون».

11- نظير الأعمدة الثلاثة في الشجرة السفروتية المذكورة، ما ذكره الشيخ ابن العربي في الفصل الثاني من الباب 371 من الفتوحات المكية عند كلامه على قوائم عرش الرحمان المحيط وقوائمه الأساسية الأربعة: فواحدة منها وهي اليمنى رحمة خالصة لا شدة فيها أصلا، بينما اليسرى هي قائمة الشدة والقهر، وأما القائمتان الباقيتان، أي الوسطى والأخرى المقابلة لها، فلهما الاعتدال و الكمال والرحمة المطلقة التي تستغرق حتى الشدائد والآلام.

12- النهر السماوي وفيوضاته وحوض "الملكوت"، تذكر مباشرة بما في صلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش (متوفى سنة 625 هـ حيث يقول: [اللهم صل وسلم على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا و هو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط].

13- نظير هذه الأنهار الجنانية الأربعة في الإسلام، الأنهار المذكورة في الآية 15 من سورة محمد: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾. ولهذه المشارب رموز عرفانية متعددة، وخصص لها الشيخ ابن العربي رسالة عنوانها: "مراتب علوم الوهب"، كما أنه في الباب 167 من الفتوحات الذي فصّل فيه مراحل المعراج ذكر أن في أصل شجرة سدرة المنتهى، أي الشجرة الكونية المركزية المحورية العظمى، أصول أربعة أنهار كبرى مناسبة للقرآن والإنجيل والزبور والتوراة...ثم إن لتلك الأنهار العلوية مساقط أرضية تمثل بالنيل والفرات وسيحون وجيجون.

14- المركز الروحي الأوّل الفاتح الخاتم الذي هو أكمل مظهر للمركز الأعلى هو الكعبة المشرفة والحرم المكي، ثم المدينة المنوّرة حيث الإنسان الكامل الرسول الفاتح الخاتم

سيدنا محمد ﷺ الذي أنزل عليه قول الله تعالى في الآية 96 من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾. - وأما الأقطاب أو الخلفاء السبعة فنظيرهم في التصوف الإسلامي الأقطاب السبعة أقطاب الأقاليم الأرضية السّبعة، ولهم نسبة مع الأراضي السبعة والسماوات السبعة وكواكبها ومع أيام الأسبوع، وهم على قلوب الأنبياء أقطاب السماوات وهم حسب ترتيبهم صعودا من سماء القمر: آدم ثم عيسى ويحي ثم يوسف ثم إدريس ثم هارون ثم موسى ثم إبراهيم عليهم السلام. حول هؤلاء الأبدال ينظر في الفتوحات للشيخ ابن العربي الأبواب 15 / 16/ 73. وحول الأراضي السبعة ينظر الفصل 31 من الباب 198، والباب 371؛ كما ينظر الباب 52 من كتاب (الإنسان الكامل) للشيخ عبد الكريم الجيلي، والفصل 18 من الموقف 248 من كتاب المواقف للأمير عبد القادر الجزائري.

الباب السابع

« لوز» أو مقام الخلود

«*LUZ* »*OU LE SÉJOUR D'IMMORTALITÉ*

التراثيات المتعلقة بـ«العالم الديماسي» تتوافر عند عدد كبير من الشعوب؛ ولا نقصد تجميعها كلها هنا، لا سيّما أن بعضها يبدو بدون علاقة مباشرة مع المسألة التي تهمنا هنا. بيد أنّه، بصفة عامة، يمكن ملاحظة أنّ «تقديس الكهوف» مرتبط ارتباطا يزيد أو ينقص بمفهوم «المأوى الداخلي» أو «المقر المركزي»، وأن رمز الكهف ورمز القلب في هذا الصدد متقاربان (1). ومن جهة أخرى، في آسيا الوسطى كما في أمريكا، وربما في أصقاع أخرى أيضا، توجد حقيقة في الواقع كهوف وسراديب وُظِفت كَمَراكز مساريّة للتربية الروحية العرفانية، واستطاعت مواصلة وجودها منذ قرون؛ لكن بجانب هذا الواقع، يوجد في كل ما يُرْوى حول هذا الموضوع قسط من الرمزية ليس من الصعب إبرازه؛ بل يمكننا التفكير في أن أسبابا من طراز رمزي تحديدا، هي التي عينت اختيار مواقع ديماسية لإقامة تلك المراكز المسارية، أكثر منها لدوافع مجرد الحذر والاحتياط. وربما كان بإمكان سانت – إيف أن يفسر هذه الرمزية، لكنه لم يفعل، وهذا هو الذي يضفي على بعض أقسام كتابه مظهرا مخرقيا يُستبعد تصديقه (2)؛ وأما السيد أوسندوسكي، فقد كان بالتأكيد عاجزا عن أن يذهب إلى ما وراء الحرف، وأن يرى في كل ما قيل له أمرا آخر غير المعنى المباشر الأكثر ظهورا.

ومن بين التراثيات التي أشرنا إليها قبل قليل، ثمة واحدة لها أهمية خاصة، وهي موجودة في اليهودية، وتتعلق بمدينة تكتنفها الأسرار تسمى « لوز» (3). وفي الأصل، كان هذا الاسم مطبقا على الموقع الذي رأى فيه يعقوب ((عليه السلام)) الرؤيا التي على إثرها أطلق على ذلك الموقع اسم «بيت – إل» أي «بيت الله» (4)؛ وسنعود لاحقا إلى هذه النقطة. وقد قيل أن «ملك الموت» لا يستطيع الولوج إلى هذه المدينة، ولا يملك فيها أي سلطة؛ وفي

مقاربة عجيبة، لكنها ذات دلالة كاشفة جدا، يجعل البعض هذه المدينة قريبة من"البرج"، الـذي هو أيضا عند الفرس «مقام الخلود» (أ).

ويقال إن بالقرب من "لوز" توجد شجرة لَوْز (وهي أيضا تـسمى: لـوز، بالعبريـة) في قاعدتها تجويف يولج منه إلى سرداب (5)؛ وهذا الـسرداب يفـضي إلى المدينـة نفـسها، الـتي يكتنفها الخفاء الشامل. وكلمة "لوز" بمختلف دلالاتها، تبدو مشتقة من جذر يدل على كل مـا هو مستور، أو مغطى، أو ملفوف، أو صامت، أو سري؛ ومن الملاحـظ أن الكلمـات الدالـة على السماء لها في أصلها نفس المعنى. فعادة ما تقارب كلمة "cœlum" مـع الكلمـة الإغريقيـة "koilon" أي «تجويف» (ومن المحتمل أن يكون لهذا المعنى أيضا علاقة مع الكهف، خاصة وأن "فارون" Varron (ب) يشير إلى هذه المقاربة بهذه الكلمات: a cavo cœlum)؛ لكن ينبغي أيضا ملاحظة أن أقدم صيغة وأصحها لتلك الكلمـة هـي حـسب مـا يبـدو "caclum"، الـتي تـذكر مباشرة بلفظة "caelare" أي «خبّأ». ومن جهة أخرى، كلمة "فاروناً (Varuna) في السنـسكريتية مشتقة من الجذر" فار" (Var) أي «غطى» (وكذلك الجذر "كال" kal، الذي ترتبط به في اللاتينيـة كلمة celare، وهـي صـيغة أخـرى للفظـة caelare، ولمرادفتهـا الإغريقيـة (kaluptein) (6). والكلمة الإغريقية "أورانوس" (Ouranos) ليست سوى صيغة أخرى لنفس الاسـم، حيـث إن لفظ "فار" يتحول بسهولة إلى " أور" (ur). ومن ثمَّ يمكن لهذه الكلمات أن تعني «ما يُغطِي» (7) أو «ما يُخفِي» (8)، لكن أيضا «ما هو مُخَبَأ»، وهذا المعنى الأخـير لـه دلالـة مزدوجـة: إنـه المستور عن الحواس أي المجال الغيبي، وهو أيضا التراث الروحي العرفاني الذي يزول ظهوره العلني في الخارج خلال فترات الستر أو التعتيم، فـ«العالم السماوي» يمسي حينئذ هـو «العـالم الديماسي».

ومن جهة أخرى، توجد أيضا مقاربـة يمكـن إقامتهـا مـع الـسماء: فـ" لـوز" تـسمى «الحاضرة الزرقاء»، وهذا اللون، الذي هو لون اللازورد (9) هو اللون السماوي. وفي الهنـد يقا ل إن لون الجو الأزرق ناتج من انعكاس النور على أحد وجوه الجبل القطبي "ميرو"، وهـو الوجه الجنوبي المشكل مـن الـلازورد والمقابـل لــ"جـامبو – دويبـا" (jambu - dwîpa)؛ ومـن السهل فهم أن هذا القول يعود إلى نفس الرمزية. و"جامبو – دويبا" ليست هي الهند فقط، كما

يُعتقد عادة، ولكنها تمثل في الحقيقة جملة العالم الأرضي برمته في وضعه الراهن؛ وهـذا العـالم يمكن بالفعل أن ينظر إليه كأنه واقع بجملته جنـوب "مـيرو" حيـث إن هـذا الجبـل يُطـابَق مـع القطب الشمالي (10). والـ"دويبا" السبعة (حرفيا «الجزر» أو «القارات») تطفوا ظـاهرة علـى التتالي خلال بعض الدورات الزمنية، بحيث كل واحدة منها تصبح حينئذ هي المشكلة للعـالم الأرضي بالنسبة للـدورة المناسـبة لهـا (د)؛ ومجموعهـا علـى شـكل هيئـة زهـرة اللوتـوس (النيلوفر) ومركزها جبل "ميرو" فهي موزعة بالنسبة إليه وفق اتجاهات الفضاء السبعة (11). ومن ثمَّ فلكل واحدة منالـ"دويبا" السبعة وجه مناسب من وجوه "ميرو" متوجه إليها؛ وإذا كـان لكل واحد من هذه الوجوه لون من ألوان قوس قزح (12)، فالحصيلة الجامعة لهذه الألـوان هو اللون الأبيض، الذي ينسب في كل مكان إلى السلطة الروحيـة العليـا (13)، وهـو لـون جبل "ميرو" باعتباره من حيث هو في ذاته (وسنرى بأنـه يـدعى فعـلا ب «الجبـل الأبـيض»)، بينما الألوان الأخرى لا تمثل سوى مظاهره بالنسبة إلى مختلـف ال "دويبـا". ويبـدو أن خـلال دورة ظهور كل واحدة من هذه الأخيرة توجد وضعية مختلفة لجبـل "مـيرو"؛ لكنـه في الحقيقـة ثابت لأنه هو المركز، وإنما اتجاه العالم الأرضي بالنسبة إليه هو الذي يتغير بين دورة وأخرى.

ولنرجع إلى الكلمة العبرية " لوز " التي لها معاني متنوعة جديرة حقا بالوقوف عندها: فهذه الكلمة تدل عادة على ثمرة «اللوز» (وكذلك على «شجرة اللوز»، فبالتوسع في دلالتها تسمى بها الشجرة كما تسمى بها ثمرتها) وعلـى «النـواة»؛ والحـا ل أن النـواة هـي الـشيء الأكثر بطونا والأشد خفاء، وهي مغلقة تماما، ومنه مفهـوم «مـا هـو مـصون مكنـون يتعـذر انتهاكه» (14) (وهو المفهوم الذي نجده كذلك في اسم "أقارنتها"). ونفس كلمة "لوز" هي أيـضا الاسم الذي يُعطَى لجُسَيْم دقيق لطيف لا يبلى، ويمثل رمزيـا بعظـم شـديد الـصلابة، وبعـد الموت تبقى الروح مرتبطة به إلى يوم البعث والنشور (15) (و). ومثلما تحتـوي النـواة علـى البذرة، والعظم على المخ، فإن "لوز" يحتوي على العناصر الكامنة اللازمة لإعادة نشأة الكائن؛ وهذه الإعادة سوف تتم بفعل «الطل السماوي» المحيي للعظام النخرة؛ وإلى هذا المعنى يـشير القديس بولس بأوضح عبارة فيقول: «المزروع في الفساد، سيُبعث في المجد» (16). وهنا، كما هو الحا ل دائما، يرجع «المجـد» إلى ال "شـاكيناه" معتبَـرة في العـالم العلـوي، والـتي لهـا علاقـة

وثيقةبـ«الطل السماوي» حسبما سبق بيانه. وحيث أن "لوز" يستعصي على النفوذ فيه (17)، فهو، في الكائن الإنساني، «نواة الخلود» مثلما أن الموقع الذي يطلق عليه نفس الاسم هو «مقر الخلود»؛ وفي الحالتين تتوقف هنا سلطة «ملك الموت». فـ"لوز"، على هذا النحو، هو بيضة أو بذرة الكائن الخالد (18)؛ ويمكن أيضا تشبيهه بالنَّغَفَة التي ستنطلق منها الفراشة (19)، وهو تشبيه يترجم بالضبط عن دوره بالنسبة للبعث والنشور.

يُحدَد موقع "لوز" في الطرف الأسفل للصُّلب؛ وقد يبدو هذا غريبا، لكنه يصبح واضحا في مقاربة مع ما يذكره التراث الهندوسي عن القوة المسماة "كونداليني" (kundalinî) (20)، والتي هي إحدى أشكال "شاكتي" (shaktî) باعتبار تأصلها الملازم للكائن الإنساني (21). وتمثل هذه القوة على شكل حية ملتفة حول نفسها في موضع من الهيئة اللطيفة للإنسان ((وهي التي تسمى أحيانا: النَسَمة)) يناسب بالتحديد كذلك الطرف الأسفل للعمود الفقري؛ هكذا هو الوضع عند الإنسان العادي على أي حال؛ لكن بفعل ممارسة سلوكات مثل ما يقع في التربية السلوكية المعروفة باسم "هاتها – يوقا" (Hatha-yuga) تستيقظ تلك القوة وتنبسط صاعدة عبر «الدواليب» ("شاكرا" chakras) أو ال «لوتوس» (kamalas) التي تستجيب إلى مختلف الضفائر العصبية العضلية، إلى أن تصل إلى الموضع المطابق للـ«عين الثالثة»، أي عين الجبين التي تسمى عين "شيفا" الجبينية. وهذه المرحلة تمثل العودة إلى «المقام الأصلي الفطري الأول» حيث يسترجع الإنسان «الشعور بالأزلية»، ومن هنا، يفوز بما سميناه في مواقع أخرى بـ«الخلود التقديري» ((أي خلود بالقوة لا بالفعل)). وحتى في هذه المرحلة لم نبرح بعدُ مراتب المقام البشري؛ وفي مرحلة لاحقة، تبلغ "كونداليني" في النهاية ذروة دائرة الرأس (22)؛ وهذه المرحلة الأخيرة تتعلق بالحيازة الفعلية للمقامات العليا للكائن.

والنتيجة التي تبدو من هذه المقاربة، هي أنّ تعيين موقع "لوز" في الجزء السفلي من الهيئة الجسدية لا يطبق إلا على وضع «الإنسان الدوني» ((حرفيا «الإنسان الهابط» لكن المقصود هو الإنسان الغافل المحجوب الذي لا قدم له في أدنى مراتب السلوك الروحي))؛ وكذلك هو الحال عند تعيين موقع المركز الروحي الأعلى في «العالم الديماسي» (23) بالنسبة للبشرية الأرضية بالنظر إلى جملتها.

تعقيبات المؤلف على الباب السابع

1- الكهف أو الغار يرمز إلى تجويف القلب، باعتباره مركز الكائن، ويرمز أيضا إلى باطن «بيضة العالم».

2- كمثال نذكر الفقرة التي تتكلم عن مسألة «الهبوط إلى الجحيم»؛ والذين تسنح لهم الفرصة، يمكن أن يقارنوها بما قلناه حول نفس الموضوع في كتاب "باطنية دانتيه".

3- المعلومات التي نستعملها هنا مقتبسة جزئيا من موسوعة: (Jewish Encyclopedia VIII 219).

4- سفر التكوين (XXVIII، 19).

5- في تراثيات بعض شعوب أمريكا الشمالية، يرد كذلك ذكر شجرة بواسطتها استطاع أناس كانوا يعيشون في البدء في باطن الأرض أن يصعدوا إلى سطحها، بينما أناس آخرون من نفس الجنس بقوا ماكثين في العالم الديماسي. ومن المحتمل أن يكون "بلسوار – ليتون" (Bulwer- Lytton) قد استلهم من هذه التراثيات في كتابه "الجنس المقبل" (The Coming Race). وعنوانه في طبعة أخرى: "الجنس الذي سوف يستأصلنا".

6- من نفس الجذر "كا ل" تشتق كلمات أخرى لاتينية، مثل "caligo" وربما أيضا المركب "occultus". من ناحية أخرى، من الممكن أن تكون صيغة "caelare" واردة في الأصل من جذر مختلف هو "caed" الدال على معنى «قطع» أو «قسم»(ومنه أيضا caedere)، وبالتالي معاني «فرّق» و«خبّأ»؛ لكن على أي حال، فإن الدلالات التي تعبر عنها هذه الجذور، كما نراها، هي قريبة جدا من بعضها البعض، مما أدى بسهولة إلى التشابه بين caelare وcelare، رغم كون هاتين الصيغتين غير مرتبطتين من حيث اشتقاقهما.

7- في تراثيات آسيا الوسطى، توجد علاقات وثيقة بين «سقف العالم» الشبيه بـ«الأرض السماوية» أو «أرض الأحياء»، و«السماء الغربية» التي ملكها "آفالوكيتاشوارا" (Avalokitêshwara). وبخصوص معنى كلمة «غَطى» ينبغي أيضا التذكير بالعبارة الما

سونية «أصبح في مأمن» (أو: احتمى)، وسقف المحفل الماسوني المرصّع بالنجوم يمثل قبة السماء.

8- إنه بُرقع "إزيس"، أو برقع "نايث" (Neith) عند المصريين، وهو «البرقع الأزرق» للأم الكلية في تراث الشرق الأقصى (كتاب "طاو – طي – كينـف، Tao-te-king، الباب VI)؛ وبتطبيق هذا المعنى على السماء المشهودة حسا، يمكن أن نجد فيه إشارة إلى دور الرمزية الفلكية الساترة أو «الكاشفة» للحقائق العليا (ج).

9- اللازورد يلعب دورا هاما في الرمزية التوراتية، وبالخصوص كثيرا ما يظهر في مرائي الأنبياء.

10- الشمال في السنسكريتية يسمى "أوتارا" (Uttara)، أي الصقع الأعلى؛ والجنوب يسمى "داكشينا" (Dakshina)، أي صقع اليمين، أي الذي يكون على يمين الناظر نحو الشرق. وكلمة "أوتارايانا" (Uttarâyana) تعني المسار الصاعد للشمس نحو الشما ل، ابتداء من الانقلاب الشتوي وانتهاء بالانقلاب الصيفي؛ وكلمة "داكشينايانا" (Dakshinâyana) تعني المسار الهابط للشمس ابتداء من الانقلاب الصيفي وانتهاء بالانقلاب الشتوي.

11- في الرمزية الهندوسية (التي احتفظت بها حتى البوذية في قصة «الخطوات السبع») المناطق السبعة للفضاء هي الجهات الأربعة الأصلية مع السمت والنظير، ثم أخيرا المركز نفسه؛ ويمكن ملاحظة أن تمثيلها يشكل صليبا ذا أبعاد ثلاثة (ستة اتجاهات متعاكسة مثنى مثنى انطلاقا من المركز). وكذلك في الرمزية القبالية، «القصر المقدس» أو «القصر الداخلي» (أو الباطني) هو في مركز الاتجاهات الست، والمجموع يشكل السباعية؛ و"كليمونت الإسكندري" يقول بأن «من الإله «قلب العالم» تنبعث الامتدادات اللامحددة، واحدة منها متجهة نحو الأعلى، والأخرى نحو الأسفل، وهذه نحو اليمين، وتلك نحو اليسار وواحدة نحو الأمام، وأخري نحو الخلف؛ وبتوجه نظره نحو هذه الامتدادات كتوجهه إلى عدد مساو لنفسه على الدوام، ينجز إيجاد العالم على التمام؛ هو الأول والآخر (الـ"ألفا" والـ"أوميغا")، فيه تكمل مراحل الدهر الستة، ومنه تستمد توسعها اللامحدد؛ وهنا سر السبعة من العدد» (ذكره "ب. فوليود"، القبالة

العبرية، ج. I، ص. 215-216). وهذا كله يرجع إلى انبساط النقطة الأزلية عبر الزمان والمكان؛ والأطوار الستة للزمان المتناسبة على التتالي مع الجهات الست للمكان، هي ستة مراحل دورية، وهي أجزاء من دورة أخرى أعم وأكبر، وتمثل أحيانا رمزيا بستة آلاف سنة؛ وتقارن أيضا أحيانا بـ«الأيام» الستة التي تم فيها الخلق، والسابع أو "سابا ث" (Sabbath المناسب ليوم السبت) يمثل مرحلة الرجوع إلى المبدأ، أي إلى المركز (ه). وهكذا يكون لدينا سبعة أطوار يمكن أن يرجع إليها على التتالي ظهور ال "دويبا" السبعة؛ وإذا كان كل طور منها يشكل "مانفانتارا"، فإن الدورة الكبرى "كاليا" تتألف من سلسلتين تامتين، في كل سلسلة سبعة "مانفانتارا"؛ ومن المعلوم أن نفس الرمزية يمكن تطبيقها في مستويات مختلفة تبعا لاعتبار دورات زمنية يزيد امتدادها أو ينقص.

12- ينظر ما ذكرناه آنفا حول رمزية قوس قزح. - وفي الحقيقة لا يوجد سوى ستة ألوان، متكاملة مثنى مثنى، ومتناسبة مع الجهات الست المتعاكسة مثنى مثنى؛ واللون السابع ليس سوى اللون الأبيض نفسه، كما أن الجهة السابعة تتطابق مع المركز.

13- وبالتالي فليس بدون سبب أن يكون البابا في سلم المراتب الكاثوليكية لابسا ثوبا أبيض.

14- ولهذا اتخذت شجرة اللوز كرمز للعذراء ((السيدة مريم عليها السلام)).

15- من اللافت للنظر أن هذا العنصر من التراث اليهودي قد ألهم على الراجح "ليبنيتز" بعض نظرياته حول «الحيوان» (أي الكائن الحي) الذي لا يبلى أبدا رغم وجود جسم له، لكنه بعد الموت يكون في شكل «مختصر صغير».

16- "الرسالة الأولى للكورنثيين"، XV، 42. - في هذه الكلمات يوجد تطبيق دقيق لقانون التماثل، أي: «ما يوجد في ا لفوق مماثل لما يوجد في التحت، لكن في الاتجاه المعاكس».

17- كلمة "أكشارا" في السنسكريتية تعني «الذي لا يتلاشى» ((أو: السرمدي))، وبالتالي فهو «لا يبلى» أو «لا يفنى»؛ وهي تعني أيضا مقطع الكلمة، أي العنصر الأول للغة

وبذرتها، وهي تنطبق بكيفية مثلى على الكلمة المقدسة ذات المقطع الواحد "أوم"، التي يقا ل عنها إنها تشتمل في ذاتها على جوهر ال "فيد ا" (Vêda) المثلثة.

18- نجد لهذه البذرة ما يكافئها في شكل آخر في مختلف التراثيات، خاصة في "الطاوية" مع توسعات في شأنها هامة جدا. – وفي هذا الصدد، هذه البذرة على مستوى «العالم الصغير» مماثلة لـ «بيضة العالم» على مستوى «العالم الكبير»، لأنها تحتوي على قدرات «الدورة المقبلة» (هي في العقيدة الكاثوليكية: La vita venturi sœculi).

19- يمكن هنا الرجوع إلى الرمزية الإغريقية حول "بسيشي" (Psyché)، التي تعتمد في جزئها الأكبر على هذا التماثل (ينظر "بسيشي" لـ: "ف. برون" F.Pron).

20- كلمة "كوندالي" (ومؤنثها "كونداليني") تعني الملتف في شكل حلقة أو لولب؛ وهذا الالتفاف يرمز إلى «الوضع الجنيني» أو «الذي لم يتطور بعد».

21- في هذا الصدد، ومن إحدى وجوه الاعتبار، مسكنها يُطابَق أيضا مع تجويف القلب، وقد أشرنا سابقا للعلاقة الموجودة بين "شاكتي" الهندوسية وال "شاكيناه" العبرية.

22- إنها "براهما – رانذرا" (Brahma-Randhra) أو فتحة "براهما"، أي نقطة الاتصال بين "سوشومنا" (Sushumnâ) أو «الشريان الجبهي» مع «الشعاع الشمسي»؛ ولقد شرحنا هذه الرمزية شرحا كاملا في كتاب " الإنسان وصيرورته حسب الفيدانتا".

23- لكل هذا علاقة من أوثق العلاقات مع الدلالة الحقيقية لهذه الجملة الهرمسية التي تعطي الحروف الأولى لكلماتها لفظة "Vitriolum"، وهي:

Visita inferiora terrœ, rectificando invenios occultum lapiden, veram medicinam

و«حجر الحكمة» هو في نفس الوقت «الطب الحقيقي» أي «إكسير الحياة الممدودة» الذي ليس هو سوى «شراب الخلود». – وتكتب أحيانا interiora بدلا من inferiora، لكن المعنى العام لا يتغير، ويبقى دائما نفس التلويح للـ «عالم الديماسي».

1- في العرفان الإسلامي، «مقام الخلود» هو المقام الذي يتحقق به الفائزون بمقام القربة والشهداء في سبيل الله تعالى. والمقربون هم السابقون المذكورون في الآية 28 من سورة المطففين: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، وفي الآية 11 من سورة الواقعة: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وفي آيتها 88: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾. وقد أشار الشيخ ابن العربي إلى تحقق أهل القربة ب «مقام الخلود» حيث قال في بداية الباب 328 المتعلق بسورة الواقعة: [هذا المنزل يعصم الدخول فيه من الموت ما دمت فيه وهو منزل عجيب]. وأما الشهداء فيقول الحق تعالى عنهم في الآية 169 من سورة آل عمران: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

2- "فارون" (116 – 27 ق.م.) كاتب لاتيني موسوعي، عمل محاميا في روما، وكلفه قيصر بتنظيم المكتبات العامة، له تآليف في علوم شتى.

3- تنبيها على الأهمية الكبرى للمواقع الفلكية يقول الحق تعالى في الآيات 75 – 80 من سورة الواقعة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

4- نفس هذا المعنى تقريبا ذكره الشيخ عبد الكريم الجيلي في الباب 52 من كتابه "الإنسان الكامل"، خلال كلامه عن الأراضي السبعة والبحار المحيطة السبعة، فبعد وصفه

للأرض السابعة قال: [اعلم أن أطباق الأرض إذا أخذت في الانتهاء دار الدور عليها في الصعود].

5- حول الأيام السبعة وتناسبها مع السماوات والأنبياء والصلوات اليومية ينظر كتاب "التنزلات الموصلية" للشيخ ابن العربي، وفيه يسمي يوم السبت بـ «يوم الأبد».

6- هذا المعنى مطابق تماما لما نجده في التراث الإسلامي حول «عجب الذنب» الذي هو في أسفل الصلب عند رأس العصعص. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يُركّب الخلق يوم القيامة)، وفي أحاديث أخرى تبين كيفية البعث أن الله تعالى ينزل من السماء مطرا يشبه مني الرجال تمخض منه الأرض فينشأ الله تعالى منه الخلق في النشأة الآخرة قائمة على عجب الذنب. وللتوسع في هذا الموضوع تنظر الأبواب: 62 / 63 / 66 من كتاب "اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر" للشيخ عبد الوهاب الشعراني.

المركز الأعلى المستور خلال ال "كالي – يوقا"

LE CENTRE SUPRÊME CACHÉ PENDANT LE " KALI – YUGA "

فعلا يقال أنّ الـ"أقارتتها" لم تكن ديماسية على الدوام، ولن تبقى كذلك على مرّ الأحقاب؛ بل تبعاً للكلمات التي نقلها السيّد أوسندوسكي، سوف يأتي الوقت الذي «تخرج فيه شعوب "أقهارتي" من كهوفها وتظهر على سطح الأرض» (1). وقبل غيابه عن العالم المشهود، كان لهذا المركز اسم آخر، لأنّ اسم "أقارتتها" الذي يعني «يتعذر إمساكه» أو «يتعذر بلوغه» (ويعني أيضا «مصون محرّم» يتعذر انتهاكه لأنه «مقر السلام») يكون حينئذ غير ملائم؛ والسيد أوسندوسكي يحدد بدقة قائلا أنه أمسى ديماسيا «منذ أزيد من ستة آلاف سنة»، والحال أن هذا التاريخ يتطابق، بتقريب جيد، مع بداية حقبة "كالي - يوقا" أو «العهد الأسود»، أو «عهد الحديد» عند الغربيين القدامى، أي الدورة الأخيرة من الدورات الأربعة التي تنقسم عليها حقبة الـ"مانفانتارا" (2)؛ فعودة ظهور المركز ينبغي أن يتزامن مع نهاية نفس هذه الدورة الأخيرة.

وقد تكلمنا آنفا عن الإشارات الموجودة في كل التراثيات حول أمر مفقود أو مستور ويُمثل برموز مختلفة؛ وهذا عند اعتباره بمعناه العام، المتعلق بجملة البشرية الأرضية، يرجع بالتحديد إلى أوضاع الـ"كالي - يوقا". فالدورة الراهنة هي إذن دورة تعتيم والتباس (3)؛ وأوضاعها مادامت قائمة تستلزم بالضرورة أن تبقى المعرفة الباطنية مستورة (أ)، ومن هنا جاء الطابع المميز للمذاهب المسارية أو لمدارس "الأسرار" في العصور القديمة المسماة بـ«العصور التاريخية» (وهي التي لا يصعد تاريخها حتى إلى بداية هذه الدورة) (4)، وكذلك الطابع الخاص للتنظيمات السرية ((المختصة بالتعليم والتربية الروحية العرفانية)) عند جميع الشعوب، وهي تنظيمات تعطي ((للمريدين المنخرطين فيها)) تربية مسارية فعلية، عندما

تكون جملة المبادئ التراثية الحقيقية لا تزال قائمة حية؛ و لكنها لا توفر من تلك التربية إلا ظلها عندما تكف فاعلية روح هذه المبادئ عن إحياء الرموز التي ما هي إلا التمثيل الخارجي لهذه الروح (ب)؛ ولا يحصل هذا إلا لأن أسبابا شتى تجعل كل صلة مع المركز الروحي للعالم قد انتهت بالانقطاع؛ وهذا هو المعنى الأخص لفقدان التراث الروحي المتعلق تحديدا بهذا المركز الثانوي أو ذاك، عندما يزول ارتباطه المباشر والفعلي بالمركز الأعلى.

وبالتالي، كما قلناه سابقا، ينبغي أن نتكلم بالأحرى عن أمر مستور، بدلا من كونه مفقودا حقيقة، حيث إنه غير مفقود عند الجميع ولا يزال مصونا محفوظا بكامله عند البعض؛ وإذا كان الأمر على هذا المنوال، فللآخرين أيضا دائما إمكانية العثور عليه، بشرط أن يبحثوا عنه كما ينبغي، أي أن يكو ن قصدهم متوجها بحيث يوقظ الاهتزازات التوافقية الإيقاعية وفق قانون «الأفعال وردود الأفعال الملازمة لها (5)» وبواسطتها يتمكنون من الاتصال الروحي الفعلي مع المركز الأعلى(6). ولهذا التوجه تمثيله الرمزي في جميع التراثيات، ونعني به التوجه الشعائري؛ وهذا هو فعلا بالتحديد التوجه نحو مركز روحي، الذي مهما كان شأنه، هو صورة لـ«مركز العالم» الحقيقي (7)(ج). لكن، بمقدار ما يستمر الزمان في الـ"كالي - يوقا"، يمسي هذا المركز أكثر انغلاقا وخفاء، ويصير الاتحاد معه أشد صعوبة، في نفس الوقت الذي تمسي فيه المراكز الثانوية التي تمثله خارجيا أكثر ندرة (8)؛ لكن رغم هذا، فعند انتهاء هذه الحقبة، لابد من عودة ظهور التراث العرفاني الروحي في أكمل صورة من جديد، لأن بداية كل "مانفانتارا"، بتطابقها مع نهاية سابقتها تستلزم بالضرورة، بالنسبة للبشرية الأرضية، الرجوع إلى «الوضع الفطري الأصلي الأول»(9).

وفي أوروبا، كل صلة قائمة على وعي مع المركز بواسطة تنظيمات شرعية صحيحة هي في الوقت الراهن مقطوعة، والأمر على هذا الحال منذ عدة قرون؛ ولم يحصل هذا الانقطاع فجأة واحدة، وإنما مرّ بأطوار متتابعة (10). وأول هذه الأطوار يعود إلى بداية القرن الرابع عشر ميلادي؛ وما ذكرناه سابقا في مواقع أخرى حول تنظيمات الفروسية يمكن أن يساعد على فهم أنّ أحد أدوارها الأساسية كان يتمثل في الاضطلاع بإقامة اتصال بين الشرق والغرب؛ ويمكن إدراك حقيقة مدى هذا الاتصال عندما نلاحظ بأنّ المركز الذي

نتكلم عنه هنا كان ينعت على الدوام، في ما يتعلق بالعصور «التاريخية» على أي حال، بأنه يقع في جهة الشرق. لكن بعد القضاء على تنظيم فرسان الهيكل، واصل تنظيم "وردة الصليب"، أو ما أطلِق عليه هذا الاسم لاحقا، الاضطلاع بالقيام بنفس الصلة ولو بكيفية أكثر خفاء (11). والنهضة مع الإصلاح سجلا طورا جديدا حرجا ((أي في هذا المسار الهابط))، وأخيرا، حسبما يبدو من كلام "سانت - إيف"، فإن الانقطاع التام يكون قد تطابق مع معاهدات "واستفالي" (Westphalie) التي وضعت حدا عام 1648 لحرب الثلاثين سنة (د). والذي يستوقف النظر هو أنّ كثيرا من المؤلفين أكدوا أن بعد نهاية تلك الحرب بقليل تحديدا، غادر المنتمون لتنظيم "وردة الصليب" أوروبا ليلتجئوا إلى آسيا؛ وفي هذا السياق نذكر أنّ المنخرطين في هذا التنظيم ((أو بالأحرى نقباؤه)) كان عددهم اثني عشر، على عدد أعضاء الدائرة الأكثر بطونا في الـ"أقارتتها" ((أي الأقرب إلى المركز))، أي في توافق مع التأسيس المشترك لجُلّ المراكز الروحية المشكلة على صورة هذا المركز الأعلى.

وابتداء من هذا العصر الأخير، لم تبق أمانة تراث المعرفة المسارية الروحية الفعلية محفوظة حقا من طرف أي تنظيم غربي؛ وهذا الذي جعل "سواندانبورغ" (Swedenborg) (ه) يعلن أنّ البحث عن «الكلمة المفقودة» منذ ذلك الحين ينبغي أن يكون عند حكماء التبت وتتاريا (و)؛ ومن جانبها، شهدت آن - كاترين إيمريش" (Anne -Catherine Emmerich) في كشفها موضعا تكتنفه الأسرار يسمى «جبل الأنبياء» ويقع في نفس تلك المناطق (ز). ونضيف بأنّ "مادام بلافاتسكي" (Mme.Blavatsky) قد التقطت بعض المعلومات المقتطفة جزئيا حول هذا الموضوع، وهي التي ولدت عندها فكرة «الغرفة البيضاء العظمى» التي يمكن أن نطلق عليها، ليس اسم: صورة للـ"أقارتتها"، وإنما فقط مجرد كاريكاتور، أو محاكاة محرّفة ساخرة لها (12) (ح).

تعقيبات المؤلف على الباب الثامن

1- هذه الكلمات هي التي ختم بها «مليك العالم» نبوة نطق بها سنة 1890، عندما ظهر في دَيْرنارابانشي ((في منغوليا)).

2- الـمانفانتارا أو: عهد الحقبة التي أشرف على انطلاقها مانو واحد، وتسمى أيضا ماها- يوقا تشتمل على أربع يوقا (yugas) أو دورات ثانوية وهي: كريتا – يوقا(أو ساتيا – يوقا)، وتريتا – يوقا، ودوابارا – يوقا وكالي - يوقا، وهي تتطابق على التتالي مع «عصر الذهب» و«عصر الفضة» و«عصر البرونز» و«عصر الحديد»، أي العصور الأربعة المعروفة في التاريخ الإغريقي اللاتيني القديم. وفي تسلسل هذه الدورات، يوجد نوع من التكثيف المادي المتزايد تدريجيا، نتيجة الابتعاد عن المبدأ الملازم بالضرورة لتطور الظهور الدوري، في العالم الجسماني، انطلاقا من «الوضع الأصلي الفطري الأول».

3- بداية هذا العصر، خاصة في الرمزية التوراتية تمثل ببرج بابل و«بلبلة الألسن». ويمكن منطقيا التفكير في أن الهبوط ((أي هبوط آدم وحواء عليهما السلام من الجنة إلى الأرض)) والطوفان ((أي طوفان نوح عليه السلام)) يناسبان نهاية العهدين الأول والثاني؛ لكن في الحقيقة، نقطة انطلاق الملة العبرية لا تتطابق مع بداية الـمانفانتارا. وينبغي أن لا ننسى بأن القوانين الدورية يمكن تطبيقها في مستويات مختلفة، على أحقاب متفاوتة في مدتها، وتتداخل أحيانا في بعضها البعض، مما يتسبب في تعقيدات يمكن أن تبدو لأول وهلة مستعصية على الحل؛ وبالفعل لا يمكن حلها إلا باعتبار تدرج تسلسل التبعية التي تربط المراكز الثانوية مع بعضها البعض وفق تناسبها مع تلك الأحقاب.

4- لا يبدو بتاتا أنه لوحظ كما ينبغي العجز العام تقريبا الذي يقع فيه المؤرخون عندما يريدون إقامة تسلسل زمني يقيني للأحداث التاريخية لكل ما هو سابق على القرن السادس قبل العهد المسيحي.

5- هذه العبارة مقتبسة من المذهب الطاوي ((أي المذهب السلوكي العرفاني في الملة القديمة للصين))؛ من ناحية أخرى نأخذ هنا كلمة «قصد» بمعنى مطابق بالضبط لدلالتها في العربية أي «النية» التي تترجم عادة بكلمة: "intention"، وهذا المعنى مطابق للاشتقاق اللاتيني (توجه نحو: in-tendere).

6- هذا الذي قلناه يسمح بتفسير للكلمات التالية من الإنجيل بمعنى دقيق جدا: «ابحثوا وستجدون؛ واسألوا وستأخذون؛ واطرقوا الباب وسيفتح لكم».ويمكن هنا طبعا الرجوع إلى التنبيهات التي ذكرناها سابقا بصدد «النية القويمة» و«صدق النية» ((أو «العزيمة الصادقة» أو «صدق التوجه))؛ ومن هنا يمكن بلا عناء تفسير هذه الجملة:
Pax in terra hominibus bonae voluntatis

7- في الإسلام، هذا التوجه نحو القبلة، هو كالتجسيد للنية، إذا أمكن التعبير هكذا. وتوجيه الكنائس المسيحية هو حالة أخرى خاصة ترجع في جوهرها إلى نفس المفهوم.

8- من المعلوم أن المقصود هنا هو تمثيل خارجي نسبي، لأن هذه المراكز الثانوية هي نفسها مغلقة بإحكام إغلاقا يزيد أو ينقص منذ بداية "كالي – يوقا".

9- أي هو ظهور أورشليم السماوية، التي هي بالنسبة للدورة المنتهية، مثل الجنة الأرضية بالنسبة للدورة المبتدأة، حسبما شرحناه في "باطنية دانتيه".

10- في وجهة نظر أكثر اتساعا، يوجد كذلك بالنسبة للبشرية درجات مختلفة في الابتعاد عن المركز الأصلي الأول، واختلاف هذه الدرجات يتطابق مع التمييز بين الأحقاب الدورية الأربعة أي "اليوقا" الأربعة.

11- حول هذه النقطة، نحن مضطرون مرة أخرى للإحالة إلى بحثنا حول "باطنية دانتيه"، حيث قدّمنا كل الدلائل التي تسمح بتبرير هذا القول.

12- الذين يفهمون الاعتبارات التي نعرضها هنا، يرون فيها لماذا يستحيل علينا الأخذ مأخذ الجد مختلف التنظيمات المسارية المزيفة ((أي التي تزعم توفير تربية روحية أو عرفانية)) في الغرب الحديث: فعندما تخضع لفحص دقيق ولو قليلا، لا توجد منها واحدة يمكن أن تقدّم أدنى دليل على «شرعيتها» .

تعقيبات المعرب على الباب الثامن

1- هذا المعنى نجده في كلام كثير من العارفين المسلمين. وفي صحيح البخاري أن أبا هريرة ﷺ قال: [حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع مني هذا البلعوم]. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾: [لو ذكرت تفسيره لرجمتموني، وفي رواية: لقلتم إني كافر]. وقال الإمام علي زين العابدين حفيد علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما:

يا رب جوهر علم لو أبوح به	لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إني لأكتم من علمي جواهره	لئلا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا

وحول علوم الأسرار تنظر مقدمة كتاب الفتوحات المكية للشيخ ابن العربي.

2- حول تفصيل الدلالات العرفانية والوجودية والمعاني الروحية للعبادات الإسلامية تنظر في الفتوحات لابن العربي الأبواب: 68 / 69 / 70 / 71 / 72 وكتابه "التنزلات الموصلية" في أسرار الطهارة والصلاة، وينظر الباب 63 من كتاب "الإنسان الكامل" للشيخ عبد الكريم الجيلي، وكتاب "أسرار الحج" للحكيم الترمذي.

3- قال تعالى في الآيتين 149-150 من سورة البقرة: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾، وفي الآيتين 144-150 من نفس السورة: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾.

4- هذا التاريخ يتطابق تقريبا مع سنة 1040 هجرية. وقد صرح العديد من العرفاء أن دورة الحضارة الدجالية الكبرى انطلقت في هذا التاريخ، أي عند نهاية ألف سنة بعد انتهاء الخلافة الراشدة.

5- "سوادونبورغ" (1688-1772): عالم وفيلسوف مسيحي إشراقي من السويد، ذو نزعة روحية لا تتفق في بعض جوانبها مع تعاليم الكنيسة،يقول عن نفسه أنه فُتح له في مشاهدة العوالم الغيبية والاتصال بأرواح الموتى والملائكة، وله تآليف كثيرة، وله أتباع في أمريكا وأنجلترا.

6- الحق أنّ "الكلمة المفقودة" في الفكر الغربي ليست سوى القرآن العظيم المنزل من الله رب العالمين على خاتم المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، الذي نسخت شريعته الشرائع السابقة لقوله تعالى في الآية158 من سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. ومؤلف هذا الكتاب الشيخ عبد الواحد يحي – رحمه الله تعالى – هو من الذين هداهم الله للإسلام وعمره نحو 25 سنة، وكان ملتزما تماما بالشريعة والتقوى والزهد والورع الكامل، إلى أن توفي وهو يردد الاسم الأعظم: (الله الله الله). والكثير ممن تأثروا بقراءة كتبه وبإشعاع حركته الروحية أسلموا وسلكوا طريق التصوف السني النقي القويم.

7- "آن – كاترين إيمريش" (1774 – 1824): راهبة مسيحية ألمانية، عاشت جل عمرها مريضة متعبدة مستغرقة في مشاهداتها الكثيرة حول قصص التوراة والإنجيل، وقد جُمعت مشاهدها في مجموعة من الكتب وترجمت إلى عدة لغات. وفي سنة 2004 اعترف بها كقديسة من طرف الكنيسة برئاسة البابا "جون – بول II".

8- "مادام بلافاتسكي" (1837 – 1891) كانت رئيسة في تنظيم "التيبوصوفيزم" وهو يمثل نحلة ظهرت وانتشرت في الغرب في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين؛ وقد كتب الشيخ عبد الواحد يحي سنة 1921 كتابا كبيرا مفصلا في بيان أباطيل تدجيلها وزيف مزاعمها.

الباب التاسع

الـ « أومفالوس » والحجارة المقدسة (البيتيل)

L' «OMPHALOS» ET LES BÉTYLES

حسبما يروي السيد أوسندوسكي، لقد ظهر «مليك العالم» في عهد قديم، مرات عديدة، في الهند وفي سيام (أي تايلاند حاليا)، "مباركا الشعب بتفاحة من ذهب يعلوها حمل" وهذا التدقيق يأخذ كل أهميته عند مقاربته مع ما يقوله "سانت إيف" عن "دورة الحمل والكبش"(1). ومن جانب آخر أشد لفتا للانتباه، يوجد في الرمزية المسيحية ما لا يحصى من التمثيلات لحمل فوق جبل تنزل منه أربعة أنهار، هي بالطبع مطابقة لأنهار الجنة الأرضية (2) (أ). والحال أننا ذكرنا بأن "الأقارتتها"، قبل بداية الـ"كالي - يوقا"، كانت تحمل اسما آخر، وهذا الاسم هو "باراديشا" (Paradêcha) الذي يعني بالسنسكريتية» الصقع الأعلى «وهو ينطبق بالتأكيد على المركز الروحي الأمثل، المسمى أيضا بـ "قلب العالم"؛ و من هذه الكلمة اشتق الكلدانيون لفظة "باردس" (Pardes) والغربيون لفظة "باراديس" (Paradis) (والعرب لفظة "فردوس" الواردة في القرآن الكريم مرتين)). وهذا هو المعنى الأصلي لهذه الكلمة الأخيرة، وبه يكمل تفهيم لماذا قلنا سابقا بأن المقصود هنا هو دائما، في شكل أو في آخر، نفس ما تعنيه كلمة "باردس" في القبالة العبرية.

من ناحية أخرى، بالرجوع إلى ما شرحناه حول رمزية "القطب" من السهل أيضا رؤية أن جبل الجنة الأرضية يتطابق مع "الجبل القطبي" المسمى بأسماء مختلفة، والمذكور في جميع التراثيات تقريبا: فلقد ذكرنا سابقا جبل "ميرو" عند الهندوس، وجبل "البرج" عند الفرس، وكذلك جبل "مونتسالفات" الوارد ذكره في السردية الغربية حول "القرال" أو الكأس المقدسة، ونسجل أيضا جبل "قاف" عند العرب بـ (3)، بل حتى جبل " الأولمب" عند الإغريق حيث إن له من عدة حيثيات نفس الدلالة. والمقصود دائما هو منطقة أمست، مثل الجنة الأرضية، يتعذر بلوغها على البشرية العادية (أي على عامة الناس)، كما لا تطولها جميع الكوارث التي

تقلب أوضاع العالم الإنساني عند نهاية بعض الأحقاب الدورية، هذه المنطقة هي حقا "الصقع الأعلى"؛ وزيادة على هذا، وحسب بعض النصوص الفيدية (أي نسبة للفيدا الكتاب الهندوسي المقدس) (والأفستية) (أي نسبة للأفستا الكتاب المقدس عند الفرس المنسوب لزرادشت)، فإن موقعه كان في البدء قطبيا، حتى بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة؛ ومهما كان الأمر في تحديد موقعه عبر مختلف أطوار تاريخ البشرية الأرضية، فهو باق على الدوام في مكانته القطبية بالمعنى الرمزي (أي القطبية المعنوية) حيث إنه يمثل أساسيا المحور الثابت الذي يتم حوله دوران كل الأشياء.

والجبل يمثل بالطبع "مركز العالم" قبل حقبة كالي - يوقا أي، إذا صح القول، عندما كان مفتوحا (لمن يرغب في الوصول إليه)، ولم يكن حينذاك ديماسيا؛ وبالتالي فوضعه كان متطابقا مع ما يمكن تسميته بموقعه الطبيعي السوي، المستقل عن دورة التعتيم التي تستلزم أوضاعها الخاصة نوعا من الانتكاس للنظام القويم الوطيد المكين. وبصرف النظر عن هذه الاعتبارات المتعلقة بالقوانين الدورية، ينبغي إضافة أن لكل من رموز الجبل والكهف مبررات لوجودها، كما يوجد في ما بينها تكامل حقيقي (4)؛ وإضافة إلى هذا يمكن اعتبار الكهف كأنه واقع في باطن الجبل نفسه، أو تحته مباشرة.

وتوجد أيضا في التراثيات العتيقة، رموز أخرى تمثل "مركز العالم"؛ وربما يكون من أبرزها الـ"أومفالوس"، الذي نجده كذلك عند جميع الشعوب تقريبا (5) واللفظة الإغريقية "أومفالوس" ((وهو اسم لحجر مقدس ينصب عادة داخل معبد)) تعني "السرة"، لكنه يعني أيضا بصفة عامة، كل ما يقوم مقام المركز، وبالأخص قبّ الدولاب ((أي ثقبه المركزي))؛ ولفظة "نابهي" (Nabhi) السنسكريتية لها كذلك نفس هذه الدلالات، مثلما هو الحال في اللغات السلتية والجرمانية بالنسبة للألفاظ المشتقة من نفس الجذر الموجود فيها بصيغة "ناب" (Nab) أو "ناف" (Nav)(6). ومن جانب آخر، في اللغة الغالية (أي لغة بلاد الغال) كلمة "ناف" (Nav) بالضغط المشدد على حرف الفاءأو "نافNaf": بتخفيف الفاء، المطابقة طبعا للجذرين المذكورين، تعني "الرئيس" ويطلق على الإله؛ وبالتالي، فالمُعَبّر عنه هنا هو مفهوم المبدأ المركزي (7) (ج). ودلالة "القب" لها في هذا الصدد أهمية متميزة، لأن الدولاب في كل مكان رمز

للعالم في دورانه حول نقطة ثابتة، وبالتالي هو رمز ينبغي مقاربته مع رمز الصليب المعقوف "سواستيكا"؛ لكن في هذا الأخير، المحيط الممثل لمجال الظهور غير مسطر، بحيث إنّ المركز هو المسمى مباشرة بـ"سواستيكا": إذن فـ"السواستيكا" لايمثل رمزا للعالم، ولكنه بالتأكيد رمز لفعل المبدإ بخصوص العالم (د).

ورمز "الأومفالوس" كان بالإمكان إقامته في موقع هو ببساطة مركز لمنطقة معينة، وهو مركز روحي أَوْلَى منه بالمركز الجغرافي، رغم تطابق المركزين الواقع في بعض الحالات. وما كان الشأن على هذا المنوال، إلا لأن هذه النقطة المركزية كانت حقا، بالنسبة للشعب المقيم في المنطقة المعتبرة، صورة مشهودة لـ"مركز العالم"، مثلما أن الملة الخاصة بهذا الشعب ما هي إلا تكييف للملة الأصلية الأولى في الشكل الأنسب لعقليتها ولأوضاع وجودها (هـ). و"أومفالوس" معبد مدينة "ديلفي" (أي المدينة المقدسة في اليونان عند الإغريق القدامى)، هو المعروف بالخصوص في ما جرت به العادة؛ فهذا المعبد كان حقا المركز الروحي لليونان العتيقة (8)؛ وبدون أن نلح على جميع الأسباب المبرِّرة لهذا القول، ننبه فقط إلى أن في ذلك الموقع بالتحديد كان يجتمع مرتين كل سنة مجمع النواب في منتدى مدن اليونان ((Les Amphictyons، أي منتدى ممثلي كل الشعوب الهيلينية، الذي يشكل الرابطة الفعلية الوحيدة بين هذه الشعوب؛ وقوة هذه الرابطة كانت تكمن بالتحديد أساسيا في طابعها المحافظ على أمانة التراث الروحي.

هذا والتمثيل المادي للـ"أومفالوس" يتجسد عموما في حجر مقدس، وهو المسمى في كثير من الأحيان بـ"بيتيل"؛ ويبدو أن هذه اللفظة الأخيرة ليست سوى الكلمة العبرية "بيت - إل" أي "بيت الله"، أي نفس الاسم الذي أطلقه يعقوب ﷺ على المحل الذي وقع له فيه تجلي الرب- تعالى- في رؤيا رآها (نصها كما في التوراة: "واستيقظ يعقوب من نومه وقال: يقينا أنّ الرب متجل في هذا المحل، ولم يكن عندي علم به. وجزع وقال: هذا المحل كم هو رهيب إنه بيت الله وباب السماوات . وقام يعقوب باكرا في الصباح، وأخذ الحجر الذي توسده (عندما رأى تلك الرؤيا)، ونصبه كالعمود، وصب على قمته زيتا (ليباركه). وأطلق على هذا المحل اسم "بيت- إل" ((Beith- El))؛ لكن الاسم الأول لهذه المدينة كان "لوز" (9) «ولقد

شرحنا سابقا دلالة هذا الاسم "لوز"؛ ومن جانب آخر، قيل أيضا إن "بيتإل" "بيت الله" أصبح بعد ذلك "بيت لحم" ((Beith - Lehem أي» بيت الخبز «وهي المدينة التي ولد فيها المسيح ﷺ (10)؛ والعلاقة الرمزية الموجودة بين الحجر والخبز جديرة جدا بالتنبه إليها (11). والذي ينبغي ملاحظته أيضا هو أن اسم "بيت – إل" لا ينطبق على الموقع فقط، وإنما على الحجر نفسه (حيث قال عنه يعقوب): وهذا الحجر الذي نصبته كالعمود، سيكون بيت الله (12)"؛ وبالتالي فإن هذا الحجر هو الذي ينبغي أن يكون بالتحديد "السكن الإلهي" ("ميشكان" Mishkan)، كالتسمية التي ستعطى بعد حين إلى المظلة، أي مقر الـ" شاكيناه"؛ وهذا كله متعلق طبعا بمسألة "الفعاليات الروحية" (باراكوث " Berakoth بالعبرية)؛ وعندما يكون الكلام عن "تقديس الأحجار" الذي كانت تشترك فيه الكثير من الشعوب القديمة، لابد من الفهم جيدا بأن هذا التقديس لم يقصد به الحجارة نفسها، وإنما المقصود الألوهية التي كانت تلك الحجارة مظهرا رمزيا لحضورها.

والحجر الممثل للـ"أومفالوس" يمكن أن يكون على شكل عمود، مثل حجر يعقوب؛ ومن الراجح أنّ بعض النصب العمودية الحجرية ((التي تسمى: منهير)) عند الشعوب السلتية كانت لها نفس الدلالة، والاستخارة الربانية بواسطة وسطاء الإلهام أو الوحي كانت تتم بالقرب من تلك الحجارة، مثلما كان واقعا في مدينة دلفي اليونانية.

ويمكن تفسير هذه الظاهرة بسهولة، حيث إنها كانت تعتبر كسكن لتجلي الحضور الإلهي؛ و"بيت الله" ينطبق بطبيعة الحال تماما مع "مركز العالم". ويمكن تمثيل الـ"أومفالوس" أيضا بحجر في شكل مخروطي، كحجر "سيبال" (Cybéle) الأسود ((الذي كان يمثل رمزا لمظهر الربوبية المتوجه على الإخصاب والتوالد في العالم الإغريقي الروماني القديم))، أو في شكل بيضوي؛ والمخروط يذكر بالجبل المقدس رمز "القطب" أو"محور العالم"؛ وأما الشكل البيضوي، فيتعلق مباشرة برمز آخر هام للغاية وهو "بيضة العالم" (13) ويمكن أيضا إضافة أنّ الـ"أومفالوس"، إذا كان يُمثل عادة في غالب الأحيان بحجر، فمن الممكن كذلك تمثيله، كما وقع أحيانا أخرى، بأكمة (أو تلة أو ربوة) أي نوع من الجثوة ((أي ركمة تراب أو بناء حجري بشكل مخروطي)) هي صورة للجبل المقدس. ولهذا كانت تقام في الصين قديما، في

مركز كل مملكة أو ولاية إقطاعية، جثوة على شكل هرم مربع الزوايا يتألف من تراب "المناطق الخمسة"؛ فوجوهه الأربعة تتناسب مع الجهات الأصلية الأربعة، والقمة تتناسب مع المركز ذاته (14) ومن العجيب أننا نجد مرة أخرى هذه "المناطق الخمسة" في إيرلنده، حيث "الحجر القائم للرئيس" كان بكيفية مماثلة منصوبا في مركز كل ولاية (15).

وإرلنده، بالفعل، هي التي من بين البلدان السلتية، توفر أكبر عدد من المعطيات المتعلقة بال "أومفالوس"؛ وقد كانت قديما مقسمة إلى خمس ممالك، إحداها تحمل اسم "ميد" (mide، وبقي على الصيغة الإنجليزية "ميث" Meath)، الذي هو الكلمة السلتية القديمة "مديون" (Medion)، أي "وسط" المطابقة للكلمة اللاتينية "مديوس" (Medios) (16). ومملكة "ميد" هذه التي تألفت من أجزاء أخِذت من أقاليم الممالك الأربعة الأخرى، أصبحت إقطاعا مخصصا للملك الأعلى لإرلنده، والملوك الآخرون تبع له (17). وفي "أوشناغ" (Ushnagh) التي تمثل بالضبط تقريبا مركز البلاد، أقيم حجر ضخم يسمى "سرة الأرض" ويطلق عليه أيضا اسم "حجر الحصص" (أو: حجر الأقسام) ("إيلناميران" Ailna - meeran)، لأنه يجسد الموقع الذي تتقاطع فيه داخل مملكة "ميد" الخطوط الفاصلة بين الممالك الأربعة الأصلية. وفي أول ماي من كل سنة، كان يقام عنده جمع عام مماثل تماما لتجمع الدرويد السنوي في "المحل المركزي المقدس" "ميديو – لانون" Media - Lanon، أو "ميديو – نيميتون" Medio - nemeton) من بلاد الغال ((La gaule أي البلاد التي كانت تشمل قديما فرنسا وبلجيكا وإيطاليا الشمالية)) في منطقة "الكرنوت" (Les carnutes) ((أي في المنطقة التي تبعد حوالي 100 كيلومتر عن العاصمة الفرنسية باريس جنوبا وغربا منها)). والمقاربة مع تجمع ممثلي الشعوب الهيلينية دلفي ((أي المدينة المقدسة اليونانية قديما)) يفرض نفسه هنا كذلك.

وهذا التقسيم لإرلنده إلى أربعة ممالك، زيادة على المنطقة المركزية التي كانت مقرا للرئيس الأعلى، مرتبط بتراثيات قديمة للغاية. وبالفعل، فإنها لهذا السبب كانت تسمى بـ "جزيرة السادة الأربعة" (18)، ولكن هذه التسمية، كتسميتها بـ "الجزيرة الخضراء"، كانت قبل ذلك تطبق على أرض أخرى أبعد منها بكثير نحو الشمال، وأمست اليوم مجهولة، أو ربما مفقودة، وتسمى "أوجيجيا" (Ogygie)، أو بالأحرى "ثولي" (Thulé)، التي كانت إحدى المراكز

الروحية الرئيسية إن لم تكن هي المركز الأعلى في حقبة معينة. وذكرى "جزيرة السادة الأربعة" هذه، نجدها مرة أخرى حتى في التراث الصيني، وهو مما لم يلاحظ سابقا أبدا حسبما يبدو؛ وها هو نص طاوي ((أي نسبة للطاوية المذهب الباطني العرفاني في الملة الصينية القديمة)) يشهد بذلك: الامبراطور "ياو" أتعب نفسه كثيرا، وتصور أنه حكم بكيفية ممتازة مثالية. وبعد أن قام بزيارة السادة الأربعة، في الجزيرة النائية، جزيرة "كو - شي"، التي يسكنها» أناس حقيقيون « "تشان - جان" أي رجال فازوا بالتحقق بمقام» الوضع الفطري الأصلي الأول «اعترف بأنه فشل في كل شيء، ذلك أن الهدف الأسمى هو حرية الاستواء ((أي تساوي انفعال الشعور في الفعل وعدم الفعل، أو خلو البال وتساوي الشعور إزاء كل الحوادث الإيجابية منها والسلبية "و) (أو بالأحرى التجرد الروحي من كل الأغيار، والاستقرار في النشاط» الذي لا فعل له في الظاهر) وهو مقام "الإنسان الفوقي" (19) (Le sur - homme) الذي لا يعارض دوران الدولاب الكوني (20). ومن جانب آخر، ثمة تطابق بين السادة الأربعة و"المهارجا" (Maharajas) الأربعة أو "الملوك الكبار" القائمون على الجهات الأصلية (21)، وفي نفس الوقت يوجد بينهم وبين العناصر تناسب أيضا: والسيد الأعلى، أي خامسهم، المستقر في المركز، فوق الجبل المقدس، هو نظير الأثير (أكاشا) أي العنصر الجوهري الأصلي (كيتنا إيسانسيا" Quinta essentia) عند الهرمسيين، أو العنصر الأول الذي منه تنشأ العناصر الأربعة الأخرى ((أي النار والهواء والماء والتراب))؛ وفي أمريكا الوسطى توجد كذلك تراثيات مماثلة لهذه التي ذكرناها.

تعقيبات المؤلف على الباب التاسع

1- نذكر هنا بما أشرنا إليه سابقا في موقع آخر حول العلاقة الموجودة بين "أنيي" (Agni) الفيدية ورمز الحمل (("أنيي" هو مظهر الربوبية المتوجه على الحرارة والنار في الملة الهندوسية)) ("باطنية دانتيه"، طبعة 1957، ص. 69 – 70، "الإنسان وصيرورته حسب الفيدنتا"، ص. 43)؛ فالحمل في الهند يمثل مطية "أنيي". من جانب آخر، السيد أوسندوسكي ينبّه مرات عديدة على أنّ تقديس "راما" ((الذي هو إحدى مظاهر "فيشنو" مظهر الحفظ الإلهي للوجود، في الهندوسية)) لا يزال مستمرا في منغوليا إلى اليوم. وبالتالي فيوجد هنا أمر آخر غير البوذية، بعكس ما يدعيه غالبية المستشرقين. ومن ناحية أخرى، حول ذكريات "دورة رام" التي لا تزال قائمة حتى وقتنا الراهن في كمبوديا، بلغتنا معلومات بدت لنا في منتهى الغرابة إلى حد أننا فضلنا السكوت عنها؛ فلا نسجل هذه الواقعة إذن إلا للذكرى.

2- نشير أيضا إلى تمثيلات للحمل على الكتاب المختوم بسبعة أختام والمذكور في رؤيا القديس يوحنا المتعلقة بنهاية العالم؛ وتراث الملة اللامية في التبت يملك كذلك سبعة أختام تكتنفها الأسرار، ولا نظن أن هذه المقاربة مجرد مصادفة.

3- يقال عن جبل "قاف" أنه لا يمكن الوصول إليه لا بالبر ولا بالبحر (ينظر ما قيل سابقا عن جبل "مونتسالفات")، ومن أساميه الأخرى "جبل الأولياء" الذي يمكن مقاربته بـ"جبل الأنبياء" الذي ذكرته "آن كاترين إيمريش".

4- هذا التكامل هو تكامل المثلثين المتداخلين في اتجاهين متعاكسين، والمشكلين لـ "خاتم سليمان"؛ ويقارن كذلك بتكامل رمزَيْ الرمح والكوب، اللذين تكلمنا عليهما سابقا، وبتكامل رموز أخرى كثيرة مكافئة لهذه المذكورة.

5- في كتاب عنوانه "أومفالوس"، ظهر في سنة 1913، جمع مؤلفه "و هـ. روشر" كمّا هائلا من الوثائق المثبته لهذه الحقيقة عند الشعوب الأكثر تنوعا؛ لكن يؤخذ عليه زعمه بأن هذا الرمز مرتبط بالفكرة التي تتصور بها تلك الشعوب هيئة الأرض، فتخيل أن

المقصود هو الاعتقاد بوجود مركز فوق سطح الأرض، بالمعنى الحرفي الأكثر غلظة؛ ورأيه هذا يدل عل جهل تام بالدلالات العميقة للرمزية.في ما يلي، نستعمل بعض المعلومات الواردة في بحث السيد "ج. لوط" الذي عنوانه "الأومفالوس عند السلت"، المنشور في "مجلة الدراسات القديمة" (جويلية سبتمبر 1915).

6- في الألمانية "ناب" (Nabe)، أي قب، و"نابال" (nabel) أي سرة؛ وكذلك في الإنجليزية "ناف" (nave) و"نافال" (navel)، ولهذه اللفظة الأخيرة أيضا دلالة عامة على المركز أو الموقع الأوسط. والكلمة الإغريقية: "أومفالوس" واللاتينية: "أومبيليكوس" (Umbilicus) مشتقان من مجرد تحوير لنفس الجذر.

7- "في كتاب "ريف فيدا"، "أنيي" تسمى بـ"سرة الأرض"، وهذا المعنى يتعلق كذلك بنفس المفهوم؛ وكما ذكرناه سابقا، فإن الصليب المعقوف يعتبر في كثير من الأحيان رمزا لـ"أنيي".

8- في اليونان كانت توجد مراكز روحية أخرى، لكنها كانت مكرسة بالأخص إلى التربية الروحية والعرفانية المتعلقة بالأسرار، مثل "الوزيس" ((Eleusis وهي بلدة قرب أثينا)) و"ساموتراقيا" ((Samothrace وهي جزيرة يونانية في شمال بحر إيجه))، بينما كان لمدينة دلفي دور اجتماعي يتعلق مباشرة بمجموع الأمة الهيلينية.

9- سفر التكوين، XXVIII، 1619.

10- يلاحظ التماثل الصوتي لـ"بيت لحام" (Beith-Lehem) مع صيغة "بيتالوهيم" (Beith-Elohim)، وهو ظاهر أيضا في نص سفر التكوين.

11- "المُغوي ((الفتان إبليس))، مقتربا من المسيح يقول له: إن كنت ابنا للرب، فأمر هذه الحجارة لتصبح خبزا" (أنجيل متى، 17، 3؛ أنجيل لوقا، 17، 3).ولهذه الكلمات دلالة ذات سر، تتعلق بما سنوضحه هنا: وهو أن المسيح كان ملزما بالقيام بمثل ذلك التحويل، لكن روحيا، لا ماديا كما يرومه إبليس؛ والحال أن المجال الروحي مماثل للمجال المادي ولكن في اتجاه معاكس، وعلامة الشيطان هي أخذه للأمور كلها منكوسة في المنحى المقلوب. فالمسيح نفسه، كتجلي للكلمة الإلهية هو "الخبز الحي

النازل من السماء"، ولهذا كانت الإجابة قوله: "الإنسان لا يحيا بالخبز فقط، بل بكل كلمة يقولها الرب" وهذا الخبز هو الذي كان ينبغي أن يقوم مقام الحجر كـ"بيت الله" في "العهد الجديد"، ونضيف أيضا بأن هذا هو سبب انقطاع المتلقين للوحي الإلهي ((أي في الأمة الإسرائيلية)).

وبصدد هذا الخبز الذي يتطابق مع "لحم" الكلمة الإلهية المتجلية، قد يكون من المهم الإشارة أيضا إلى أن الكلمة العربية "لحم"، التي هي نفس الكلمة العبرية "لاحام"، تعني "اللحم" تحديدا، بدلا من "الخبز".

12- "سفر التكوين"، X X V I I I، 22.

13- أحيانا، ولاسيما على بعض حجارة الـ"أومفالوس" الإغريقية، توجد حية ملتفة حول الحجر؛ ونرى أيضا هذه الحية ملتفة في قاعدة و في قمة النصب الكلدانية، التي ينبغي أن تعتبر كـ"حجارة مقدسة" حقيقية (بيتيل). هذا، ورمز الحجر، كرمز الشجرة (التي هي مثال آخر لـ"محور العالم")، بصفة عامة، له علاقة وثيقة مع رمز الحية؛ ونفس الشيء مع رمز البيضة، خاصة عند السلت والمصريين القدامى ((ومن المعلوم في الرمزية الصوفية أن جبل قاف المحيط بالأرض، قمته في السماء الأولى وحجارته من الياقوت الأخضر، وتطوّقه حية عظيمة ذنبها عند رأسها)). وكمثال بارز لأشكال "الأومفالوس" بيتيل "كرماريا"، فشكله العام على هيئة مخروط غير مستقيم، مستدير في قمته، وعلى أحد وجوهه رمز الصليب المعقوف "سواستيكا". والسيد "ج. لوط"، أعطى في بحثه الذي ذكرناه سابقا صورا لهذا الـ"بيتيل" وبعض الصور لأحجار من نفس الطراز.

14- في التراث الصيني، للعدد 5 أهمية رمزية متميزة جدا.

15- "براهون لاوس" (Brehon Laws)، ذكره "ج.لوط".

16- يلاحظ أيضا أن الصين تدعى باسم "مملكة الوسط".

17- عاصمة مملكة "ميد" كانت تسمى "تارا" (Tara)؛ والحال، أن الكلمة "تآرآ" (Târâ)، في السنسكريتية، تعني "نجمة" وتدل بالأخص على النجمة القطبية. ((وفي القرآن الكريم

الآية 143 من سورة البقرة: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وتوجد بحوث كثيرة في بيان مركزية مكة المكرمة الحسية والمعنوية، وتسمى الكعبة أيضا مركز الأرض)).

18- اسم القديس "سانت باتريس" (Saint Patrice)، الذي لا يُعرف عادة إلا في صيغته اللاتينية، كان في الأصل: "كوثريج" (Cothraige)، الذي يعني "خادم الأربعة".

19- "الإنسان الحقيقي"، بتموقعه في المركز، لم يعد يساهم في حركة الأشياء، ولكنه في الحقيقة، يسير هذه الحركة بمجرد حضوره، لأن "فعل السماء" ينعكس فيه.

20- من كتاب "تشوانغتسيا" (Tchoang - Tseu)، الباب الأول؛ ترجمة "ب.ل.ويجر"، ص.213. وقد قيل إن الإمبراطور "ياو" حكم في سنة 2356 قبل الميلاد.

21- هنا يمكن أيضا إقامة مقاربة مع الأوتاد الأربعة في التصوف الإسلامي.

22- في الصور ذات الشكل الصليبي، مثل "سواستيكا"، هذا العنصر الأصلي يمثل كذلك بالنقطة المركزية التي هي القطب؛ والعناصر الأربعة الأخرى، كالجهات الأصلية الأربعة تناسب الفروع الأربعة للصليب، وهو الذي يرمز إلى التربيع في شتى تطبيقاته.

1- لرمزية الحمل علاقة وثيقة ببرج الحمل ورمزيته، فهو عند الفلكيين القدامى أفضل البروج وأعظمها حكما في العالم، ويدل على بدايات الأمور وروح الأشياء، ويعتبر في بعض الحضارات أول البروج المناسب لبداية الدورة السنوية في الربيع؛ وقيل إن رسول الله سيدنا محمد ﷺ ولد في شهر أفريل رابع الشهور الشمسية عند برج الحمل الذي هو برج شرف الشمس، أي أنه موقع أشرف نقطة فلكية؛ ولهذا يقول الشيخ ابن العربي في الفتوحات إنه أفضل الشهور الشمسية، كما أن رمضان أفضل الشهور القمرية. والطبيعة المميزة لهذا البرج هي الحرارة خصوصا، وقد جعل الهندوس الحمل مطية "أنيي" النموذج المثالي الأعلى للحرارة والنار.وكلام المؤلف عن علاقة الحمل بالأختام السبعة وآخر الزمان يذكر بما أشار إليه الشيخ ابن العربي في قصيدته التي افتتح بها كتابه (عنقاء مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب) ويعني بختم الأولياء عيسى عليه السلام عندما ينزل في آخر الزمان فيقول:

وللختم سر لم يزل كل عارف	**إليه إذا يسرى عليه يحوم**
مع السبعة الأعلام والناس غفل	**عليم بتدبير الأمور حليم**

وفي هذه القصيدة يقول:

فأشخاصنا خمس وخمس وخمسة	**عليهم ترى أمر الوجود يقوم**

ففيه إشارة إلى أهمية العدد خمسة التي سيشير المؤلف إليها لاحقا خصوصا في الطاوية.... كما أشار إلى ذلك الشيخ ابن العربي في مواقع من الفتوحات حيث يقول إنها العدد الوحيد الذي يحفظ نفسه وغيره، وهي عدد هاء الهوية الجامعة للأول والآخر والظاهر والباطن؛ وهي عدد أركان الإسلام وعدد الصلوات المفروضة

اليومية، إلى غير ذلك من الخماسيات الكثيرة التي بها قيام الكونين الكبير والصغير، وليس هنا محل تفصيلها.

2- تنظر قصة لأحد أصحاب الشيخ أبي مدين وقعت له خلال صعوده لجبل قاف في الباب 334 من الفتوحات للشيخ ابن العربي، وهو الباب المتعلق بسورة قاف، وفي ذكره لعلوم منزل هذه السورة، بدأها بقوله: [... فمن ذلك علم منازل القرآن وعلم الأوتاد الأربعة الذين قيل إنّ الشافعي واحد منه]... وهؤلاء الأوتاد الأربعة هم الذين سيتكلم المؤلف عنهم في أواخر هذا الباب التاسع وأنهم موجودون في تراثيات جل الأمم، وقد فصّل الشيخ بعض أحوالهم وعلومهم وسورهم القرآنية التي يستمدون منها، وأن لكل واحد منهم جهة من الجهات الأربعة والتقسيم من الكعبة، إلى غير ذلك في البابين 16 و 73 من الفتوحات.

3- في الإسلام، المركز الروحي الأول والأخير للإنسانية هو الكعبة في الحرم المكي المقدس، وكون كل الأشياء تدور حول المركز مستمدة منه، يمثله الطواف حولها والتوجه نحوها في الصلاة، وإلى ذلك الاستمداد تشير المقولة المعروفة "ما حَلَّ بحرمكم حَلَّ بكم" والحجارة المقدسة التي هي موضوع هذا الباب نظيرها الحجر الأسود في ركن الكعبة. والسكينة التي كانت تنطق بالحق بالقرب من تلك الحجارة، أو في بعض المعابد أو المواقع المقدسة كتابوت بني إسرائيل، نظيره في الإسلام السكينة الناطقة بالحق على ألسنة أولياء الرحمن لأن محلها قلوبهم الربانية؛ قال الله تعالى في الآية 4 من سورة الفتح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ يقول الإمام الحكيم الترمذي (الذي كان أحد أوتاد عصره وتوفي سنة 320هـ) في كتابه (ختم الأولياء):» وإنما سميت السكينة سكينة لأنها تسكن القلب عن الريب والحرارة إذا ورد الحق بالحديث عن الله تعالى. ألا ترى أن بني إسرائيل لما أعطوا السكينة ووجدوا ثقلها علموا أنهم يعجزون عن احتمالها على القلوب، سألوا الله تعالى أن يجعلها لهم في التابوت، فكانت تنطق من التابوت، وتسكن القلوب

بنطقها، فيعملون على ذلك. ولما أمر الله إبراهيم ﷺ ببناء البيت قرن به السكينة، حتى أتى البقعة فالتوت السكينة حتى صارت بمقدار البيت، ثم نادت: أن ابن على مقدار ظلي؛ فالسكينة مقدار من الله، يلتوي وينقص ويمتد بمقدار ما يريد الله؛ فهي حارس ما يورده الوحي ويورده الحق، وقاتل ومسكن".

4- من لطيف الاتفاق أن عدد كلمة "سواستكا" بالحساب المغربي هو 1028 الذي هو عند الفلكيين القدامى وعرفاء الإسلام رمز لعدد أفلاك العالم بأسره، أي مواقع النجوم والكواكب في سباحتها حول قطبها؛ وهو مجموع العدد 28 أي عدد الحروف العربية، أو عدد المنازل الفلكية، أو عدد مراتب الوجود كما فصله الشيخ ابن العربي في الباب 198 من الفتوحات، مع العدد 100 الذي هو عدد آخر الحروف، وهو حرف غ عند المشارقة أو ش عند المغاربة.

5- إلى هذه المعاني تشير آيات قرآنية كالآية 145 من سورة البقرة: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ والآية 67 من سورة الحج: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ والآية 48 من سورة المائدة:﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، والآية 4 من سورة إبراهيم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

6- إلى هذا المقام القطبي الذي تتساوى فيه الأمور وأضدادها من حيث جمعيتها المبدئية تشير الآيتان 22-23 من سورة الحديد: ﴿أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

وكلام القطب الذي بثباته في المركز يتحرك كل شيء، يذكر بما وصف به الشيخ ابن العربي أحد الرجال الأكابر الأربعة الممدين للأوتاد الأربعة الذين وصف مقامهم في الباب 73 من الفتوحات، وقال عنهم ما خلاصته: [هم رجال الهيبة والجلال، آيتهم من كتاب الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾، مجهولون في الأرض معروفون في السماء، الواحد منهم هو ممن استثنى الله في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾، والثاني له العلم بما لا يتناهى يعلم التفصيل في الجمل، والثالث له الهمة الفعالة في الإيجاد ولكن لا يوجد عنه شيء، والرابع توجد عنه الأشياء وليس له إرادة فيها ولا همة متعلقة بها، وقد اجتمع في هؤلاء الأربعة عبادة العالم، وهم على قلوب محمد وشعيب وهود وصالح عليهم السلام، وينظر إليهم من الملأ الأعلى عزرائيل وجبريل وميكائيل وإسرافيل]. وأصل كل الرباعيات الكونية الأركان الأربعة لحضرة الأسماء الحسنى التي ترجع إليها كل الأسماء الأخرى وهي بالترتيب: الحي العليم المريد القادر، ومن حيثية أخرى هي: الأول الآخر الظاهر الباطن، ومن حيثية الرمزية الحرفية هي الحروف الأربعة للاسم الأعظم (الله)، كما أنّ عدد حروف اسم (محمد) أو (أحمد) أربعة، وكلمات البسملة أربعة، وأنهار الجنة أربعة. وأصل العناصر الأربعة الطبائع الأربعة أي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وكذلك أخلاط الجسم: صفراء ودم وبلغم وسوداء؛ ومبنى الكون على أربعة هي الأرواح والأجساد والتحليل والتركيب، ويناسبها في بيت الشعر الوتدان المجموع والمفروق والسببان الثقيل والخفيف، كما يناسبها في الموسيقى: الزير والمثنى والمثلث والبم. وكذلك أهل الجنة أربعة طوائف: مؤمنون وأولياء وأنبياء ورسل، في مقابل طوائف الجحيم: كفار ومشركون وجبابرة ومنافقون؛ والخلفاء الراشدون أربعة، وأوتاد أئمة آل البيت أربعة وهم: فاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام؛ والمذاهب الفقهية الكبرى أربعة؛ وحملة العرش أربعة، وكذلك أركان الكعبة، والرياح الأساسية أربعة، وخواطر القلب أربعة أي: الخاطر الرباني والملكي والنفسي والشيطاني؛ والطيور التي أحياها إبراهيم عليه السلام ربعة؛ وللملائكة أربعة أجنحة كلية؛ ويجوز

للمسلم التزوج بأربعة نساء؛ وقد ذكرنا سابقا أوتاد الولاية الدائمة أي إدريس وعيسى وإلياس وخضر؛ ومن حيثية أخرى هم محمد وآدم وإبراهيم وعيسى؛ كما أن الأشهر القمرية أربعة أشهر حرم لهم نسبة خاصة مع رسل العرب أي سيدنا محمد وهود وصالح وشعيب على جميعهم السلام. وأخيرا فإن حرف الديمومة أي مفتاح اسمه تعالى: "دائم" هو الدال الذي عدده أربعة، كما هو بحساب الجمل الصغير عدد حرف ميم الجمع وحرف تاء التمام.

الباب العاشر

أسماء وتمثيلات رمزية للمراكز الروحية
NOMS ET REPRÉSENTATIONS SYMOLIQUES DES CENTRES SPIRITUELS

في ما يتعلق بـ«الصقع الأعلى» يمكن أن نستشهد أيضا بكثير من التراثيات الأخرى المتفقة في شأنه؛ يوجد بالأخص للدلالة عليه اسم آخر، من الراجح أنه أقدم من اسم "باراديشا"، إنه اسم "تولا" (Tula) الذي جعل منه الإغريق اسم "ثولي" (Thulé)؛ وكما رأينا قبل قليل، من المحتمل أن تكون هذه الأخيرة "ثولي"، مطابقة لـ«جزيرة السادة الأربعة» الأولى الأصلية. ولابد من ملاحظة أنّ نفس اسم "تولا" قد أطلق على مناطق مختلفة، حيث إننا نجده حتى في يومنا هذا، سواء في روسيا أو في أمريكا الوسطى؛ وهذا بلا شك يدعو إلى التفكير في أنّ كل واحدة من تلك المناطق، كانت في عهد قدمه يزيد أو ينقص، مقر سلطة روحية منبثقة من مركز "تولا" الأصلي الأول الأقدم. ومن المعلوم أنّ "تولا" المكسيكية يعود أصلها إلى شعب "التولتيك" ((وهو شعب من الهنود الحمر احتل المكسيك ومركزهم "تولا"))؛ وقد قيل عنهم إنهم قدموا من "أزتلان" (Aztlan)، أي «الأرض في وسط المياه»، وهي طبعا ليست سوى "الأطلنطيد" (Atlantide) (أ)، وقد أتوا بهذا الاسم "تولا" من بلدهم الأصلي؛ والمركز الذي طبقوا عليه هذا الاسم، قد حلّ على الراجح محل مركز القارة المفقودة بمقدار معين (1). لكن، من جانب آخر، لابد من التمييز بين "تولا" الأطلنطية و"تولا" الواقعة في أقصى الشمال؛ وهذه الأخيرة هي التي تمثل في الحقيقة المركز الأول الأعلى بالنسبة لجملة دورة الـ"مانفانتارا" الراهنة، فهي «الجزيرة المقدسة» المثلى، وموقعها كما ذكرناه آنفا، كان في الأصل قطبيا بالمعنى الحرفي للكلمة. وجميع «الجزر المقدسة» الأخرى، التي تسمى حيث كانت، بأسماء ذات دلالة متطابقة، لم تكن سوى صور لتلك الجزيرة القطبية الأصلية الأولى؛ وينطبق هذا حتى على المركز الروحي للتراث الأطلنطي، الذي لم يُسيّر إلا دورة تاريخية ثانوية ضمن الـ"مانفانتارا" (2).

وكلمة "تولاً (Tulâ) في السنسكريتية، تعني «ميزان» وتدل بالأخص على البرج الذي يحمل هذا الاسم؛ لكن، حسب إحدى معطيات التراث الصيني، فإن الميزان السماوي كان في الأصل هو الدب الأكبر (3). ولهذه الملاحظة أهمية عظمى، لأنّ الرمزية المتعلقة بالدب الأكبر هي بطبيعة الحال مرتبطة بأوثق العُرى برمزية القطب (4)؛ ولا يمكننا هنا التوسع حول هذه النقطة التي تستدعي معالجتها بحثا خاصا (5). وهناك أيضا ما يدعو إلى فحص العلاقة التي يمكن أن توجد بين الميزان القطبي وبرج الميزان؛ فهذا الأخير يعتبر «برج الحكم والقضاء»، وما ذكرناه سابقا حول الميزان كشعار للعدل، بصدد «ملكي – تصادق»، يمكن أن يساعد على فهم كون هذا الاسم كان يدل على المركز الروحي الأعلى (ب).

و"تولاً تسمى أيضا «الجزيرة البيضاء»، ولقد قلنا بأن هذا اللون الأبيض هو الذي يرمز إلى السلطة الروحية؛ وفي التراثيات الأمريكية القديمة يُرمز إلى "أزتلان" بجبل أبيض، لكن هذا التمثيل كان ينطبق في البدء على "تولاً" الشمالية القصوى، وعلى «الجبل القطبي». وفي الهند «الجزيرة البيضاء» ("شويتا – دويبا) التي تعتبر عموما واقعة في مناطق الشمال القاصية (6)، ينظر إليها كأنها «مقر السعداء»، وهذا الذي يجعلها تتطابق بوضوح مع «أرض الأحياء» (7). غير أنه يوجد استثناء ظاهري، وهو أنّ التراثيات السلتية تتكلم بالأخص عن «الجزيرة الخضراء» وأنها «جزيرة القديسين» أو «جزيرة السعداء» (8)، لكن في وسط هذه الجزيرة يرتفع «الجبل الأبيض»، الذي يقال عنه إنه لا يمكن لأي طوفان أن يطوله (9)، ولقمّته نفسها لون أرجواني (10). و«جبل الشمس» هذا، وهذه تسمية أخرى له، هو نفس جبل "ميرو" ((أي عند الهندوس، المكافئ «لجبل قاف» عند المسلمين)) الذي يدعى بـ«الجبل الأبيض» أيضا، ويحيط به طوق أخضر لكونه يقع وسط البحر(11)، وفي قمته يشع مثلث النور.

وبهذه التسميات للمراكز الروحية، كاسم «الجزيرة البيضاء» (ونذكر بأن رغم تطبيق هذا الاسم على المركز الأعلى المناسب له في المحل الأول، فإنه لا يقتصر عليه وحده، وإنما يمكن تطبيقه كغيره على مراكز ثانوية) ينبغي ربط أسماء أماكن، أو أصقاع، أو مدن، تعبر كذلك عن دلالة البياض. وهي موجودة بعدد كبير، بدءا من "أليبون" ((Albion وهو الاسم

الذي أطلقه القدامى على بريطانيا العظمى بسبب بياض شواطئها الصخرية، ويطلق أيضا على هضبة في الجنوب الشرقي من فرنسا))

وحتى إلى "ألبانيا"، ومرورا بـ" آلب لالونق" (Albe la langue أي المدينة الأم لروما)، والحواضر الأخرى العتيقة التي سميت بنفس الاسم (12)؛ واسم مدينة "آرقـوس" (Argos) عند الإغريق له نفس الدلالة (13)؛ وبسبب هذا التوافق سيظهر بكيفية أوضح في ما سنقوله لاحقا.

وهناك أيضا ملاحظة نبديها حول تصور المركز الروحي كجزيرة تحتوي على «الجبل المقدس»، حيث إنه حتى وإن وقع بالفعل مثل هذا التحديد لموضعه، (رغم أنّ «الأراضي المقدسة» لم تكن كلها جزرا)، فإن له في نفس الوقت دلالة رمزية. والوقائع التاريخية نفسها، لاسيما وقائع التاريخ المقدس، تترجم فعلا، بكيفياتها الخاصة، عن حقائق من الطراز العالي، بمقتضى قانون التناسب الذي هو الأساس ذاته للرمزية، وهو الذي يربط جميع العوالم بعضها ببعض في الانسجام الشامل الكلي. والمعنى الذي يوحي به التمثيل المذكور هو أساسيا معنى «الاستقرار والثبات» الذي هو بالتحديد الطابع المميز للقطب كما ذكرناه سابقا: فالجزيرة تبقى ثابتة ساكنة في وسط الاضطراب المستمر للأمواج، وهو صورة لاضطراب العالم الخارجي؛ ولابد من اجتياز «بحر الأهواء» لبلوغ «جبل النجاة» في «حرم السلام» (14).

تعقيبات المؤلف على الباب العاشر

1- الرمز التصويري لـ"أزتلان" أو لـ"تولا" كان الطائر مالك الحزين؛ ومالك الحزين مع اللقلق يلعبان في الغرب نفس الدور الذي يلعبه أبو منجل في الشرق، وهذه الطيور الثلاثة هي من بين رموز المسيح؛ وأبو منجل عند المصريين القدامى، كان أحد رموز "توث" (Thoth)، أي أحد رموز الحكمة.

2- توجد صعوبة كبرى في التعيين الدقيق لنقطة الاتصال بين الملة الأطلنطية وملة أقصى الشمال ((أي الملة الأصلية الأولى))؛ ومنشأ هذه الصعوبة بعض التشابهات الواقعة بين أسماء يمكن أن تتسبب في التباسات عديدة؛ لكن رغم كل هذا، فالمسألة ربما لا تكون مستعصية على الحل بصفة تامة.

3- حتى إنّ الدب الأكبر سمي بـ«ميزان اليشب» ((واليشب حجر كريم))، واليشب رمز للكمال. وعند شعوب أخرى، يُشبّه الدبان الأكبر والأصغر بكفتي ميزان.وهذا الميزان الرمزي لا يخلو من علاقة مع الميزان المذكور في الكتاب العبري "سيفرا دي – تسانيوثا" di-Tseniutha Siphra؛ «كتاب السر»، فصل من "زوهار"): فهو معلق في «محل لا محل» أي في «الغيب» الذي تمثله النقطة القطبية بالنسبة لعالمنا؛ ويمكن القول بأن توازن هذا العالم يستند فعلا على القطب.

4- في الهند، يسمى الدب الأكبر ب"سابتا – ريكشا"، أي المقر الرمزي للسبعة "ريشيس" ((ونظيرهم في التصوف الإسلامي الأبدال السبعة أقطاب الأقاليم السبعة، ودائرتهم هي الثالثة بعد الدائرة الثانية للأوتاد الأربعة والدائرة الأولى للقطب والإمامين))؛ وهذا مطابق طبعا لتراث أقصى الشمال، بينما الثريا تحل في التراث الأطلنطي محل الدب الأكبر، وهي التي تتألف أيضا من سبعة نجوم؛ ومن المعروف أنّ نجوم الثريا عند الإغريق كانت تعتبر بنات "الأطلس"، ولهذا سميت بـ"الأطلسية" (Les Atlantides) (("الأطلس" عند الإغريق كان يرمز لمظهر الألوهية الرافع لقبة السماء والحافظ لها)).

5- في ارتباط مع ما ذكرناه سابقا بين كلمة "ميرو" وكلمة "ميروس" ((أي الفخذ عند

الإغريق))، من اللافت للنظر أيضا أنّ المصريين القدامى كانوا يسمون الدب الأكبر بكوكبة نجوم الفخذ.

6- "شويتا – دوييا" هي واحدة من ثمانية عشر جزءا من "جامبو – دوييا" ((أي هي إحدى الأقاليم الثمانية عشر المؤلفة لمجموع الأرض في حالتها الراهنة)).

7- هذا المعنى يذكر أيضا بـ«الجزر السعيدة» المذكورة في التاريخ الغربي القديم؛ لكن هذه الجزر كانت تقع في الغرب (بستان الهسبيريد: "هسبير" في الإغريقية، و"فسبار" في اللاتينية، تعني المساء، أي الغرب)، وهذا يشير إلى تراث من أصل أطلنطي، كما يمكن أيضا من ناحية أخرى التذكير بـ«السماء الغربية» في تراث التبت (("الهيسبيريد" في الميثولوجيا الإغريقية هي روحانيات أرضية تملك بستانا تثمر أشجاره تفاحا من ذهب تهب لآكله الخلود)).

8- اسم «جزيرة القديسين» طبّق لاحقا على إيرلنده، مثل اسم «الجزيرة الخضراء»، بل طبق حتى على انجلترا.ونشير أيضا لاسم "جزيرة هيليوغولاند" (Héliogoland) التي لها نفس الدلالة.

9- كنا سابقا أشرنا إلى تراثيات مماثلة تتعلق بالجنة الأرضية.في التصوف الإسلامي، ن المعروف كذلك «الجزيرة الخضراء» و«الجبل الأبيض»، إلا أنّ الحديث حولهما في الظاهر نادر جدا.

10- نجد هنا مرة أخرى الألوان الهرمسية الثلاثة: الأخضر والأبيض والأحمر، التي تكلمنا عنها في كتاب "باطنية دانتيه".

11- من جانب آخر، يرد أحيانا ذكر حزام له ألوان قوس قزح، ويمكن مقاربته مع وشاح "إيريس" ((التي هي رسولة الملأ الأعلى عند الإغريق))؛ وقد أشار إليه سانت – إيف في كتابه "مهمة الهند"، ونفس الشيء يوجد في مَشاهد آن – كاترين إيمريش".ويُنظر ما ذكرناه سابقا حول رمزية قوس قزح، وكذلك حول ال "دوييا" السبعة.

12- كلمة "البوس" (albus) أي «أبيض» باللاتينية، قريبة من كلمة "لابان" (laban) العبرية التي لها نفس المعنى، ومؤنثها "لاباناه" تستعمل للدلالة على القمر؛ وكلمة "لونا" (Luna)

في اللاتينية يمكن أن تدل في نفس الوقت على معنى كلمتي «بيضاء» و«مضيئة»، لوجود ارتباط بين دلالتيهما. ((وفي العربية: "اللبن" معروف ببياضه كالحليب)).

13- لا يوجد بين النعت "آرغوس" أي «أبيض»، واسم المدينة، سوى مجرد تحريك؛ واسم المدينة محايد، ونفس هذا الاسم في صيغة المذكر هو "آرغُس" (Argus). وهنا أيضا يمكن أن نتذكر سفينة "آرغو" (Argo) (التي قيل إنّ "آرغس" صنعها، وأنّ صاريها صُنع من شجرة بلوط في غابة "دودون)؛ وفي هذه الحالة الأخيرة يمكن للكلمة أن تدل أيضا على معنى «سريع»، فالسرعة تعتبر إحدى نعوت النور (خاصة البرق)، لكن معناه الأول هو «البياض» ثم بعده «الإضاءة». ومن نفس الكلمة يشتق أيضا اسم الفضة، أي المعدن الأبيض المناسب فلكيا للقمر؛ فاللفظة اللاتينية "آرجونتوم" (Argentum أي الفضة) والإغريقية "آرجوروس" (Arguros) لهما نفس الجذر كما هو واضح.

14- يقول "شانكارا شاريا" (آتما – بوذا: Atmâ- Bodha): «الـ"يوقـي" ((yogi: أي الصوفي الواصل))، بعد أن اجتاز بحر الأهواء، هو متحقق بالطمأنينة وحائز على الـ"هو" بكماله». والأهواء تعني هنا كل التحولات العارضة والعابرة المشكلة لـ«تيار الأشكال»: إنه مجال «المياه السفلية» كما تعبر عنه الرمزية المشتركة بين كل التراثيات. ولهذا فإن المجاهدة للفوز بـ«السلام الأكبر» غالبا ما تمثل في صورة إبحار (وهذا أحد الأسباب التي تجعل السفينة رمزا للكنيسة في الرمزية الكاثوليكية) ((وهي أيضا رمز للمسجد في الرمزية الإسلامية، ورمز للطريقة في الرمزية الصوفية))؛ وتُمثل المجاهدة أيضا أحيانا في هيئة حرب، وملحمة "بهاغافاد – جيتا" الهندوسية يمكن تأويلها بهذا المعنى، كما يمكن لهذه الوجهة من النظر التوسع في نظرية الجهاد في الدين الإسلامي ((حيث يميز بين الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس الداخلي الدائم المفروض على كل أحد والجهاد الأصغر أي جهاد العدو المعتدي الخارجي الطارئ)). ونضيف بأن «المشي على المياه» يرمز إلى السيطرة على عالم الأشكال والتغير: و"فيشنو" (Vishnu) يسمى "نارايانا" أي «الذي يمشي على المياه»؛ والمقاربة مع الإنجيل تفرض نفسها هنا، حيث نرى بالتحديد المسيح ماشيا فوق المياه (ج).

1- الأطلنطيد هي القارة التي كانت تحتل المحيط الأطلسي. وحسب المعطيات التي ذكرها المؤلف الشيخ عبد الواحد يحي في بحوث أخرى له، فإن حضارتها كانت حضارة الجنس الأحمر، ودامت 12960 سنة، وانتهت بطوفان نوح عليه السلام الذي وقع 6480 سنة قبل بداية الـ"كالي – يوقا" أي الحقبة الرابعة الراهنة وهي الأخيرة في دورة الـ"مانفانتارا" التي مدتها 64800 سنة.

2- لبرج الميزان في العرفان الإسلامي أهمية متميزة، فالشيخ ابن العربي يبين في الباب 12 من الفتوحات أن الزمان ابتدأ في طالعه، وبيد ملكه خلق الليل والنهار، وأن الروح المحمدي ابتدأ في إمداد الأرواح في عالم الغيب عند حكم هذا البرج؛ وبعد دورات لفلك البروج، كل دورة تدوم 78000 سنة، رجع الحكم له وذلك عند ظهور النبي سيدنا محمد ﷺ بجسده الشريف رسولا خاتما في عالم الشهادة، وحينها أعلن في حجة الوداع قائلا: [لقد استدار الزمان كهيئته يوم خلقه الله]. ومدة حكم برج الميزان في العالم 6000 سنة، فنحن الآن منذ بعثته ﷺ في حكم هذا البرج، وفيه تقوم القيامة.

3- في التراث الإسلامي كثيرة جدا هي الحكايات التي تروي الكرامات الحاصلة للكثير من الصالحين والأولياء كالمشي على الماء والطيران في الهواء وطي الأرض، وقد خصص الشيخ ابن العربي لبيانها مع شروطها أبوابا من كتابه "مواقع النجوم" خاصة باب "الفلك القدَمي".

تحديد مواقع المراكز الروحية
LOCALISATIONS DES CENTRES SPIRITUELS

في ما سبق، تركنا جانبا بالكامل تقريبا، مسألة التحديد الفعلي لموقع «الصقع الأعلى»، وهي مسألة معقدة، ولكنها ثانوية تماما في وجهة النظر التي أردنا الالتزام بها. ويبدو أنّ هناك ما يدعو لاعتبار العديد من المواقع المتتالية، المتناسبة مع دورات زمنية مختلفة، هي أجزاء من دورة أوسع، أي أجزاء من الـ"مانفانتارا"؛ وباعتبار جملة هذه الدورة الكبرى، وبالنظر إليها من خارج الزمان إذا صح القول، يوجد ترتيب تدريجي تنبغي ملاحظته بين هذه المواقع، وهو يتناسب مع تأسيس أشكال تراثية، ما هي في جملتها إلا تكييفات للملة الرئيسية الأصلية الأولى المهيمنة على الـ"مانفانتارا" بأسرها. من جانب آخر، نذكر مرة أخرى، بأنه من الممكن أيضا وجود العديد من المراكز في نفس الوقت، زيادة على المركز الرئيسي، بحيث تكون مرتبطة به، وهي كالصور المتعددة له؛ و هذا سبب تنشأ منه التباسات يسهل الوقوع فيها، لاسيما وأن هذه المراكز الثانوية، بحكم أنها أكثر ظهورا خارجيا، تبدو أكثر بروزا من المركز الأعلى (1).

وبصدد هذه النقطة الأخيرة كنا سجلنا سابقا بالأخص تماثل "لهاسا" مركز اللامية ((في التبت)) مع الـ"أقارتتها"؛ ونضيف الآن، بأنه، حتى في الغرب، لا يزال معروفا إلى اليوم مدينتان على الأقل، لهيئتهما الطوبوغرافية نفسها خصوصيات جعلت لوجودهما أسبابا متماثلة، وهما روما وأورشليم (وقد رأينا في ما سبق أنّ هذه الأخيرة كانت بالفعل صورة مشهودة لـ"سالم" المكتنفة بالأسرار والمنسوبة إلى "ملكيتصادق"). وكما ذكرناه سابقا كان في التاريخ القديم يوجد بالفعل ما يمكن تسميته بالجغرافيا المقدسة أو الروحية، ومواقع المدن والمعابد لم تكن اعتباطية، وإنما كانت تحدد وفق قوانين دقيقة جدا (2)؛ ومن هنا يمكن أن نستشف العلاقات التي تربط «الفن الروحي» و«الفن الملكي» بفن البَنّائين المعماري (3)، وكذلك الأسباب التي جعلت النقابات الحرفية القديمة مالكة لتراث مساري تربوي روحي

عرفاني حقيقي (4). زد على هذا، وجود ارتباط بين تأسيس مدينة ونشأة عقيدة أصيلة (أو شكل تراثي جديد تكيفا مع أوضاع محددة في الزمان والمكان) بحيث إن الأولى كانت في الغالب تعتبر كرمز للثانية (5) (أ). وبطبيعة الحال، كان من اللازم أخذ احتياطات خاصة جدا عندما كان الأمر يتعلق بتحديد موقع مدينة مكرسة لتكون، من حيثية أو من أخرى، العاصمة المركزية لقسم بكامله من العالم (ب). وأسماء المدن، مثلها مثل ما يُروى عن ظروف تأسيسها، جديرة بأن تفحص بعناية من حيث هذا الاعتبار (6).

وبدون أن نتوسع في هذه الاعتبارات التي لا تتعلق بموضوعنا إلا بكيفية غير مباشرة، نضيف بأن في العهد السابق على العهد الهيليني (7) كان يوجد في الجزيرة الإغريقية "كريت" مركز من ذلك الطراز الذي كنا بصدد الحديث عنه. ويبدو أنّ العديد من أمثاله وُجدت في مصر، وأسِّست على الراجح خلال عصور متتابعة، مثل "مُفيس" ((Memphis عاصمة مملكة مصر القديمة)) و"طيبس" (Thébes) (8). واسم هذه المدينة الأخيرة، الذي هو أيضا اسم مدينة إغريقية، ينبغي بالخصوص أن يشدّ انتباهنا، كاسم للمراكز الروحية، بسبب تطابقه الجلي مع اسم "طيباه" (Thebah) العبري، أي سفينة الطوفان. فهذه السفينة هي أيضا مثال للمركز الأعلى، خاصة لكونها اضطلعت بصيانة التراث في هيئة تزميل إذا صح القول (9)، وذلك في مرحلة الانتقال التي هي كالبرزخ بين دورتين، والمتميزة بحدوث كارثة كونية تفني الوضع السابق للعالم ليحل محله وضع جديد (10). ودور نوح الوارد ذكره في التوراة (11) ((وتكرر ذكر اسمه في القرآن الكريم 43 مرة، وسميت باسمه سورة رقمها في ترتيب المصحف 71)) مماثل للدور الذي يقوم به في التراث الهندوسي "ساتيافراتا" (Satyavrata)، الذي أصبح في ما بعد "مانو" الدورة الراهنة باسم "فايفاسواتا" (Vaivaswata)؛ لكن ينبغي التنبه إلى أنّ هذا التراث الأخير يرجع إلى بداية الـ"مانفانتارا" الراهنة، في حين أنّ طوفان التوراة، يتعلق فقط ببداية دورة أقل اتساعا، وتندرج ضمن هذه الـ"مانفانتارا" نفسها (12) (ج)؛ وبالتالي فليس المقصود نفس الواقعة، وإنما هما واقعتان يوجد بينهما تناسب فقط (13).

والجدير كذلك بالتسجيل هنا، هو العلاقة الموجودة بين رمزية السفينة و رمزية قوس قزح، وهي علاقة يوحي بها النص التوراتي، عندما يتجلى قوس قزح إثر الطوفان،

كعلامة على العهد القائم بين اللهتعالىوالمخلوقات الأرضية (14). وخلال الكارثة، كانت السفينة تسبح فوق محيط المياه السفلية، كما أن في الوقت المتميز بعودة النظام السوي، وانبعاث الأشياء كلها من جديد، يتجلى قوس قزح «من بين السحاب» أي في منطقة المياه العلوية. فالمقصود إذن علاقة تماثلٍ بالمعنى الأدق للكلمة، أي أن الشكلين متعاكسان وكل واحد منهما مكمل للآخر؛ فتحدب السفينة يتجه نحو الأسفل، وتحدب قوس قزح متجه نحو الأعلى، واتحادهما يؤلف شكلا دائريا أو دورة تامة، هما لها كالشقين (15). وبالفعل، فقد كان هذا الشكل تاما كاملا في بداية الدورة: إنه المقطع العمودي لكرة مقطعها الأفقي يمثل بالسور الدائري للجنة الأرضية (16)؛ وهي مقسمة بصليب تشكله الأنهار الأربعة المتفجرة من «الجبل القطبي» (17). والعودة إلى هذا الشكل الأصلي الكامل ينبغي أن تتم في نهاية نفس الدورة؛ لكنها تكون حينئذ في هيئة أورشليم السماوية، حيث يحل المربع محل الدائرة (18)، وهذا يشير إلى تحقيق ما يسميه الهرمسيون رمزيا بـ«تربيع الدائرة»: فالكرة الممثلة لتطور القدرات الكامنة بفعل توسع النقطة الأصلية المركزية القديمة، تتحول إلى مكعب عندما يتم هذا التطور، ويتحقق التوازن النهائي بالنسبة للدورة المعتبرة (19) (د).

تعقيبات المؤلف على الباب الحادي عشر

1- تبعا لعبارة سانت – إيف التي اقتبسها من لعبة "التاروت" (le Tarot)، المركز الأعلى بين المراكز الأخرى، كـ«الصفر المغلق بين الاثني عشر شكلا ركنيا»

2- يبدو أنّ كتاب "تيمي" (Le Timée) لأفلاطون، يشتمل بكيفية خفية على بعض الإشارات إلى هذا العلم المذكور هنا.

3- هذا يذكر بما قلناه حول لقب "بونتيفاكس" ((أي الحبر الأعظم المشبه بالجسر لأنه واسطة بين الحق والخلق))؛ ومن ناحية أخرى، لقد احتفظت الماسونية بعبارة «الفن الملكي».

4- عند الرومان، مظهر الربوبية المسمى بـ"جانوس" كان في نفس الوقت يشرف على التربية الروحية المتعلقة بالأسرار، كما يشرف على نقابات الحرفيين ("كوليجيا فابروروم" Collegia fabrorom)؛ ففي هذا الإشراف المزدوج توجد علامة ذات دلالة خاصة.

5- كمثال نذكر "أمفيون" ((Amphion في الميثولوجيا الإغريقية)) وهو يبني المدينة ((المقدسة)) "طيبس" (Thébes) بواسطة أنغام قيثارته؛ وسنرى بعد قليل ما يدل عليه اسمها هذا. ومن المعروف أهمية القيثارة في الأورفية ((l'Orphisme هو مذهب في التربية الروحية العرفانية عند قدامى الإغريق)) وفي المذهب الفيثاغوري؛ وفي التراث الصيني ((وأيضا في بعض الطرق الصوفية الإسلامية))، غالبا ما يلاحظ وجود آلات موسيقية تقوم بدور مماثل، ومن البديهي أنّ ما يقال عنها ينبغي أن يُفهَم من حيث دلالاته الرمزية.

6- في ما يتعلق بالأسماء، لقد وجدنا منها بعض الأمثلة في ما سبق، خاصة تلك التي ترتبط بمفهوم البياض، وسنشير إلى مزيد من الأمثلة الأخرى. وثمة أيضا كلام كثير يمكن قوله حول الأشياء المقدسة التي كانت ترتبط بها، في بعض الأحيان، قوة المدينة نفسها وحفظها، وكمثال عنها "بالاديوم" مدينة طروادة الملحمي ((مدينة Troie أو "إليون"

كانت تقع في غرب تركيا الآسيوية، حاصرها اليونـان عـشر سـنوات وجـرت عنـدها الحروب المشهورة باسمهـا مـا بـين 1193 و1183 قبـل المـيلاد، وتغنّـى هـوميروس بمعاركها في: الإلياذة))؛ وكذلك أيضا، في روما، دروع قبيلة الساليين (Saliens) (الـتي قيل عنها إنها نُحتت في نيزك جوي في عهد "نوما"؛ وكان مجمع الساليين يتألف من اثـني عشر عضوا)؛ فتلك الأشياء كانت حاملات «للفعاليات الروحية»، مثلها مثـل تـابوت العهد عند العبريين. (("نوما" هو الملك الأسطوري الثاني لروما في القـرن الـسابع قبـل الميلاد، ويُعتبر مجددا للديانة الرومانية القديمة)).

7- اسـم "مينـوس" ((Minos هـو الملـك الأسـطوري لجزيـرة "كريـت"، يوصـف بالحكمـة والتشريع، وأنه القاضي في عالم الجحيم)) له دلالة كافية في هذا الـصدد، ومثلـه اسـم "مينيس" ((Ménés ملـك مـصر الأول ومؤسـس مدينـة "ممفيس")) في مـا يتعلـق بمـصر القديمة؛ وأما ما يخص روما فنحيل إلى ما ذكرناه حول اسم "نوما". ونذكر بدلالـة اسـم "شلوموه" بالنسبة إلى أورشليم ((أي أن "شلوموه" هو بالعبرية اسم سليمان بـاني هيكـل أورشـليم)).وبـصدد "كريـت"، نـشير إشـارة عـابرة إلى اسـتعمال "مـسلك المتاهـة" (Labyrinthe)، كرمز مميز عند بَنّائي العصر الوسيط؛ والأكثر لفتا للانتباه هو أنّ مسار مسلك المتاهة المسطر على بلاط بعـض الكنـائس، كـان يعتـبر كبـديل عـن الحـج إلى الأراضي المقدسة بالنسبة لمن لم يستطيعوا إليه سبيلا.

8- لقد رأينا أنّ مدينة "دلفي" أيضا قد لعبت هذا الـدور بالنـسبة لليونـان؛ واسمهـا يـذكر باسم "الدلفين"، الذي يحظى برمزية هامة جدا.وثمة اسم بارز آخر هـو اسـم "بابـل" أي: "بابإلو" الذي يعني «باب السماء»، وهو إحدى النعوت التي طبقها يعقـوب علـى "لـوز"؛ ويمكن أيضا أن يعني «بيت الله» مثل «بيت ــ إل»؛ لكنه يمسي مرادفا لل «بلبلة» عندما يُفقد التراث الروحـي: وحينئـذ يحـدث انتكـاس للرمـز، و"جـانوس إنفرنـي" (Janus Inferni) يحل محل "جانوس كالي" (Janus Cœli).

9- 9) هذه الحالة تشبه الحالة التي تمثلها «بيضة العالم» في بدايـة الـدورة، لاحتوائهـا علـى بذرة كل القدرات التي ستتطور خـلال الـدورة؛ وكـذلك الـسفينة تحتـوي علـى كـل

العناصر التي ستوظف لإعادة بعث العالم، وهي بالتالي بدور سيرورته ووضعه في المستقبل.

10- من بين وظائف «الحبرية الكبرى» أيضا ((أو «الخلافة الروحية العظمى» أو «القطبانية الكبرى» في مصطلح التصوف الإسلامي)) تأمين الانتقال من دورة إلى أخرى، أو ضمان تبليغ التراث الروحي من دورة إلى التي تتلوها؛ وصنع السفينة له هنا نفس دلالة بناء جسر رمزي، لأنّ كلا منهما مُعَدّ ليسمح ب «السلوك فوق المياه» ((أو مخصص لتجاوز المياه)) وهو رمز ذو دلالات متعددة.

11- الملاحظ أيضا أنّ نوحا منعوت كأول من غرس الكرمة (سفر التكوين، IX، 20)؛ وهذا الحدث يمكن مقاربته بما قلناه سابقا حول الدلالة الرمزية للخمر ودوره في الشعائر المسارية، وذلك في سياق الكلام عن قربان ملكيصادق.

12- من بين الدلالات التاريخية للطوفان الوارد ذكره في التوراة الكارثة التي فقدت فيها قارة الأطلنطيد.

13- نفس الملاحظة تنطبق طبعا على كل التراثيات الطوفانية التي نصادفها عند عدد كبير جدا من الشعوب؛ ومن بينها ما يتعلق بدورات أكثر تخصيصا، كما هو بالأخص الحال عند الإغريق، في شأن طوفان "داكليون" (Deucalion) وطوفان "أوجيجاس" (Ogygés).

14- سفر التكوين، IX، 1217.

15- هذان الشقان مناسبان لشقي «بيضة العالم»، مثلهما مثل «المياه العلوية» مع «المياه السفلية»؛ وخلال مرحلة الاضطراب، يمسي الشق الأعلى غير مشهود، وحينئذ يحدث في الشق الأسفل ما يسميه "فابر دوليفي"((Fabre d'olivet: 1767 - 1825)) بـ«تراكم الأجناس».الشكلان المتكاملان يمكن أيضا، في إحدى وجهات النظر، تشبيههما بهلالين متعاكسين في الاتجاه (كأنّ كل واحد منهما انعكاس للآخر، فهما متناظران بالنسبة للخط الفاصل بين المياه)، وهذا يرجع إلى رمزية "جانوس"، وهو الذي تعتبر السفينة إحدى شعاراته. ويلاحظ أيضا وجود نوع من التكافؤ الرمزي بين الهلال والكوب والسفينة؛ وكلمة "فيسو" (vaisseau بالفرنسية) تستعمل في نفس الوقت

للدلالـة علـى هـذين الأخيريـن معـا («سـانت – فيـسال» Saint-Vaissel هـي مـن التسميات العادية جدا الـتي كانـت تطلـق علـى الكـأس المقدسـة "قـرال" في العـصر الوسيط).

16- هذه الكرة هي كذلك «بيضة العالم»؛ والجنة الأرضية تقع في المستوى الـذي يقـسمها لشقيها العلوي والسفلي، أي في الحد الفاصل بين السماء والأرض.

17- القباليون يقيمون تناسبا بين هذه الأنهـار الأربعـة والحـروف الأربعـة المؤلفـة لكلمـة "بردس" في العبريـة ((أي الجنـة))؛ ولقـد نبهنـا في موقـع آخـر عـن علاقتهـا التماثليـة ((العكسية)) مع أنهار الجحيم الأربعة ("باطنية دانتيه"، طبعة 1957، ص. 63).

18- هذا الاستبدال يناسب تبديل الرمزية النباتيـة بالرمزيـة المعدنيـة، الـتي بيّنـا دلالتهـا في موقع آخر ("باطنية دانتيه"، طبعة 1957، ص. 67).الاثنا عشرة بابا لأورشليم الـسماوية تتناسب طبعا مع البروج الاثني عشر، ومع أسباط بني إسرائيل الاثني عشر؛ فالمقـصود إذن تحول الدورة البرجية إثر توقف دوران العالم، وثبوتها في وضع نهـائي الـذي هـو العودة إلى الوضع الأصلي الأول، عندما يتم الظهور المتتابع للقدرات التي كان يحتوي عليها ذلك الوضع الأصلي القديم.«شجرة الحياة» التي كانت في مركز الجنة الأرضية، هي كذلك في مركز أورشليم السماوية، حاملة هنا لاثني عشرة ثمرة؛ وهذه الثمـرات ليست بدون نمط من التناسب مع الاثني عشر "أديتيا"(Adityas في الـتراث الهندوسـي)، كما أن ل «شجرة الحياة» نفسها نسبة مع "أديتي" (Aditi)، أي الجـوهر الفريـد الـذي لا ينقسم والذي انبثقت منه تلك الاثنتا عشرة.

19- يمكن القول بأنّ الكرة والمكعب يتناسبان هنا على التتالي مع وجهتي النظر التحريكيـة والسكونية؛ والوجوه الستة للمكعب متجهة وفق الأبعـاد الثلاثـة للفـضاء، كـالفروع الستة للصليب المسطر انطلاقا من مركز الكرة.وفي مـا يتعلـق بالمكعـب يـسهل إقامـة مقاربة مع الرمز الماسوني للـ«حجر المكعب»، الـذي يرجـع كـذلك إلى معنـى التمـام والكمال، أي تحقيق منتهى غاية القدرات المندرجة في وضع ما.

تعقيبات المعرب على الباب الحادي عشر

1- كمثال لهذا تجديد بناء الكعبة من طرف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، كرمز للملة الإبراهيمية الحنيفية المستمرة كاستمرار وجود الكعبة إلى آخر الزمان، ثم نشأت حول الكعبة مدينة مكة المكرمة حرم الله الآمن. وكذلك ازدهار المدينة بهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها، حتى أصبحت عاصمة الدولة الإسلامية، كان متزامنا مع نشأة الإسلام نفسه؛ ومن بين الإشارات الكثيرة حول قدسيتها وتجديدها أنه ﷺ غيَّر اسمها من "يثرب" إلى "طيبة"، كما سميت بـ«المدينة المنورة»، وهذا الوصف يذكر بما قاله المؤلف آنفا عن علاقة المراكز الروحية والمدن المقدسة بـ«التنوير» وباللون الأبيض. ومن لطيف الاتفاق تقارب صوتي واضح بين اسم "طيبة" واسم سفينة نوح "طيباه" وعلاقته باسم المدينتين المقدستين في اليونان قديما وفي مصر القديمة "طيبس" اللتين سيذكرهما المؤلف لاحقا.

2- هذا المعنى يذكر بما قام به النبي ﷺ عند دخوله إلى المدينة المنورة أول مرة، حيث قال لمن أرادوا أخذ خطام ناقته: [دعوها فإنها مأمورة] فكان موقع توقفها أي موقع نزوله وإقامته ﷺ كموقع مسجده بتحديد من الله تعالى وحده.ومن هذه التقديرات الإلهية أن الإنسان الكامل الرسول الخاتم ﷺ لم يلد ولم ينشأ ولم يرسل في أي مكان إلا في مركز العالم الأول والأخير، أي إلى جوار بيت الله العتيق وحرمه الآمن الذي قال الحق تعالى عنه في الآية 96 من سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾.

3- حسب المعطيات التي بيّنها المؤلف في بحوث أخرى له، الدورة التي افتتحها نوح عليه السلام تبتدئ من نهاية الطوفان وتنتهي بقيام الساعة ومدتها 12960 سنة، نصفها الأول هو

الشق الثاني من الحقبة الثالثة من بين الأحقاب الأربعة للـ"مانفانتارا" الراهنة، والنصف الثاني هو المرحلة الرابعة الأخيرة أي "كالي - يوقا".

4- رموز الشكلين الكروي والمكعب كلها مندرجة في شكل الكعبة المشرفة وحجر إسماعيل النصف الدائري الذي هو جزء منها. حول رمزية الكرة والمكعب ينظر الباب 20 والباب 23 من كتاب المؤلف "هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان".

الباب الثاني عشر

بعض الخلاصات

QUELQUES CONCLUSIONS

من الشهادة التي تتفق عليها جميع التراثيات تبرز خلاصة في غاية الوضوح، وهو التأكيد على وجود «أرض مقدسة» مُثلىَ، وهي النموذج الأعلى لكل «الأراضي المقدسة» الأخرى، وهي المركز الروحي الذي تتبعه كل المراكز الأخرى. و «الأرض المقدسة» هي أيضا «أرض القديسين» ((أو «أرض الأولياء» أو «أرض الحقيقة»))، أو «أرض السعداء» أو «أرض الأحياء» أو «أرض الخلود»؛ فهذه العبارات كلها متكافئة، وينبغي أن يضاف إليها كذلك عبارة «أرض الصفاء» (1)، التي يطبّقها أفلاطون على «مقر السعداء» (2) تحديدا. وموقع هذا المقر يُتَصوَّر عادة أنه في «عالم غيبي»؛ لكن، إذا أردنا فهم المقصود من هذا التعبير، لابدّ أن لا ننسى بأنّ الأمر على هذا المنوال في ما يخصّ «سُلّم دوائر المدارج الروحية» ((أو ما يسمى في الاصطلاح الصوفي بدوائر ديوان الصالحين أو ما يُعبر عنه ب مدارج مقامات الولاية)) الذي تتكلم عنه كذلك جميع التراثيات، والذي يمثل في الحقيقة درجات السلوك الروحي العرفاني (3). وفي العهد الراهن من دورتنا الأرضية، أي دورة الكالي - يوقا، هذه «الأرض المقدسة» يحفظها «حراس» يسترونها عن أعين العالم، رغم اضطلاعهم ببعض العلاقات التي تربطها بالعالم الخارجي ((هؤلاء «الحراس» يسمون في الاصطلاح الصوفي ب «أهل التصريف»)) (أ)؛ وهي بالفعل غير مرئية، ويتعذر بلوغها، لكن هذا يصح فقط على الذين لا يملكون المؤهلات اللازمة لولوجها. والآن، فتحديد موقعها في منطقة معينة، هل ينبغي اعتباره فعليا بالمعنى الحرفي، أم بالمعنى الرمزي فقط، أم بالاثنين معا في نفس الوقت؟ نكتفي بالجواب عن هذا السؤال بقول إنّ الوقائع الجغرافية نفسها، بالنسبة لنا، وكذلك الوقائع التاريخية، ككل الظواهر الأخرى، لها قيمة رمزية، لا تنقِص بالطبع شيئا من حقيقتها الخاصة بها كظاهرة واقعية ((بالمعنى الحرفي))، وإنما تضفِي عليها دلالة عُلْيا، زيادة على هذه الحقيقة الواقعية المباشرة (4).

إننا لا ندّعي أننا قلنا كل ما يمكن قوله حول الموضوع الذي عليه مدار هذا البحث، بل بالعكس، والمقاربات نفسها التي أقمناها تسمح بالتأكيد بالإيحاء بكثير من المقاربات الأخرى؛ لكن يقينا، رغم هذا كله، لقد تكلمنا فيه بأزيد كثيرا من ما قد قيل فيه حتى الآن ((أي في الغرب))، وربما يميل بعض الأفراد إلى لومنا على هذا. بَيد أننا لا نظن أننا أفرطنا في التوضيح، بل نحن واثقون بأنه لا وجود هنا لأمر لا ينبغي إفشاؤه، مع أننا أقل استعدادا من أي طرف آخر للاعتراض على ما يدعو لاعتبار مسألة انتهازية عندما يكون الشأن متعلقا بالكشف العلني لأمور ذات طابع غير مألوف. وبصدد مسألة انتهاز الفرص، يمكن أن نقتصر على ملاحظة مختصرة: وهي أنه في الظروف التي نعيشها الآن، تسير الحوادث بسرعة فائقة بحيث أنّ كثيرا من الأمور التي لم يكن يَعْدُ لأسبابها ظهور مباشر، يمكن أن تجد لها اليوم تطبيقات طارئة إن لم تكن متوقعة تماما، وقد يحدث هذا في ظرف زمني أقرب مما يُظن. هذا، وإننا نريد التجرد عن كل ما قد يشبه من قريب أو من بعيد القيام بـ«تنبؤات»؛ بَيْدَ أننا لكي نختم، نودّ إيراد هذه الجملة التي نطق بها "جوزيف دي ميستر" (Joseph de Maistre) (5)، وهي اليوم ((أي سنة تأليف هذا الكتاب عام 1927)) أحق منها قبل قرن، وهي: «يجب أن نستعد لوقوع حادث هائل في المجال الإلهي، وإننا نسير نحوه بتسارع متزايد يدهش كل الناظرين. إنّ نبوءات رهيبة تعلن بأن نهاية الزمان قد أقبلت» (ب).

تعقيبات المؤلف على الباب الثاني عشر

1- من بين المدارس البوذية الموجودة في اليابان، توجد مدرسة "جيو – دو" (Giô-dô) ويُترجم اسمها بـ«أرض صافية»؛ ومن ناحية أخرى، هذا يذكر بالتسمية الإسلامية: «إخوان الصفاء»، هذا إذا لم نذكر طائفة "الكاتار" (Cathares) في العصر الوسيط التي يعني اسمها: «صفوة». ومن الراجح أنّ كلمة "صوفي"، التي تطلق على العرفاء المسلمين (أو بتعبير أدق هم الذين بلغوا إلى الغاية المقصودة من السلوك الروحي العرفاني، مثل "اليوقيين"، جمع "يوقي"، في الملة الهندوسية)، لها بالضبط نفس الدلالة ((أي دلالة كلمة: صفوة، أو: أهل الصفاء))؛ وبالفعل فإن اشتقاقها السطحي الذي يجعلها مشتقة من "الصوف" (الذي جُعل منه اللباس المستعمل عند الصوفية)، غير مقنع تماما، كما أن تفسيرها بكلمة "صوفوص" الإغريقية، أي «حكيم»، رغم أنها تبدو أقرب إلى القبول، يشينه استدعاء لفظة غريبة عن اللغة العربية؛ وبالتالي فإننا نعتقد بأنه ينبغي تفضيل التأويل الذي يجعل كلمة "صوفي" مشتقة من "الصفاء".

2- الوصف الرمزي لهذه «الأرض الصافية» يوجد في أواخر كتاب "فيدون" ((Phédon للفيلسوف اليوناني الشهير الحكيم الإلهي إفلاطون (427-347 ق.م.))) (الترجمة الفرنسية لـ"ماريو مانيي"، ص. 285-289)؛ وكنا قد لاحظنا سابقا أنه بالإمكان إقامة نوع من التوازي بين هذا الوصف ووصف "دانتيه" للجنة الأرضية ("جون ستيوارت"، The Myths of Plato، ص. 101-113).

3- حقا، إن مختلف العوالم هي بالتحديد مراتب وجود، وليست هي أماكن، رغم أنه بالإمكان وصفها وصفا رمزيا كما هي عليه؛ واللفظة السنسكريتية "لوكا"، التي تستعمل للدلالة عليها، تتضمن في نفسها الدلالة على هذه الرمزية المكانية. وتوجد كذلك رمزية زمانية تصف نفس هذه المراتب في شكل دورات متتابعة، حتى وإن كان الزمان مثله مثل المكان، ليس في الحقيقة سوى شرط خاص بواحدة منها، بحيث إن التتابع هنا ما هو إلا صورة لتسلسل عِلي (نسبة للعلة أي السبب).

4- يمكن مقارنة هذا، بتعدد المعاني التي تفسَّر بها النصوص المقدسة، والتي بعيدا عن أن تتعارض أو تتنافى، هي بالعكس تتكامل وتتناسق ضمن المعرفة التأليفية الجامعة الكاملة.وفي وجهة النظر التي نعرضها هنا، تتناسب الوقائع التاريخية مع رمزية زمنية، وتتناسب الوقائع الجغرافية مع رمزية مكانية؛ ويوجد بين هذه وتلك علاقة أو تلازم ضروري، كما هو حاصل بين الزمان والمكان نفسهيما، ولهذا فإنّ تحديد موقع المركز الروحي يمكن أن يختلف حسب الدورات المعتبرة.

5- "أمسيات سانت – بترسبورغ" المحاورة الحادية عشرة.لإزاحة كل ما يبدو أنه تناقض مع إشارتنا السابقة حول توقف التنبؤات، وهو ما لاحظه قبل ذلك "بلوتارك" ((مؤرخ يوناني عاش في روما وجال في الشرق (50 – 125م)))، لا نلح على التنبيه على أن كلمة «تنبؤات» قد استعملها "جوزيف دي ميستر" ((1753-1821م)) بمعنى واسع جدا، وهو المعنى الذي غالبا ما يعطى لها في الكلام العادي، وليس بالمعنى الخاص الدقيق الذي كان لها في العهد القديم.

6- من مظاهر الحراسة الإلهية للمراكز الروحية التي تجلت حسا «الطير الأبابيل» التي رمت جيش أبرهة الحبشي بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول عندما أرادوا هدم الكعبة المشرفة، قبل بضعة أشهرمن مولد رسول الله ﷺ، كما هو مذكور في سورة الفيل.

7- قال الله تعالى في الآية الأولى من سورة الأنبياء: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾. ففي هذه الآية بيان لأدق حساب يُعرف به المقصود من كلام المؤلف الأخير، ولكن لا يعقله إلا العالمون.